محمد حسين الأعرجي

جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية



جهاز المخابرات

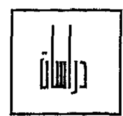
في الحضارة الإسلامية

محمد حسين الأعرجي

جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية

المدى

منشورات







اسم المؤلف : محمد حسين الأعرجي
عنوان الكتاب : جهاز المخابرات
في الحضارة الاسلامية
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : M.Hussein Al-Aaraji
Title : The Intelligence
in Islamic Civilization
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

الإهداء

إلى أرواح الشهداء المنائر:

يعقوب النجّار،

العامل العنيد شهيدِ أقبية التعذيب في مديرية أمن النجف ١٩٦١ .

نزار حبيب الأعرجي،

شهيد انتفاضة معسكر الرشيد ١٩٦٣ *الباسلة.*

فاضل صالح الأعرجي،

شهيد انتفاضة آذار ١٩٩١ *المجيدة.*

وإلى كلِّ شهداء القضايا العادلة:

لم تذهبْ تضحياتُكم سُدىً؛ فقد كتبتُم بدمائكم الياسمين هذا الكتاب.

الأعرجيّ

مقدمة

لا أعلم أن أحداً من القدماء قد أفرد حديثاً خاصاً بهذا الجهاز الخطير ، ولعل سرِّية عمله هي التي حجبت حقائقه عن أن تكون موضع تأليف ؛ ولكن من يقرأ كتب التاريخ الإسلامي ومصادر الأدب لايعدم أن يجد إشارات متناثرة متفرقة تومئ إلى هذا الجهاز ، ولاتصفه ، وتشير إليه ، ولاتقترب منه مما يجعل هذه الإشارات تثيرفضول الباحث لعله حين يستنطق هذه الإيماءات ، ويجمع تلك الإشارات يستطيع أن يكوِّن صورة عنه إن لم تكن واضحة ، فقريبة من الوضوح .

وأهمل المؤرخون المعاصرون موضوع هذا الجهاز كما أهمله أسلافهم ، لسبب لاأعرفه على وجه اليقين ، ولكنْ لعلَّ تفرُّق مصادره وتَوَزُّعَها على أكثر من باب من أبواب المعرفة هو سرُّ هذا الإهمال . إذ ليس أصعب من أن تفلي كتب التاريخ ، والأدب ، وكتب سياسة الملوك ، وسواها لكي تكتب شيئاً لاتعلم إن كان سيكون كتاباً أم لا ؟ وأشهد أنني يوم بدأت أهتمُّ بهذا الموضوع ما كنتُ لأطمح أن أكتب فيه أكثر من مقالة .

ومع هذا وجدتُ بي رغبةً ـ لاأعرف مصدرها ـ في جمع كلِّ مايمرُّ بي أثناء قراءاتي ، رجاء أن يأتي يومٌ أجد فيه هذا الذي جمعتُه مما يُمكن أن يقدَّم للناس ، ولا أعرف حتى الآن إن كان هذا اليوم الذي رجوته قدجاء أم أنني استعجلته ؟

ومهما يكن من أمرٍ فقد شدَّ من عزيمتي في هذا الشأن كتابان هما : « نُظُمُ الاستخبارات عند العرب والمسلمين » لعارف عبد الغني ، و « موسوعة الاستخبارات

والأمن في النصوص الإسلامية» لعلي دعموش العاملي . ولابدَّ لي من حديث عن هذين الكتابين لشدّة تعلقهما بكتابي ؛ فأقول : يكادُ الكتاب الأول أن يركّز تركيزاً شديداً على نُظُم الجيش الاستخبارية ، وعلى نُظم جهاز الشرطة وهي نظم قديمة لم تخلُ حضارةٌ من الاهتمام بها ، ولا يكاد يُغفلها مؤرِّخٌ من المؤرِّخين ، وليس على جهاز المخابرات من حيث هو جهازٌ سياسي يُسهم في إدارة الصراع بين الحاكم والمعارضة من وجه خفيٍّ ، ويتدخل في هذا الصراع بوسائله الخاصة من تجسسٍ ، واختراق ، واغتيال ، وبثِّ إشاعةٍ وما إلى ذلك من وسائل بقيت هي وسائل مثل هذا الجهاز إلى اليوم . ومع هذا فقد أفدتُ من هذا الكتاب بما قدّم لي في بعض صفحاته من مادّة أولية .

وأما الكتاب الثاني فهو جهدٌ ممتاز في الجمعِ ـ ولم ينسب صاحبُه لنفسه صفة التأليف كما فعل سابقُه ـ لا سيما أنه قد جمع من مصنَّفات الشيعة ما لايصل إليه كلُّ أحد ، ومن أخبار أئمتهم ما لايكادُ يُعرف ، ولكن رغم هذا الجهد الممتاز لم يسلم الكتاب من التوسع في فهم مصطلحي الأمن والاستخبارات . ومع هذا وذاك فقد أفدتُ من بعض صفحات هذا الكتاب وليس من مجلّداته الثلاث فيما نقل من نصوص ثمينة ، ولا بد من التنويه بفضله وبفضل جامعه .

وأريد الآن أن أتحدّث عمّا يمكن أن يثيره هذا الكتابُ من مسائل ينبغي لي الحديث عنها ، فمن هذه المسائل إنْ لم يكن أهمَّها على الإطلاق أن الكتاب يُمكن أن يجعل طائفة من الناس تتساءل عن سرِّ اهتمامي بهذا الموضوع دون سواه ، وبمعنًى آخر : لماذا أهتمُّ بهذا الجانب المُظلم من تاريخنا دون سواه ؟ وأقول إجابةً عن السؤال : إنَّ من شأن الظلمة أن تلفت النظر في مهرجان الضوء أكثر مما يلفتُ الضوءُ نفسُه . هذه واحدةٌ ، فأمّا الثانيةُ فهي أنني لم أكن أحسبُ يوم فكّرت أن أبحث في هذا الموضوع أن أُفاجأ بكل هذا الظلام الحالك . وأما الثالثة فهي أنّنا ونحنُ نتفيّأ ظلال غابة ذُلِّنا المعاصر حُكّاماً ومحكومين لابدّ لنا أن نعرف كيف نبتت جذور هذه الغابة . وإلاّ فعجيبٌ ألاّ يكون لحُكّامنا كلمةٌ نافذةٌ مسموعةٌ في العالم ـ رغم أنهم لو شاءوا أن يتحكّموا ببعض اقتصادهذا العالَم لفعلوا ـ وأن لا تكون لنا نحن المحكومين

حقوق البهائم في أن تُضرِب عن الطعام ، أتراني إذ يؤرِّقني الموضوعُ أُسيء إلى حضارتنا العريقة ؟

إنَّ ذلك لم يكن من وَكْدي ولا من دأبي يوماً من الأيام ، وإنَّما رأيتُ جانباً من حضارتنا لم يكتب فيه المتخصِّصون فاستهواني ، كما استهواني قبلَه أن أكتب في موضوعٍ لم يكتب فيه المتخصِّصون بالمسرح ؛ فكتبتُ « فن التمثيل عند العرب » ، وأنا في الكتابين هاوٍ غير محترِف ، فلا المسرح من تخصُّصي ، ولا المخابرات ـ والعياذ بالله ـ من هواياتي .

هذا إلى أنَّ جانب المخابرات لم يكن حِكراً على الحضارة الإسلامية ، فقد عرفته الحضارة الفارسيّةُ ، وعرفته الحضارةُ الرومانية ، وسواهما ، ولكنني لم أتحدَّث عن هذه المعرفة لأنني لا أزعمُ أنني ضليعٌ بها ، ولا شبهُ ضليعٍ . فإن كان حديثي عن هذا الجانب يمكن أن يوحي بأنَّ الحضارة الإسلامية قد انفردت به من دون الحضارات فإنَّ ذلك مما لم أكن أقصِده ، فلا أجد أنَّ بي حاجةً إلى الاعتذار عنه . هذا إذا كان البحثُ في جانبٍ حضاريٍّ ـ سواء كان جانباً سلبيّاً أم إيجابيّاً ـ يستحقُّ الاعتذار أصلاً .

ومن المسائل التي يمكن أن يُسأل عنها هو وفرة أخبار المعارضة الشيعية ، إذ لم أتوفَّر كثيراً ـ مثلاً ـ على معارضة الخوارج . والسبب في ذلك أنَّ أخبارهم غير متوفِّرة ، رغم توفُّر بعض مصادر تاريخ الخوارج الإباضية لديَّ من مثل : « أخبار الأئمة الرُّستميين » لابن الصغير ، و « كتاب سير الأئمة وأخبارهم » لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر ، ومثل « طبقات المشايخ بالمغرب » لأحمد بن سعيد الدرجيني ، ولكنني لم أجد في كلِّ ذلك ما ينفعني في موضوعي ، على الضدّ من المصادر الشيعية الحافلة بأخبار الاضطهاد ، والمعارضة ، مما يوفِّر للباحث في جهاز المخابرات مادّة .

ومسألةٌ أخرى أريد الحديث عنها هي أنّني لم أستقصِ كلَّ الحوادث التي قام بها جهازُ المخابرات لسببين أوّلُهما أنّني لا أمتلك في هذه السماء الأعجمية البعيدة كلَّ ما أعرفه من مصادر تنفعني في مثل هذا الموضوع ؛ فقد كان ـ على سبيل المثال ـ ينفعني من دون أدنى شكٍّ أو ريبٍ كتاب « التاج في أخلاق الملوك » المنسوب

للجاحظ ، وكان ينفعني أيضاً «بدائع السلك في طبائع الملك» لابن الأزرق ، و «لطفُ التدبير» ، ولا أتذكّر اسم مؤلفه الآن ، وكان ينفعني سواها مما لا أريد أن أُعدِّد ، ولكن أين هي عني وأين أنا عنها ؟

أما السبب الآخر فهو أنّه لم أُرِد لنفسي أن أؤرخ ؛ لأنني لستُ مؤرِّخاً ، بمقدار ما أردتُ لها أن ترسم صورةً لهذا الجهاز ، ومن هنا كنتُ آخذ الحادثة وأهمل نظائرها إذا دلّت عليها . ثمّ تعمّدتُ فيه أن أُدرج طائفةً من النصوصِ كما قالها مؤلّفوها ، وساقني إلى ذلك غرابة تلك النصوص وجدّة موضوع البحث معاً .

أما تسمية الكتاب فقد كان يمكن أن أسمّيه : «ديوان البريد والخبر في الحضارة الإسلاميّة» ولكنني فكّرتُ أنّ مثل هذه التسمية ستكون أبعد ما يُتصوَّر عن طبيعة الكتاب ، حتى لكأنها في أيامنا هذه اسمٌ لا يعني شيئاً ، ففضّلتُ أن يكون عنوان الكتاب هو «جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية» كما أثبتُّ في غلافه ليدلّ على موضوعه .

وبعد فسيكون هذا الكتابُ قد جزاني خير ما يكون الجزاء عما أنفقتُ فيه من جهدٍ ووقتٍ لو رأيتُه مجرَّد كتابٍ يختلِف في قيمته الناسُ ، فما بالك كيف سأصف جزاءه لو رأيتُ أنه ـ عزيزي القارئ ـ قد حاز بعض قناعتك أنني بذلتُ فيه وقتاً ، وأردتُ منه شيئاً ؟ وما بالُك إذا رأيتك قد تذكّرت وأنت تُنهي قراءته المثل العربيّ القائل : «ومن يشابِه أبَه فما ظلَم» ؟

على أنني أطمح وأنت تتذكّر المثل أن تزيد عليه : أنّ هذا الذي شابه أباه فما ظلمَ قد ظلَمنا نحن ، وجعل من حضارتنا العريقة ذكرياتٍ منبوذين في صقيع المنافي .

ولا أزعم بعد هذا كلِّه أنني وفقتُ فيما كتبتُ ، ولكنني أزعمُ أنني اجتهدتُ فإنْ وُفِّقت في اجتهادي فبها ونعمتْ ، وإلاّ فحسبي أنني حاولتُ أن أُومئ إلى طريق لم يمشِ فيه الباحثون ، والرائدُ لا يكذِبُ أهله .

محمد حسين الأعرجي

بوزنان ـ بولندة في ٢٣/٩/١٩٩٧

الفصل الأول

البداياتُ الأولى

لم يكن على أيام رسول الله (ص) شيءٌ يمكن أن يسمى جهاز مخابرات ، ولكن هذا لايعني أنَّ النبي قد أهمل هذا الجانب ، وإنما كان يكلف أحد صحابته كلما رأى ضرورة استجلاء أمر من الأمور أن يقوم به ؛ فقد قيل في سبب نزول قوله تعالى : ﴿إن جاءكم فاسقٌ بنبأ﴾ أن الفاسق هو ابنُ أبي مُعَيط الوليد بن عقبة «بعثه النبيُّ (ص) إلى بني المصطلق مصدقاً فلما رأوه وأقبلوا نحوه فهابهم [كذا] ، فرجع إلى النبيِّ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام ؛ فبعث النبيُّ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولايعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتَهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالدٌ فرأى ما يُعجبه فرجع إلى النبي فأخبره»(١) .

وعلى أن الخبر لايقول لنا إن كان النبيُّ نفسُه قد أمر خالداً باتخاذ العيون على بني المصطلق ، أو أن خالداً هو الذي اجتهد في اتخاذ العيون ، إلاّ أننا يمكن أن نتصوَّر أن اتخاذ العيون لم يكن غائباً عن ذهن رسول الله (ص) ، وهو يوصي خالداً «أن يتثَبَّت ولا يعجل» ؛ لأنه لا يكون معنى للتثبت من دون اتخاذ العيون عليهم لتقرير أمر خطير كأمر بقائهم على الإسلام . وسواء أأمر النبيُّ (ص)باتخاذ العيون أم لم يأمر فإنَّ سكوته على الطريقة التي اتبعها خالدٌ في التحقيق يمكن أن

(١) الأغاني ٤ : ١٦٢٥ .

تدلنا على رضاهُ عنها ، وعلى أنَّ بثَّ العيون أمرٌ مألوف عنده في مثل هذه الحالات حتى إنه سكتَ فلم يرَ أن يوصيَ خالداً بالطريقة التي يتثبت بها من أمرهم ؛ ولو لم يكن الأمر مألوفاً لرأيناه يوصي خالداً بما يجبُ أن يفعل .

ويؤيِّد ما نذهب إليه ما رواه ابن أبي إسحاق «عن محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، وغيره... قالوا : لمّا أجمع رسول الله (ص) المسير إلى مكة ، كتب حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعة كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله (ص) من الأمر في السير إليهم ، ثمَّ أعطاهُ امرأةً زعم محمد ابن جعفر أنها من مُزَينة ، وزعم لي غيره أنها سارة ، مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جُعلاً على أن تبلِّغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثمَّ فتلت عليه قُرونَها ، ثمَّ خرجت به ، وأتى رسول الله الخبرُ من السماء مما صنع حاطبٌ ، فبعث عليَّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام رضي الله عنهما... فخرجا حتى أدركاها... »[١] فخبر حاطبٍ هذا واضحٌ في أنَّ بثَّ العيون كان أمراً مألوفاً عند المشركين ، فما يمنع المسلمين أن يكون مألوفاً عندهم أيضاً ؟

وخبرٌ آخر لايحتمل التأويل هو مارواه حُذيفة بن اليمان من استعداد النبيّ (ص) لوقعة الخندق ، يقول حذيفة : « والله لقد رأيتنا مع رسول الله (ص) بالخندق ، وصلى الرسول هُوِيًّاً من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعلَ القوم ثمَّ يرجعُ ـ يشرط له رسول الله الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجلٌ من القوم ، من شدّة الخوف ، وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحدٌ ، دعاني رسول الله (ص)فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني ؛ فقال : ياحُذيفة ، اذهب فادخل مع القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحدِثن شيئاً حتى تأتينا . قال : فذهبتُ فدخلتُ في القوم... »[٢] .

وعلى أن هذا الخبر هو من قبيل استطلاع قدرة العدو القتالية إلاّ أنّه يؤيد ما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ٩٣ ، وينظر تاريخ الإسلام (المغازي) : ٥٢٥-٥٢٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ : ١٨٢ .

ذهبنا إليه من أن إذكاء العيون كان أمراً مألوفاً في حياة الدعوة الإسلامية .

وإذاً ، لم يكن هناك جهاز متخصّص بإدارة أعمال المخابرات ، والاستخبارات ، ولم يكن هنالك رجالٌ مخصوصون للعمل في هذا الجهاز ، وإنما كان رسول الله نفسُه (ص) ينتدبُ لهذه المهمة أو تلك من يراه كفوأً لها من صحابته .

على أنَّ المهمات التي كان يقوم بها الصحابة لم تكن تقف عند معرفة ما تجبُ معرفته عن أعداء الدعوة ، وإنما كانت هذه المهمات أحياناً تعني اغتيال أعداء الدعوة ممن يكون في حياتهم خطرٌ عليها ؛ فقد روي عن عبد الله بن أُنيس أنه قال : « دعاني رسول الله (ص) فقال : إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن نُبَيح الهُذَلي يجمع لي الناسَ ليغزوني ، وهو بنخلة أو بِعُرَنَة ، فَأْتِهِ فاقتُلْهُ ، قلتُ يا رسول اللهِ انعته لي حتى أعرفَه... فأقبلتُ نحوَه ، وخشيتُ أن تكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة ، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه ، أومئ برأسي فلما انتهيتُ إليه ، قال : من الرجلُ ؟ قلتُ رجلٌ من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجلِ فجاءك لذلك . قال : أجل ، إني لفي ذلك ، قال : فمشيتُ معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملتُ عليه بالسيف ، فقتلتُه ، ثم خرجتُ... فلما قدمتُ على رسول الله (ص) فرآني قال : أفلحَ الوجهُ ، قلتُ : قد قتلتهُ يارسول الله (ص) . قال : صدقتَ »[1] .

ويمكن لأحد أن يلاحظ على عبد الله أنه لم ينفِّذ ما كُلِّف به إلاّ بعد أن تأكَّدَ من أنه في مواجهة الرجل المطلوب اغتيالُه ؛ لأنه لم تكن لديه أوصافٌ جسمانية لادقيقةٌ ، ولا مُبهمةٌ عنه ؛ فقد اكتفى النبيُّ (ص) في وصفه بأن قال : « إنك إذا رأيتَه أذكرَك الشيطانَ ، وآيةُ ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدتَ له قُشعريرة » ، هذا إلى أن عبد الله لم يكن قد التقى به من قبلُ ؛ فكان لزاماً عليه أن يفعل ما فعل لئلا يقتل بريئاً .

---

(١) السابق ٤ ، ٢٦٦ ، وتنظر تفاصيل اغتيال أبي رافع بن أبي الحقيق في نظم الاستخبارات : ٢٠-٢٣ ، وينظر فيه : ٢٣-٢٦ فشل محاولة اغتيال أبي سفيان .

وإذا كان عبد الله بن أُنيس قد كُلِّف وحده بمهمة اغتيال ابن سفيان الهذلي ؛ فإن مثل هذا التكليف لايَطَّرِد دائماً ، فقد تتكفَّل فرقةُ اغتيالٍ باغتيالِ أحدَ أعداء الدعوة ، كما حدث في اغتيال كعب بن الأشرف اليهودي ؛ إذ قام باغتياله خمسة من الصحابة بينهم أخوه من الرضاعة الحارث بن أوس بن معاذ ، فقد كان الرسول (ص) قد كلَّفَ محمد بن مَسلمة الأنصاري في السنة الثالثة من الهجرة باغتيال كعبٍ ، ولكن محمَّداً أشرك معه أربعة من أصحابه . ويَلْفِتُ النظر في هذا الاغتيال أن الفرقة التي قامت به هي التي وضعت خُطَّته المُحْكَمَة[١] .

على أنه يجبُ عليَّ وأنا أتحدث عن عصر النبوة أن أُنبِّه إلى أنَّ رسول الله لم يكن يتوسَّع في معرفة أمور الناس عن هذا الطريق ، وفي التنقيب عن أخبارهم ؛ وإنما كان يهمُّهُ أن يتعرَّف أخبار أعدائه الذين يكيدون له ولدعوته ، وليس أخبارَ سواهم . ولا أجد بي حاجةً إلى التذكير بقوله تعالى ﴿ولا تَجَسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً﴾ على الرغم من أنه أحلَّ التجسسَ على الأعداء الذين يُخاف منهم على الإسلام ؛ فقد اختطَّ النبيُّ (ص) لنفسه منهجاً رائعاً يدلُّ على معرفةٍ عميقة بالنفس البشرية حين قال : « إنَّ الأمير إذا ابتغى الرِّيبة في الناس أفسدَهم »[٢] . ومن هنا كان حريّاً به أن يتعامل على وفق مبدأ الثقة في الناس ؛ حتى لقد بلغ هذا المبدأ من التمكن في نفسه بحيث إنه لما سأل حاطباً عمَّا دفعَه إلى أن يتجسَّسَ عليه لقريش قال له حاطبٌ : « يا رسول اللهِ ، أما والله إنّي لمؤمنٌ بالله ورسولِه ، ما غيَّرتُ ولا بدَّلتُ ، ولكني كنتُ امرءاً ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرةٍ ، وكان لي بين أظْهُرِهم ولدٌ وأهلٌ فصانعتُهم عليهم » أقول : إنه حين سأل حاطباً عن أمره اكتفى بما قال حاطبٌ ، ولم يتوجَّه إليه بشيءٍ على رغم إلحاح عمر بن الخطاب أن يُقتلَ ، وعلى رغم تطوّعه أن يضرب هو عُنُقَه .

وإذاً لم يكن رسول الله (ص) يتوسَّعُ في أمر بثِّ العيون . بل إن طائفةً من

---

(١) تنظر تفاصيل اغتيال كعب بن الأشرف في الكامل في التاريخ ١ : ٥٤٣-٥٤٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ : ٣٣٣ .

صحابته كانوا يرون التجسس على المسلم إثماً ، فقد روي أنه « لمّا وُلّيَ سلمان الفارسيُّ على المدائن بعد حُذيفة بن اليمان كتب إليه عمر بن الخطاب يطلبُ منه أن يوافيه بأخبار حذيفة في ولايته ، ويستقصي أيام أعماله ، وسيره ، ثمَّ يعلمه بالقبيح منها » فامتنع سلمان لأنه لا يريد أن يعصي « اللهَ في قصِّ أثر حذيفة » طاعةً لعمر[١] . ويمكن أن نقف عند خبرٍ مثل هذا لنرى الفرق بين عقلية رجل دولةٍ مثل عمر بن الخطاب ، ومؤمنٍ زاهدٍ لا يرى أنَّ متاعَ الدنيا شيء يستحقُّ أن يعصي اللهَ من أجله مثلِ سلمان الفارسيِّ . وقد يكون سلمان ـ وهو وحذيفة بن اليمان ممن يرون أن علياً أحقُّ بالخلافة من صاحبيه ـ قد رأى أنَّ في توهين جانب حُذيفة توهيناً لجانب معسكر علي بن أبي طالب . ولكن هذا لاينفي دلالة الخبر ؛ إذ لم يختلف اثنان من المسلمين في زهد سلمان وفي صلابة إيمانه ؛ وهو الذي قال فيه النبي محمد (ص) على مايرويه الإمام أحمد بن حنبل : « أُمرتُ بحبِّ أربعةٍ لأنَّ الله يُحبُّهم : عليٌّ وأبي ذرٍّ وسلمان والمقداد »[٢] .

ويهمني الآن من هذا الخبر ما هو ـ في رأيي ـ أهمُّ مما ذكرتُ وهو أنه لم يكن هنالك شيءٌ يشبه ديوان البريد ـ ولا أقول : ديوان البريد ، وهو الديوان الذي يقوم مقام جهاز المخابرات اليوم ـ قد تأسس بعدُ ؛ فاجتهدَ عمر بنُ الخطاب أن يستعين بولاته في معرفة أخطاء سابقيهم في إدارتها وسيِّرهم في تصريف شؤونها . فقد ارتعب سلمانُ من طلبِ عمرَ أن يقصَّ عليه القبيحَ من عمل حذيفة .

وإذا كان سلمانُ قد رفضَ هذا الأسلوبَ باعتباره مؤمناً قبل أن يكون والياً ؛ أو باعتباره مؤمناً من شيعة الإمام عليٍّ فلا أظنُّ أن جميعَ الولاة ولا جميع المسلمين قد رفضوا ذلك ؛ وإلاّ فمن أين عَلِم عمرُ أنَّ خالد بن الوليد ـ وكان يومذاك على قِنَّسرين في بلاد الشام ـ قد دخل « الحمّام فتدلَّك بغسلٍ فيه خمرٌ »[٣] ؟

---

(١) الاحتجاج ١ : ١٨٥-١٨٦ .

(٢) مسند ابن حنبل ٥ : ٣٥١ .

(٣) الكامل في التأريخ ٢ : ١٥٦ .

ومهما تكن الحال فلم تشهد خلافة عمر تطوّراً يمكن أن يضاف إلى ما تركه رسول الله (ص) من تراثٍ في هذا المجال ؛ ولا أظنُّ أنه كانت به حاجةٌ إلى مثل هذا التطور فقد استقرّت خلافته بعد موت فاطمة الزهراء بنت النبي محمد المُبكِّرِ ـ وقد كانت غاضبةً عليه وعلى أبي بكر الصدّيق أن حرماها ميراثها في فدك ـ وبعد بيعة زوجها علي بن أبي طالبٍ له . أما ما يحاوله بعضُ المؤرِّخين ، ويتابعهم عليه نفرٌ غير قليلٍ من الباحثين مِن جعل عمر بن الخطاب نفسه جاسوساً « يتسقَّطُ أخبار المسلمين ويُقدّم المعونةَ للمحتاج منهم »[1] فيمنعني من قبوله أنهم من حيث أرادوا أن يُكرِّموا عُمَرَ بن الخطابَ جعلوه عريفَ شرطة ؛ هذا إلى أنني لا أعرف كيف أجمع ـ إذا افترضتُ صحَّة الروايات وهيهات أن يكون مني ذلك ـ أقول : لا أعرف كيف أُوفِّق بين تلك الرواية وبين قولهم : « رأى عمرُ بنُ الخطاب جاريةً تطيشُ هُزالاً فقال : من هذه ؟ فقال عبد الله [يعنون ابنَهُ عبد الله بنَ عمر] هذه إحدى بناتك . قال : وأيُّ بناتي هذه ؟ قال : بنتي ، قال : ما بلغَ بها ما أرى ؟ قال : عملُكَ! لا تُنفِقُ عليها ، قال : والله إني لا أعول ولدَكَ فاسعَ عليهم أيها الرَّجُل »[2] . أترى أنَّ من يجهلُ ـ وحاشا عمرَ ـ أنَّ لأهله عليه حقاً يمكن أن يعرف أن للناس عليه حقوقاً ؟ نعم يصنعُ هذا السياسيُّ الدجالُ الذي يريدُ أن يُريَ الناسَ ـ وحذاؤه فوقَ رقابهم ـ أنهم أعزُّ عليه من أهله ، ولم يكن عمرُ كذلك ولن يكون!

فإذا زدتَ على هذا قولَهم أنَّه كان « يمرُّ بالآية من وِردِهِ فيسقطُ حتى يُعادَ كالمريض ، حتى ليقال : إنه سمع قارئاً يقرأ والطُّور ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿إنَّ عذابَ ربِّكَ لواقعٌ مَا لَهُ مِن دَافعٍ﴾[3] سقط ، ثمَّ تحامل إلى مَنزلِهِ فَمَرِضَ شهراً من ذلك... »[4] أقول إذا زدنا على رواية إهماله حفيدته مِثلَ هذا الضعفِ

---

(١) نظم الاستخبارات : ١٥ .

(٢) تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) : ٢٧١ ، وينظر تخريج الخبر في حاشيته .

(٣) الطور : ٧ .

(٤) الكامل في التاريخ ٢ : ٢١٦ ، وفي تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) : ٢٧٠ « كان عمر يمرُّ بالآية من وِردِهِ فيسقط ، حتى يُعادَ منها أياماً » .

في صحّته أثناء خلافته ـ رغم أن الذي ساق الخبر كان يريد أن يستشهد بهذه المنقبة على قوة إيمانه التي لا نشكُ بها ـ أقول إذا أدركنا مثل هذا الضعف في صحّته فما معنى أن نصدّق أنه كان لا ينام الليل تارة قياماً لله ، ولا ينامه تارةً أخرى ؛ لولعه أن يُمارس هوايته في أن يكون ـ وأجلّه الله عن ذلك ـ عريف شرطةٍ[1] ؟!

وإذاً لم يكن عمر بن الخطاب جاسوساً لخلافته ، ولم يكن يليق به هذا . نعم كان يستطيع أن يُكلِّف من المسلمين من يثقُ به فيقوم له بما يريد من تدبير شؤون خلافته ، وقد رأينا تكليفه سلمان الفارسي أن يقصَّ له آثار حذيفة بن اليمان ، وإباء سلمان أن يُطيعه ، ولكننا رأينا أيضاً مَن وافاه بأخبار خالد بن الوليد وهو في قنّسرين .

ونرى عمر وقد شنَّ حملةً على ولاته في الأمصار ، « فعزل أبا موسى الأشعريَّ عن البصرة ، وشاطرَه ماله ، وعزل أبا هريرة عن البحرين ، وشاطرَهُ مالَهُ ، وعزل الحارث بن كعب ابن وهب وشاطرَهُ مالَه »[2] ؛ وإذ حاسَبَ هؤلاء الولاة دلَّ على أنه يعلم من أمورهِم مالم يكونوا يظنون أنه يعلمه ؛ وإلاّ فمن العجيب أن يسأل أبا هريرة مثلاً : « هل علمتَ من حين أني استعملتُك على البحرين ، وأنت بلا نعلين ، ثمَّ بلغني عنكَ أنك ابتعتَ أفراساً بألف دينارٍ وستّمائة دينار ؟ قال : كانت لنا أفراسٌ تناتجتْ وعطايا تلاحقتْ ، قال : قد حَسَبتُ لك رزقَكَ ومؤونتك وهذا فضلٌ فأدِّهِ . قال : ليس لك ذلك ، قال : بلى واللهِ وأُوجِعُ لك ظهرَك . ثمَّ قام إليه بالدِّرةِ فضربَه حتى أدماهُ ، ثم قال : إيتِ بها ، قال : احتسبتُها عند اللهِ . قال : ذلك لو أخذتَها من حلالٍ وأدّيتَها طائعاً . أجئتَ من

---

(١) من الروايات التي تُروى عنه أنه وهو يطوف في المدينة ذات ليلةٍ سمع صوتاً من دار امرأةٍ فارتاب في أمرها فتسوَّر عليها بيتها ؛ فوجدها على ريبةٍ ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأن المرأة ـ فيما يزعمون ـ قالت له : أنا عصيتُه في واحدةٍ وأنت عصيتَه في اثنتين ؛ فقد قال تعالى : « وادخلوا البيوتَ من أبوابها » وتسوَّرتَ ، وقال : « ولا تجسَّسوا » وتجسَّست . ولا تحتاج الرواية في تهافتها إلى تعليق .

(٢) العقد الفريد ١ : ٦٢ .

أقصى حَجْرٍ بالبحرين يجبي الناسُ لك لا للهِ ولا للمسلمين! ما رجعتْ بك أُميمة إلاّ لِرعيةِ الحُمُر . وأميمة أمُّ أبي هريرة »[١] .

وشدَّة عمر بن الخطاب ـ وقد سُقتُ نموذجاً منها ـ مع ولاتِهِ لا تعني إلاّ شيئاً واحداً هو تأكُّدهُ من استهانتهم بأموال المسلمين إن لم يكن تأكُّده من خيانتهم ؛ ولا يغرنَّك قوله لأبي موسى الأشعريِّ في ختام تحقيقه معه : «ارجع إلى عملك... والله إن بلغني عنك أمرٌ لم أُعِدكَ »[٢] ؛ فإنَّ للسياسة أحكاماً ليس من وكدي الآن أن أتحدث عنها ، وإلاّ فلم يكن ما استأثر به أبو هريرة أكثرَ مما استأثر به صاحبُهُ ، هذا إذا لم يكن أقلَّ مما استأثر به صاحبُه . أقول : لا أريد أن أتحدَّث عن أوجه السياسة في عقوبةِ كلٍّ منهم ؛ لأنني أريد أن ألاحظَ أنَّ أحداً منهم لم يُنكر ما نُسِبَ إليه من نعيمٍ لم يكن يعرفُه من قبل على هذه الصورة ـ وكيف يتهيَّأ له أن ينكر والخليفةُ يوافيهم بما هم فيه من تَرَفٍ وكأنه معهم حتى بلغ به الأمر أن حدَّث أبا موسى عن زوجتيه ـ ولم يدَّعِ أحدٌ منهم أنَّ ما بلغ عمر بن الخطاب عنه هو من أراجيف الخصوم ، أو من سعايات الحاسدين أو نحو ذلك ، فإذا كان كلُّ ذلك ذا معنًى ـ ولا بدَّ أن يكون ـ فإنَّه يعني شيئاً واحداً هو تأكُّدُ الخليفة من صدق مصادره ، ومعرفة الولاةِ المُتَّهمين أنفسِهم بأن له مصادر قد يعرفون أسماءهم وقد لا يعرفون .

ولا أحبُّ أن أزعُم ، ولا ينبغي لباحثٍ أن يفعل ، بأنَّ هذه المصادر مما يمكن أن نسميه جهاز مخابراتٍ أو نحوه ؛ وإنما هي القُربةُ إلى الله في حراسة أموال المسلمين وفي إشاعة العدل بينهم . وإذا لم يكن هذا واضحاً في خبر ابن عبد ربِّه ؛ فهو واضحٌ فيما رواه ابن الأثير عن عمر بن عبد العزيز حين ولاّه الوليد بن عبد الملك المدينة ؛ فقد دعا ابنُ عبد العزيز «عشرةً من الفقهاء الذين في المدينةِ : عروة بن الزبير ، وأبا بكر بن سليمان بن خيثمة ، و... فقال لهم : إنما

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

دعوتُكم لأمرٍ تُؤجَرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحقِّ ، لا أريدُ أن أقطعَ أمراً إلاّ برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدّى أو بلغكم عن عاملٍ لي ظلامة فأُحرِّج الله على مَن بلغه ذلك إلاّ بلَّغني »[١] .

وإذاً ، لا أستبعدُ أن تكون مصادر عمر بن الخطاب ـ وهو أولى من ابن عبد العزيز بذلك ـ مصادر من هذا القبيل ؛ فإن لم يكونوا من الفقهاء فممن يتقون الله ويخافونه في أموال المسلمين تُؤخَذُ من دون وجه حقٍّ . ومصادر مثلُ مصادر عمر مصادر أمينة ؛ وأقربُ مايُدنيها إلى هذه الأمانة قولُ رسول الله : « إنَّ شرار الناس المُثلِّثُ ، قيل : وما المثلث يارسول الله ؟ قال : الرجل يسعى بإخيهِ إلى إمامِه فيقتُله ؛ فيُهلِك نفسَه وأخاه ، وإمامَه »[٢] . ومن هنا كانت شدّةُ عمر فيما يَعلم .

على أنَّ شدّة عمر لم تكن معنيةً بمعرفة زيغ بعض ولاته فحسب ، وإنما صرف هذه الشدّة لمراقبة عدوِّه الخارجي أعني : الرومَ ؛ فقد أنهى إليه أحدُ ولاته على الشامِ أنَّ هنالك مدينةً تقعُ بين بلاد الشام وبلاد الروم ، اسمها : عَرَبْسُوس ، وأنَّ أهل هذه المدينة يتجسسون ـ كما يبدو ـ للروم على المسلمين فلا يُخفونَ من عوراتهم شيئاً ؛ فقال له عمر : « إذا قدمتَ عليهم ، فخيِّرهم بين أن تعطيهم مكان شاةٍ شاتين ، ومكان شيء شيئين ، فإنْ رضُوا بذلك فأعطِهم وخرِّبها ، وإنْ أبَوْا فانبذْ إليهم وأجِّلهم سنةً ثمَّ خرِّبها »[٣] . وإصرارُ عمر على تخريب المدينة في الحالين جاءٍ ـ كما يُخيَّلُ إليَّ ـ من قناعتِه أن هذه المدينة لا يمكن أن تؤتمن في نقل أخبار المسلمين بسبب موقعها القريب من الروم ؛ وأن الروم إن أخفقوا في شراء هذا العَرَبَسوسي للتجسس لهم ؛ فإنهم لن يخفقوا في شراء أخيه . هذا إلى أن قرب موقعها من بلاد الروم يمكن أن يُغري الروم أنفسَهم بأن يدسوا من قومهم من يأتيهم بأخبار المسلمين .

---

(١) الكامل ٣ ، ١٨٦ .

(٢) موسوعة الأمن ١ ، ١٢٥ ، ونقله عن الشيخ المفيد في الاختصاص ، وبحار الأنوار للمجلسي .

(٣) معجم ما استعجم ٣ ، ٩٢٩ .

أما عثمان بن عفّان فلم يكن على مثل يقظة عمر بن الخطاب أو حزمِهِ في معرفة أحوال عمّاله ؛ فقد كان إلى التهاون أقرب منه إلى شيء آخر ، وحسبك من ذلك ما أنكره عليه بعضُ أهل المدينة قبل استشهاده ، ويهمني من كلِّ ما أُنكر عليه صلاةُ واليه على الكوفة الوليدِ بن عقبة بن أبي معيط بأهل الكوفة سكرانَ ؛ فقد قيل : « إنَّ الوليد سكر وصلّى الصبحَ بأهل الكوفة أربعاً ثمَّ التفت إليهم وقال : أزيدكم ؟ فقال له ابنُ مسعود : مازلنا معك في زيادةٍ منذ اليوم ، وشهدوا عليه عند عثمان ، فأمر علياً بجلدِهِ ، فأمر عليٌّ عبد الله بنَ جعفر فجلَدَه ، وقال الحطيئة :

شَهِد الحطيئةُ يوم يلقى ربَّه ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالغُذرِ
نادى ، وقد تمَّتْ صلاتُهُمُ : ... أأزيدكُمْ ؟ سُكراً وما يدري
فأبَوْا ـ أبا وهبٍ ـ ولو أذِنُوا ... لقَرَنتَ بين الشَّفْعِ والوِتْرِ
كفُّوا عِنانكَ إذ جريتَ ، ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري

... »(1) . والذي يلفتُ النظر في هذه الرواية أنَّ حادثةً بمثل هذه الخطورة الدينية تقعُ فيؤمُّ الوليدُ طائفةً من صحابة رسول الله (ص) وهو سكران ـ أو على رواية المسعودي ـ وهو ثملٌ(2) ، ثمَّ لا يكون عند الخليفة علمٌ بسيرتِهِ يوم ولاّه الكوفة(3) ، ولا خبرٌ يقينٌ يُنهيه إليه أحدُ ثقاته عن حقيقةِ ما أشيعَ عنه من أنه كان هو والشاعر أبو زُبيد الطائي يتنادمان على الخمر في الكوفة .

بل إنَّ الوليد نفسَه كان يكتم بعضَ ما يقعُ له من أحداثٍ عن الخليفة ؛ فقد اقتحمَ عليه نفرٌ من أهل الكوفة دارَه ليروه هو وصاحبه أبا زبيد يشربان « فلم يَروا فأقبلوا يتلاومون وسبَّهم الناسُ ، وكتم الوليد ذلك عن عثمان... »(4) .

---

(1) الكامل في التاريخ ٢ : ٣٠-٣١ ، وينظر الإمامة والسياسة ١ : ٥٠ ، والأغاني ٤ : ١٦١١-١٦١٤ . وليست أربعة الأبيات كلُّها للحطيئة ، فقد اختلط قولُه بقول سواه ، ولكن دلالة القول قائمة بغض النظر عن القائل .

(2) مروج الذهب ٢ : ٣٧٠ .

(3) في الأغاني ٤ : ١٦١٢عن أبي عبيدة ، وابن الكلبي ، والأصمعي « قالوا : كان الوليد بن عقبة زانياً شرِّيبَ خمرٍ... » .

(4) الكامل ٢ : ٢٤٥ ، وينظر تاريخ الطبري ٣ : ٢٢٧ .

وإذاً ، لم يكن الخليفةُ عثمان ـ كما قلتُ ـ على حَزم عمر في تتبُّع أخبار عمّالِهِ .

وإذ بدأت صيحة أم المؤمنين عائشة «اقتلوا نعثلاً فقد فجر» تعني بنعثلٍ الخليفةعثمان ، وبدأ خذلان طلحة والزبير الناس عن نصرتِهِ[1] كانت عنُقُ معاوية قد اشرأبّت للخلافة ، حتى قيل : إنَّه «مازال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان...»[2] فرأى أن يلعب لعبةً مزدوجةً هي : أنْ يدفعَ بعثمان إلى أن يُقتلَ أو ـ في أحسن الأحوال ـ أن يُعزلَ ، ثمَّ يهيِّئ جواً يجعله قريباً من المُلك . ومن هنا راح يقترح على الخليفة ـ حين جاء إلى المدينة يدسُّ أنفه في الفتنة ـ أساليب يزعم أنها تحميه من القتل ، كأن يقترحَ عليه : أن يرتِّبَ له في المدينة أربعة آلاف فارس من خيل الشاميين يحمونه ؛ تكون أرزاقهم من بيت مال المسلمين[3] في الوقت الذي يعلم معاوية حقَّ العلم أنَّ مما أُخذ على الخليفة ـ من بين ما أُخِذ ـ التهاونُ في حفظ أموال المسلمين ، أو أن يأذن له أن يضرب «أعناق... عليٍّ وطلحة والزبير»[4] ليزيد النار اشتعالاً .

وإذ يئس من كلِّ ذلك قال : «فثالثة : قال : وما هي ؟ قال : اجعلْ لي الطلبَ بدمِك إن قُتلتَ ، قال عثمان : نعم هذه لك إنْ قُتلتُ فلا يُطلّ دمي»[5] . ونجح ابن أبي سفيان في لعبتيه معاً : أن يقتلَ عثمان بمقترحاتِهِ التي إن أخذ بها قَتَلَتْه ، وإن أهملها قَتَلَتْه أيضاً ، وأن يضمن له قبل استشهادِهِ أن يدسَّ أنفَه ـ وهو الذي لم يكن مؤهّلاً لخلافة المسلمين ـ في خلافة المسلمين ، وفي إمرة مؤمنيهم . ودارت الأحداث ـ كما خطّطَ لها ـ معاوية ، وكان من أمر الجمل وصفِّين ماكان ، فكان لابدَّ للإمام عليٍّ أن يكون حازماً في معرفة مايدور من حولِهِ ؛ وفي اختيار عمّالِ

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ٧٢ ، وفي حاشيته أن ابن أعثم رواه : «... فقد كفر» ، وينظر الإمامة ١ : ٨١ .

(٢) ينظر الخبر في تاريخ الطبري ٣ : ٣٨١ .

(٣) ينظر الإمامة والسياسة ١ : ٤٩ وينظر تاريخ الطبري ٣ : ٣٨٢-٣٨٣ ، والكامل ٢ : ٢٨٠ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

حازمين أيضاً . ولعلَّ في كتابه إلى قثم بن العباس عامله على مكَّة دليلاً على ما نقول ، فقد قال له ، وقد كتَبَ إليه أحدُ عيونه بالمغرب يخبره أن معاوية قد دسَّ على الحُجّاج في الموسم ناساً من «أهل الشام العُمي القلوبِ ، الصُم الأسماع... يلتمسون الحقَّ بالباطلِ... فأقِمْ على ما في يديكَ قيامَ الحازمِ الصَّليبِ»(١) ، ولعلَّ في حنكة الأحنف بن قيس عامل البصرة لعليٍّ ـ وقد وصل إليها أمُّ المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ، ونُصِحَ بأن يتريَّث في أمرهم حتى يأتي أمر عليٍّ ـ أقول : لعل في حنكته ما يدلُّ على ذلك أيضاً ؛ «فقد نادى عثمان بالناس وأمرهم بلبس السلاحِ ،... وأمر رجلاً دسَّه إلى الناس خدِعاً كوفيّاً قيسيّاً ، فقام فقال : أيها الناسُ أنا قيس بن العَقَديَّة الحُميسي ، إنَّ هؤلاء القوم إن كانوا جاءوا خائفين فقد أتوا من بلدٍ يأمنُ فيه الطيرُ ، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدمِ عثمان فما نحنُ بقتلةِ عثمان ، فأطيعوني وردُّوهم من حيث جاؤوا . فقامَ الأسودُ بن سريع السعديّ فقال : أوزعموا أنّا قتلةُ عثمان ؟ إنَّما أتوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا... فعرف عثمان أنّ لهم بالبصرة ناصراً فكسره ذلك»(٢) .

ويهمني أن أستخلص من الخبرين ـ فضلاً عما سقتهما من أجله ـ أنه لم يكن هناك جهازٌ يتولّى مراقبة الصراع السياسي الذي يمكِّن الخليفة أن يتّخذ القرار المناسب في إدارة الصراع ، وإنما كان الخليفةُ نفسُه ينتدِبُ من يرى أنَّ من المناسب أن يكون عيناً له مراعياً في ذلك ـ كما هي طبيعة الأمور ـ الصفات الواجب توفُّرها فيمن يُنتدَبُ لمثل مهمَّة التجسس على العدوِّ ، ولعلَّ الخليفة ـ وأنا الآن أتحدَّثُ عن خلافة الإمام عليٍّ ـ كان من الثقة في معرفة عُمّاله بحيث لا يتدخّل في شؤون إدارة ولاياتهم الأمنية إلاّ حيث تقتضي الضرورة ، أو العجلة ؛ فقد رأينا الإمام علياً يخصُّ قثم بن العباس بكتابٍ ينبِّهه فيه إلى ما بلغه من خبرِ معاوية أنَّه بعث بجواسيسه إلى مكَّة باسم الحجِّ ، وإلى ضرورة أن يكون حازماً

(١) نهج البلاغة ٢ : ١٨٢-١٨٣ . والمقصود بالمغرب : بلاد الشام ، أو حدودها ، وليس المغرب العربي ؛ لأنه لم يكن فُتح بعد .
(٢) الكامل ٢ : ٣١٧ .

مؤمناً بخلافته بحيثُ لا يؤثِّر هؤلاء الجواسيس بما يُروِّجونه من أراجيف في الناس ، ولا بدَّ أن يكون الإمام قد فعل ما فعل من باب تبادل المعلومات ؛ وإلاّ فقد كنّا رأينا قثم يكتب إليه ـ على إحدى الروايات ـ بمسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة بنيَّةِ الخلاف عليه ، ووجدنا أنَّ عثمان بن حُنيف قد تصرَّف من تلقاء نفسِه ليرى مبلغَ ما تحتملُه البصرةُ من أن ترى القتال يدور ـ كما هو محتملٌ ـ بين زوج الرسول وابن عمّته في جانب ، وخليفة المسلمين الذي هو ابن عمّه وزوج ابنته في جانب آخر .

ولا بدَّ أن يكون تصرُّف عثمان بن حنيف ـ كما هي طبيعة الأمور ـ من صميم حقِّ الوالي في التصرّف بشؤون ولايته ؛ وإلاّ لكان أخذ برأي المشيرين عليه أن يتريث فينتظر أمرَ عليٍّ ورأيَه .

وأريد أن ألاحظَ وفرة المعلومات التي كانت تتهيَّأ للإمام عليٍّ أينما حلَّ وحيثُما رحلَ . ولعل سبب ذلك أنَّ الذين ثبتوا على بيعته لم يثبتوا عليها لكونها بيعةً لا يحلُّ لهم نقضُها فحسب ، وإنما لأنهم كانوا مؤمنين ببطلان ما يدَّعيه خصومُهُ بطلاناً مطلقاً ، ولأنهم كانوا يرون فيه إماماً من أئمة الهدى لا خليفةً وحسب . وإلاّ فمن اللافت للنظر أن يفارق المدينة ، ولم يمرَّ أربعةُ أشهرٍ على مبايعته بالخلافة فيردُ عليه كتابٌ من أخيه عقيل وهو في الطريق من المدينة ـ على ما يبدو ـ يقول فيه : « قدمتُ مكّة فسمعتُ أهلَها يتحدَّثونَ أنَّ الضحّاك بن قيسٍ أغار على الحيرة واليمامة ، فأصاب ما شاء من أموالهما ، ثمَّ انكفأ راجعاً إلى الشام... »[1] فيجيبه أخوه الإمامُ عليٌّ بما يدلُّ على علمه بالخبر مُفصَّلاً فيقول : « وأما ما ذكرتَ من غارة الضحّاك على الحيرة واليمامة ، فهو أذلُّ والأمُ من أن يكون مرَّ بها ، فضلاً عن الغارة ، ولكن جاء في خيل جريدة فسرَّحتُ إليه جُنداً من المسلمين فلما بلغه ذلك ولّى هارباً »[2] .

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ٧٤ .

(٢) السابق ١ : ٧٥ .

ولعلَّ تعلُّق الناس الذي ألمحتُ إليه هو الذي جعل بعض رُسُل معاوية بن أبي سفيان إليه لايبقون على ولائهم السابق لأباطيل معاوية حين يلقون علياً ؛ فقد روي أن رجلاً من عبسٍ حمل رسالة من معاوية إليه - وكان من عادة الرسل أن يخطبوا بالناس يَدعُون إلى مضمون الرسالة التي حملوها - فبلغ من غضب عليٍّ على ماجاء بها من أكاذيب أن قال له : «تَرِبتْ يداك ، وكذِبَ فوك ، أما والله لو أنَّ رسولاً قُتِلَ لقتلتك»[1] ، ومن عجبٍ أنَّ هذا «العبسيَّ أقام بالعراق عند علي حتى اتَّهمه معاوية ، ولقيه المهاجرون والأنصار فأشربوه حبَّ عليٍّ ، وحدَّثوه عن فضائلِهِ ، حتى شكَّ في أمره»[2] .

وإيمان المهاجرين والأنصارِ بعليٍّ وبقضيَّته التي هي قضيّتهم أعني : الإسلام هو الذي جعلهم - فيما أظنُّ - يحملون هذا العبسيَّ على الإقامة في العراق ، ولعل علياً أذنَ لهم في ذلك ؛ فلم يكتفوا أن يعرفوا ما عنده من أمر صاحبه إزاء عليٍّ بحيث جعلوا معاوية يشكُّ فيه ، وإنما قاموا بغسل دماغه فأشربوه حبَّ عليٍّ ، حتى جعلوه يشكُّ في صحَّة دعوى صاحبه .

وسواءٌ أعاد العبسيُّ إلى الشام أم لم يعد ، والرواية لا تقول لنا شيئاً عن هذا ، فإنَّ أصحاب عليٍّ جوَّفوه فلم يعد نافعاً أن يؤتمن على رسالة ، ولامصدَّقاً في نقل خبرٍ عن أمر علي . وهذا الذي قام به شيعةُ عليٍّ أقربُ ما يكون إلى عمل الأحزاب السياسية منه إلى عمل أجهزة المخابرات ، وإن كانت النتيجةُ واحدةً مع فارق مهمٍّ ؛ هو أن أصحاب القضية التي يناضلون من أجلها إيماناً بعدالتها سواء أكانوا بشراً عاديين أم كانوا من المهاجرين يصلون إلى ما يريدون بالإقناع والحجّة ، على حين أنَّ أولئك أعني أجهزة المخابرات لا تهمها كثيراً الطريقة التي تصلُ بها إلى النتيجة .

ويمكن للباحث أن يلاحظ بسهولةٍ أنَّ ما استعرضناه مما يمكن أن يُعدَّ النواة

---

(١) السابق ١ : ١٠٤ .

(٢) نفسه .

الأولى ـ وهي نواةٌ لم تنضج بعدُ ـ لنشوء جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية كـان يقف وراءه إيمـانُ الخلفـاء الراشـدين أنَّهم يفـعلون ما يفـعلون خـدمـةً للدين الجديد ، ودولته الناشئة . وبعبارة أخرى نقول : إنَّ مما كان يعصم أولئك الخلفاء أن يأخذوا الناس بالظنَّة والتهمة إيمانٌ بالله ، واليومِ الآخر ، وخوفٌ منهما .

وكان كلُّ ذلك يعني أن هذه الأسس التي أرساها هؤلاء ستهيِّئ لهذا الجهاز في قابل أيامه من التقاليد الحضارية الرصينة ما يجعلُه في خدمة الناس ، وفي خدمة إرساء أسس المساواة بينهم ، وإشاعة روح العدل في مجتمعهم ، ولكن انعطافاً خطيراً قد حدث يوم تسلَّم معاوية بن أبي سفيان مقاليد الخلافة . فقد تسلَّم هذه المقاليد وروحُ الانتقام تملؤه ، ولا أظنُّ أن هذه الروح كانت انتقاماً وثأراً لمقتل ابن عمه عثمان كما أحبَّ أن يُصوِّر للناس ، وإنما كانت هذه الروح ـ كما أذهبُ إليه ـ تبرئةً لنفسه من خذلانه ، كما سبق أن قلتُ ، ومن الولوغ في دمِه .

ومن هنا رأيناه يُطلِق أيدي ولاتِه في قتل الناس ممن يُشتَبَه أنهم شاركوا في فتنة مقتل عثمان ، يدلُّنا على هذا استثناء المؤرِّخين المغيرةَ بن شعبة من ولاته ، وكان قد بعثه معاوية : « والياً على الكوفة فأحبَّ العافية ، وأحسن في الناس السيرةَ ، ولم يُفتِّشْ أهل الأهواء عن أهوائهم ، وكان يؤتى فيقال له : إنَّ فلاناً يرى رأي الشيعة ، وإنَّ فلاناً يرى رأي الخوارج ، وكان يقول : قضى الله ألاّ تزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده... »[1] . ولا أحسب أن المغيرة قد سار هذه السيرة عن تقىً فيه ، وإنَّما كان يريد ألاّ ينبش الناس لئلاّ ينبشوا تأريخه ، فقد شهد عليه ثلاثةٌ من المسلمين أنَّهم رأوه يزني بأمِّ جميل يوم كان والياً لعمر بن الخطاب على البصرة ، ولم يُنقذْهُ من إقامة حدِّ الزنا عليه إلاّ عمر بن الخطاب نفسُه حين أوحى للشاهد الرابع ألاّ يشهدَ عليه فقال الشاهد : « لم أر ماقال هؤلاء [أي : يُولجه ويخرجه] ، ولكنّي قد رأيتُ ريبةً ، وسمعتُ نَفَساً

(١) تاريخ الطبري ٤ ، ١٣٢ .

عالياً ؛ فجلد عمر الثلاثة »[١] الذين شهدوا عليه بالزنا . وإذا كانت هذه حال المغيرة بن شعبة ، فإنَّ حال زياد بن أبيه واليه على البصرة ، وحال بسر بن أبي أرطاة مبعوثه إلى المدينة ، ومكة واليمن لم تكن كذلك ؛ فقد بلغ زياد بن أبيه من توعّد المعارضة أن قال : « لا يَظهرُ من أحدٍ منكم خلافُ ما عليه عامَّتُكم إلاّ ضربتُ عنقَه... »[٢] وغنيٌّ عن القول أن زياداً يعني بالعامّة المسلمين الذين يرون لابن أبي سفيان بيعةً صحيحةً في أعناقهم . وكأن زياداً يريد أن يقول لأهل الرأي من المسلمين ، وأصحاب الحلِّ والعَقدِ منهم ألاّ يخوضوا في أمر خلافة معاوية .

بل بلغ ابنُ أبيه بحيث كان « أوّل من شدَّ أمر السلطانِ ، وأكَّد المُلكَ لمعاوية ، وألزم الناسَ الطاعةَ ، وتقدَّم في العقوبة ، وجرَّد السيفَ ، وأخذ بالظنَّة ، وعاقب على الشُّبهة »[٣] .

ولا أريد أن أخوض في شدَّة زياد مع من كان يظنُّ أنَّهم من المعارضة ، ولكنني أريد أن أشير إلى أنه أوّل مَن اتَّخذ من الحرسِ خمسمائة لا يفارقون المسجدَ ، وأوّل : « من سِيرَ بين يديه بالحرابِ والعمَد »[٤] . ومعروفٌ جداً أن هذا الذي اتَّخذه زيادٌ من الحرس ، هو وظيفةٌ أمنيَّةٌ ، يُفتَرضُ أن يقوم عليها جهازٌ أمنيٌّ . ولا يعنيني أن ماذا يُسمّى هذا الجهازُ ، وإنَّما تعنيني دلالتُه ، ووظيفتُه ؛ إذ أن الحرَس غير الشرطة ، فقد جاء في تاج العروس : « الحَرَسِيُّ : واحدُ حرس

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث : ٤١هـ ـ ٦٠) : ١٢١ ، وينظر وفيات الأعيان ٦ : ٣٦٤ وما بعدها ؛ ورواية الخبر أوضح من رواية الذهبي وأتمُّ ، ولكنها طويلة . ولا يهمني كثيراً أن يكون عمر قد وقف هذا الموقف من المغيرة لحسابات سياسية ، أو لحسابات دينية عملاً بقول النبي : « ادرأوا الحدودَ بالشُّبهات » وإن كنت أميل إلى الرأي الأول ، فقد روى ابنُ خلّكان قال : « ... إنَّ أمَّ جميلٍ وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموسم ، والمغيرة هناك ، فقال عمر : أتعرف هذه المرأةَ يا مغيرة ؟ قال : نعم هذه أم كلثوم بنت عليّ ، فقال له عمر : أتتجاهلُ عليَّ ؟ والله ما أظنّ أبا بكرة [وأبو بكرة أحدُ الشهود على المغيرة بالزنا] كذب عليك ، وما رأيتك إلاّ خفتُ أن أُرمى بحجارةٍ من السماء » وفيات الأعيان ٦ : ٣٦٦ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢ : ٤٧٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ١٦٧ .

(٤) السابق ٤ : ١٦٩ ، والكامل ٢ : ٤٧٥ ، وصُحِّفت فيه : سِيرَ على : سُيِّرَ .

السلطان ، الذين يُرتَّبون لحفظِه وحراستِه ؛ ولا تقُل : حارس لأنَّه قد صار اسمَ جنسٍ فنُسِبَ إليه ؛ إلاّ أن يُذهبَ به إلى معنى الحراسة دون الجنس »[١] .

ومعنى قول الزَّبيدي في التاج : أنَّ الحرسيَّ هو من طبقةٍ خاصّةٍ ، وإن شئتَ فمن جهازٍ خاصٍّ ، ولو كان الحَرَسيُّ من الشرطة ـ مثلاً ـ لجاز أن نقول عنه : حارسٌ . ويؤيّد قول الزبيديِّ أنَّ زياداً قد استعمل على هؤلاء الحرس شيبان السعديَّ على حين أننا نعرف أن صاحبيْ شرطته كانا : عبد الله بن حصن ، والجعد بن قيس التميميّ[٢] .

ولكنَّ الذي يمكن أن يُناقشَ في هذه الرواية ما إذا كان زيادُ هو أولَ من اتَّخذ الحرسَ حقاً ؛ لأن المعروف أن معاوية بن أبي سفيان قد اتَّخذ له حرساً ـ يوم كان والياً على الشام غيرَ معترَفٍ بولايته وليس خليفةً ـ وكان على حرسِهِ نُصير بن عبد الرحمان والد القائد الفاتح موسى بن نُصير[٣] . على أنه لم تكن مهمّاتُ الحرَس أكثرَ من حماية صاحب السلطة . أقول هذا لأنني رأيت معاوية نفسه ـ بعد إذ صار خليفةً ـ قد أوكل إلى ابن أثال مهمّة اغتيال عبد الرحمان بن خالد بن الوليد حين رأى ميْلَ أهل الشام إليه فخشي منه على خلافتِه[٤] وكان وعده أنه إذا اغتاله أعفاه من دفعِ خراج أرضِه .

وبديهيٌّ جداً أن أقول : إنَّ اتّخاذ الحرّاس صار تقليداً من تقاليد أولي السلطان عند العرب بعد عصر زيادٍ ، واستمرَّ هذا التقليدُ قائماً ـ مع ما دخَل إليه من تعقيداتٍ ، إلى يوم الناس هذا ، حتى لكأنه من لوازم هيبة الدَّولة . فإن لم يكن من لوازم هيبتِها فهو من لوازم ادّراء المعارضة السياسية ، وتجنّب الاغتيال .

ولا أريد أن أطيل في الحديث عن شدّة زيادٍ مع معارضي الأمويين ؛ لأنني

---

(١) (حرس) ٤ : ١٢٦ . وينظر الصحاح (حرس) ٣ : ٩١٦ ؛ فقد أخذ الزَّبيديُّ منه وتوسّع .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٤ : ١٦٨ .

(٣) ينظر الكامل ٢ : ١٩٤ .

(٤) ينظر تاريخ الطبري ٤ : ١٧١ .

أريد أن أضربَ مثلاً واضحاً يمكن أن يدلّنا على طبيعة توجّه الخلفاء الأمويين بصورة عامة ، ومؤسس مُلكِهم بصفةٍ خاصّةٍ لا على طبيعةِ وُلاتِهم ؛ لأن الوُلاة لا يعْدُون أن يكونوا مُنفِّذي سياسة .

أما هذا المثلُ الذي أريد أن أضربَه فهو بُسرُ بن أبي أرطاة ؛ فلقد بلغَ من روح الجريمة في أخذ المعارضة على الشُّبهة التي لا يقوم عليها لامُخبرٌ موثوقٌ ، ولا شبهُ موثوقٍ أنه « ... أقام... بالمدينة شهراً يستعرضُ الناسَ ، ليس أحدٌ ممن يقال : هذا أعان على عثمان إلاّ قتلَه... »[1] ، وبلغ حبُّ الجريمة من نفسِه أن « أخذ ابنين لعبيد الله بن عباس صغيرين هما : عبد الرحمان وقُثَم فقتلَهما... »[2] .

ومهما يكن من أمرٍ فإنني أريد أن ألاحظَ أن صاحب الشرطة فيما يبدو كان على أيام معاوية بن أبي سفيان هو الذي يقوم مقام رئيس الجهاز الذي يتسقَّط أخبار المعارضة ، فقد ورد في أخبار الخوارج أنَّ « قبيصة بن الدمون أتى المغيرة بن شعبة [والي الكوفة] وكان على شرطتِه ؛ فقال : إنَّ شمر بن جعونة الكلابيَ جاءني فخبَّرني أن الخوارجَ قد اجتمعوا في منزلِ حيّان بن ظبيان السلمي ، وقد اتَّعدوا أن يخرجوا إليك في غرَّة شعبان... »[3] .

ويهمني من هذا الخبر أنني أستبعدُ أن يكون شمر الكلابيّ قد تجسَّسَ على الخوارج فضولاً ، أو سعايةً ، أو مصادفةً فقد يكون في الفُضول أو المصادفة ما يجعلانه يعرف مكان اجتماعهم ، ولكن لا يمكن أن يعرف موعدَ خروجهم إلاّ أن يكون مدسوساً عليهم مواظباً على حضور اجتماعاتهم . ويزيد من مَيلي إلى هذا الرأي أن رأينا شمراً يتّصل بصاحب الشرطةِ ليخبره بالأمر ؛ وليس بالوالي :

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ١٢٤ . وينظر الكامل في التاريخ ٢ : ٤٢٠ وما بعدها .

(٢) الكامل ٢ : ٤٢١ ، وينظر فيه رثاء أمهما المؤثر لطفليها . ولعله ذو دلالة أن تخاطب نسوةٌ من بني كنانة بسراً بقولهن : « ياهذا قتلتَ الرِّجالَ فعلام تقتل هذين ؟ والله ماكانوا يُقتلون في الجاهلية والإسلام ، والله يا ابن أبي أرطاة ، إنَّ سلطاناً لا يقوم إلاّ بقتل الصبيِّ الصغير ، والشيخ الكبير لسلطانُ سوء» .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ١٣٨ .

المغيرة بن شعبة نفسِهِ . وإذا كان لهذا من معنى فهو أن الرجل ليس من أهل السعاية ، وإلاّ لسعى إلى الوالي نفسِهِ فإن لم ينَل جائزتَه نال رعايتَه .

وشيءٌ آخر يلفت النظر هو أن المغيرة لم يطلب من صاحب شرطتِهِ أن يُحقِّق في صدق شمر ، وأن يتأكَّد من صحَّة معلوماته ؛ مما يدلُّ على علم المغيرة بالوظيفة التي يقوم بها شمر الكلابيّ في جهاز شرطتِه ، وإنما طلبَ من صاحب شرطته أن يسير بالشرطة حتى يحيط بدار حيان بن ظبيان[1] . وكأنَّه مُتأكِّدٌ من صدق مصدر الخبر ؛ بل قل : كأنَّه يوكلُ الأمر إلى صاحبه المتخصِّص به ؛ فلا يسألُ ولا يُناقشُ .

فإذا أضفنا إلى هذا أنَّه كان الخوارجُ أنفسُهم يُدركون أن أصحاب الأخبار يُلاحقونهم كان الاستنتاج على شيء من الصواب . فقد خاطبَ أحدُ الخوارجِ حجّاراً ، وقد دخل إلى مكان اجتماع إخوانه من الخوارج وهم يتهيَّأون للخروج بقولِه : « يا حجارُ بن أبجر ، إنْ كنتَ إنَّما جاء بك التماسُ الخبرِ فقد وجدتَه... »[2] .

على أنَّه من المهم أن أُنبِّه إلى أنَّ النظام القبلي لم يكن ليجعل من الوالي مطلق اليد في التنكيل بالمعارضة ، وإنما كان يُفضِّلُ أن يلجأ إلى رؤساء قبائل هؤلاء الجماعة من المعارضة أو تلك لعلَّهم يكفّون أبناء قبيلتهم عن الثورة ؛ فقد رأينا المغيرةَ بن شعبة يخاطِبُ وجوه قبائل الكوفة ـ وكان فيهم : معقل بن قيس الرِّياحيّ ، وصعصعة بن صوحان العبديّ ، وعديّ بن حاتم الطائي ـ يطلب منهم أن يكفَّ كلُّ أحدٍ منهم أبناء قبيلته عن نصرة الخوارج وعن الخروج معهم[3] . ورأينا زياد بن أبيه حين أعاد تنظيم البصرة أثناء ولايته عليها « ... جعل العشائرَ متكافئةً في العدد ،... وجعل لكلِّ عشيرةٍ عريفاً يُشرفُ على إدارتها والأمنِ فيها... »[4] .

ولعلَّ في مثل هذه الأخبارِ ما يدلُّنا على أنَّ الأمويين إن لم يكونوا قد

---

(١) ينظر نفسه .

(٢) السابق ٤ : ١٣٩ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٤ : ١٤٠-١٤٤ .

(٤) خطط البصرة ومنطقتها : ٥١ .

طوّروا نظام العريفِ[١] ؛ فجعلوا من مهمّاتِهِ حمايةَ الدولةِ ـ كما هي الحالُ في خبر المغيرة ـ من طريق التجسس على أبناء القبيلة ، وكفَّهم عمّا يَنْتَوُون ؛ فإنَّهم ابتدعوا هذا النظام[٢] .

وإذاً نستطيعُ أن نستنتج من خلال الموازنة بين أخبار زياد والمغيرة أنَّ ولاة الأمويين كانوا يجتهدون في شؤون تنظيم أمن أمصارهم . فإذ يُنيطُ المغيرةُ بصاحب شرطتِه مهمة مزدوجةً هي الأمن السياسي ، وملاحقة أصحاب الجرائم نجد زياد بن أبيه قد اتَّخذ له من الشرطة جهازين أحدهما يتولّى أمر الفاسقين أي أصحاب الجرائم من سرقة وقتلٍ وما إليهما ، وثانيهما يتولّى مهمّات الأمن السياسي حتى بلغ زياد من الثقة بهذا الجهاز وكفاءتِه بحيث كان يقول : « لو ضاعَ حبلٌ بيني وبين خراسان علمتُ مَن أخذَه... »[٣] .

وواضحٌ جدّاً أن ليس من مهمّات الشرطة المحضة أن تعرف من الذي يلتقط الحبل الضائع ، وإنما هي من مهمّات أصحاب الأخبار .

وإذاً أستطيع أن أقول : إن جهاز المخابرات قد تأسَّس على عهد معاوية بن أبي سفيان[٤] . أما كيف تطوّر ، وكيف كان تنظيمه ورجاله فهو ما أرجو أن يتَّضح في الفصل التالي .

---

(١) ورد ذكرٌ للعريف في بعض الأحاديث النبوية ، ولكن هذه الأحاديث لا تخلو من تضاربٍ ؛ فإذ نجد في الإصابة ١ : ٢٥١ أنه لما قدم على النبيّ « أبو عزيز جندبُ بن النعمان الأزديّ... فأسلم ، وحسن إسلامُه... جعلّه عريفَ قومه » نجد أن أحمد بن حنبل يروي قول النبيّ في المسند ٢ : ٣٥٢ « ويلٌ للأمراء ، ويلٌ للعرفاء ، ويلٌ للأمناء » ؛ فلعل الأمويين بعد أن استحدثوا نظامَ العريف في التجسس على الناس وضعوا على الرسول خبرَ إقراره بهذا النظام من خلال رواية إسلام أبي عزيز . أقول هذا لأنني رأيتُ الإمام جعفر الصادق ينكر على المرء أشدَّ الإنكار أن يكون عريف قومه ينظر الخبر عنه في موسوعة الاستخبارات ٢ : ٧١ . والعريف : هو القيِّم بأمر القبيلةِ أو الجماعة من الناس ، يلي أمورَهم ويتعرَّف الأميرُ منه أحوالَهم » النهاية في غريب الحديث ٣ : ٢١٨ .

(٢) من الطريف أن يُلاحظ أنَّ طائفةً من الأنظمة العربية ما زالت تتبع نظام العريف في حماية أمنها السياسي ، ولنا في تصرّف النظام العراقي بعد إخفاق انتفاضة آذار المجيدة ١٩٩١ الذي اعتمد إحياء النظام العشائري ، فحمَّل رئيسَ العشيرة مسؤولية مواقف أفراد عشيرته السياسية مثلٌ واضح .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ١٦٨ .

(٤) في الفخري : ١٠٦ أن معاوية هو « أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة » .

الفصل الثاني

تنظيم الجهاز ورجاله

قلنا إنَّ الجهاز قد تأسَّس على أيام معاوية بن أبي سفيان ، وإن أصحاب الشرطة هم الذين كانوا يتولَّونه في العادة ، وقد كان هذا واضحاً جدّاً في شرطة زياد بن أبيه يوم كان والياً على البصرة . وعليَّ أن أقول الآن : إنَّ نظام العرفاء لم يُلغَ - وإنما طوَّره عبيد الله بن زياد بن أبيه - تطويراً مُدهِشاً حين ولّاه يزيدُ بن معاوية الكوفة سنة : ٦٠هـ ؛ فقد حدَّد مهمّات العريف كأجلى ما يكون التحديد حين قال يخاطب - فيمن يخاطب - العرفاءَ : «فقال : اكتبوا إليَّ الغرباءَ ، ومن فيكم من طِلْبَةِ أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية ، وأهل الرِّيَب الذين رأيُهم الشقاق والخلافُ ، فمن كتبَهم لنا فبرِيءٌ ، ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافتِهِ ألاّ يخالفنا منهم مخالِفٌ ، ولا يبغي علينا منهم باغٍ ، فمن لم يفعلْ برئتْ منه الذِّمةُ ، وحلالٌ لنا مالُهُ وسفكُ دمِه ، وأيُّما عريفٍ وُجِد في عرافتِه من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفَعْه إلينا صُلِب على بابِ دارِهِ ، وأُلغيت تلك العرافة من العطاءِ ، وسُيِّرَ إلى موضعٍ بعُمان الزارة»[1] .

وقلتُ : إنَّ العرافة لم تُلغَ لأنني رأيتُ ذكراً للبريد على أيام معاوية وعنايةً به ؛ مما يجعل ما قرَّره المستعرب هارتمان صحيحاً[2] ولكنَّ هذا البريد لم يتحوَّل

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٧ . وعُمان الزارة موضعٌ - على ما يبدو - بناحية البحرين . ينظر معجم ما استعجم ٢ : ٦٩٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (بريد) ٣ : ٦٠٩ .

بعد إلى ديوانٍ قائم بذاتِهِ ، يكون من مهماته شؤون التجسس ، بحيث يُستغنى عن نظام العرافة ، وعن تولّي الشرطةِ والعيونِ مهمّات حفظ الأمن السياسيّ ؛ وذلك أن الذي أحوج معاوية إلى البريد ما كان استحدثه ـ كما هو معروفٌ ـ من ديوانيْ الرسائل والخاتم .

وينبغي لي أن أُقرِّر الآن أنّ ولاة الأمويين لم يكونوا ليركنوا إلى جهاز الشرطة وحده مُمَثَّلاً بصاحبه وبأفرادِهِ في ضبط الاضطرابات السياسية ، وإنما كانوا يتولّون بأنفسِهم إدارة شؤون التجسس على الناس ؛ فقد رأينا عمرو بن سعيد الأشدق أميرَ الحجاز على عهد يزيد ابن معاوية قد جعل على طُرق مكة ـ أثناء ثورة ابن الزبير بها ـ « وشعابِها رجالاً لا يدَعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا باسمه... واسم أبيه ومن أيِّ بلاد الله هو وما جاء به وما يريد ... »[1] ؟ وكان كلُّ ذلك يُرفَعُ إليه لا إلى أحدٍ سواه .

ورأينا أنَّ عبيد الله بن زياد حين حَزَبه أمرُ مسلم بن عقيل كان قد « ... دعا مولًى له فأعطاه ثلاثة آلاف ، وقال له اذهبْ حتى تسأل عن هذا الرجل الذي يُبايع له أهلُ الكوفة فأعلِمه أنك رجلٌ من أهل حمص جئتَ لهذا الأمر ، وهذا مالٌ تدفعه إليه ليتقوّى ، فلم يزل يتلطَّف ويرفق حتى دُلَّ على شيخ من أهل الكوفة يلي البيعة... »[2] . ومعنى هذا الخبر هو أنَّ عبيد الله بن زياد رأى أنَّ جهاز الشرطة الذي كان يتولّى مثل هذه الأمور السياسية على عهد أبيه في البصرة ، وعلى عهد سلفه في الكوفة ما يزال جهازاً ناشئاً لا يمكن أن يُعتمد عليه في أمرٍ خطيرٍ مثل أمر أخذِ مسلم بنِ عقيل البيعةَ لابن عمِّه الحسينِ بنِ عليّ بن أبي طالب . وما نقوله عن عبيد الله يمكن أن يقال أيضاً عن عمرو بن سعيد .

ولكنَّ الحال لم تبق على ما هي عليه بعد هذا ؛ فقد تأسّس ديوان البريد سنة ٧٧هـ على أيام عبد الملك بن مروان[3] . ولدينا إشاراتٌ واضحةٌ على ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٧ ، وتنظر ترجمة عمرو بن سعيد في الاشتقاق ٧٩ ، وكان يُلقَّب : لطيم الشيطان .

(٢) السابق ٤ : ٢٥٨ .

(٣) ينظر دائرة المعارف الإسلامية (بريد) ٣ : ٦٠٩ .

وعلى أنني لم أعثر على إشارة صريحةٍ تقول : إنَّ من مهمات ديوان البريد في عهد الأمويين التجسس ، كما هو عليه حال هذا الديوان أيام العباسيّين إلاَّ أنَّ بعض الأخبار يمكن أن يُوحي بذلك ؛ فمن هذه الأخبار أنَّ عبد الملك بن مروان كان عهد إلى قبيصة بن ذؤيب بالخاتَم ، والسكَّة ، وكان «تأتيه الأخبارُ قبل عبد الملك والكتُبُ ، وكان عبد الملك قد تقدَّم إلى حجّابه أن لايحجبوا قبيصة عنه»[١] .

ويمكن أن نستنتج بيسرٍ وسهولةٍ أن عهدَ الخليفة إلى قبيصة بالخاتم معناه أن قبيصة هو صاحب ديوان بريد الحضرة . ولذلك ائتمنه الخليفة على ختمِه يستعمله في إجابة الكتب الواردة التي لا تحتاجُ إلى مشاورةِ الخليفة في إجابتها . أما أن الأخبار تصلُ إليه قبل الخليفة فحسبك منها أنه هو الذي أيقظ الخليفة من نومه ليبلغه بوفاة أخيه عبد العزيز بن مروان واليه على مصر ووليِّ عهده[٢] .

وأريد أن ألاحظَ على الخبر شيئاً أُقرِّر به حقيقةً هي أنَّ اتّصال صاحب البريد هو اتّصالٌ مباشِرٌ بالخليفة ، أو من ينوب عنه ، سواء أكان ذلك في حاضرة الخلافة أم في الولايات وكأنه مسؤولٌ أمامه ؛ وذلك لسببٍ يسيرٍ هو أنَّ نظام الوزارة لم يُستحدث بعدُ .

واستطيع أن أتصوَّر أنه كان لهذا الجهاز شأنٌ على عهده ؛ فقد كانت شخصيةُ عبد الملك من الشخصيات التي لا تتورَّع عن الغدرِ ، وعن القمعِ في سبيل الاحتفاظ بالخلافة حتى لقد بلغ به الأمرُ أن قال لسعيد بن المسيَّب فقيه المدينة : «يا أبا محمد ، صرتُ أعملُ الخيرَ فلا أُسرُّ به ، وأصنعُ الشرَّ فلا أُساءُ به . فقال : الآن تكامل فيك موتُ القلب»[٣] ، وحتى بلغ من الجرأة أن خطب في الناس فقال : «... ولا يأمرُني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربتُ عنقَه»[٤] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ١٧٨ .

(٢) نفسه .

(٣) السابق ٣ : ١٨٢ .

(٤) نفسه .

فإذا آمنّا بهذه الحقيقة أدركنا سببَ انكشاف محاولة شبيب بن يزيد - وهو من الخوارج الصُفرية - وكان قد قدِم من الكوفة إلى مكة يؤدّي هو وبعضُ أصحابِه فريضةَ الحجِّ ، أقول : أدركنا سببَ انكشاف محاولتِه اغتيال عبد الملك في الموسم ؛ فقد كان بلغ خبرُ شبيبٍ الخليفةَ الأمويَّ «فكتب إلى الحجّاج يأمره بطلبِه...»[1] هو وأصحابه .

وإذاً نستطيع أن نُقرِّر أنه كما كانت علاقة صاحب البريد في مركز الخلافة علاقة مباشِرةً بالخليفة ، كانت علاقة صاحب البريد في هذا المصر أو ذاك علاقةً مُباشِرةً بالوالي ، بمعنى أنه لم تكن علاقة صاحب البريد في الكوفة مثلاً بصاحب بريد الحضرة أعني صاحب بريد دمشق حاضرة الخلافة الأمويّة ، أورُصافة هشام ليكون بذلك جهاز البريد رقيباً على الوالي ؛ مما أتاح مجالاً كبيراً للفساد الإداريّ ، والأمنيّ . ويمكن أن نستشِفَّ هذه العلاقة بما كان يروج من سعايات على هذا العامل أو ذاك . فقد كان أُعجِبَ خالدُ القسريّ - عامل هشام بن عبد الملك على العراق ومايليه من الأهواز وفارس - بوزير السختياني أحدِ الخارجين على الخلافة الأمويّة فاتَّخذه سميراً له ؛ فسُعي بخالدٍ إلى الخليفةِ هشام بن عبد الملك بذلك[2] . فلو كان نظام البريد شيئاً آخرلعلِم الخليفة بأمر خالدٍ منه .

وحادثةٌ أخرى ذاتُ دلالة على ما نحنُ فيه أيضاً هي أنه لمّا عُزل خالد القسريُّ نفسُه عن ولاية العراق نزل دمشق ثمَّ سار إلى الصائفة «وكان على دمشق يومئذٍ كلثوم بن عياض القُشيري - وكان يبغض خالداً - فظهر في دور دمشق حريقٌ كلَّ ليلةٍ يفعلُه رجلٌ من أهل العراق يُقال له ابن العَمرَّس ، فإذا وقع الحريق يسرقون ، وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدَثٍ كان من الرُّوم ، فكتب كلثوم إلى هشام يُخبرُه أن موالي خالدٍ يريدون الوثوب على بيت المال ، وأنهم يحرقون البلد كلَّ ليلةٍ لهذا الفعل ؛ فكتب إليه هشام يأمره أن يحبس آل

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٩٦ .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٥ : ٤٦١ ، والكامل ٣ : ٣٦٢ .

خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم... فأنفذ وأحضر أولاد خالد وإخوته من الساحل في الجوامع ومعهم مواليهم ، وحبس بنات خالد والنساء والصبيان... »[١] حدث كلُّ هذا وخالدُ في طاعة هشام بن عبد الملك يغزو ، وأولادُه في طاعته أيضاً ، فلم يشفع له كلُّ ذلك حتّى كتبَ إليه الوليد بن عبد الرحمن عامل الخراج بأن الذي يحرق كلَّ ليلةٍ هو ابن العَمَرَّس ؛ فكتبَ « هشامُ إلى كلثوم يشتمُه ويأمره بإطلاق آل خالد »[٢] .

وواضحٌ أنَّه لو كان صاحبُ بريد العراق على علاقة مباشِرةٍ بصاحب بريد الشام لكان من شأن الخليفة أن يعرف علاقة خالد القسريِّ بوزير السختياني . ولو كان صاحب بريد دمشق نفسها ، وليس واليها ، هو الذي يقوم بنقل الأخبار إلى الخليفة وهو في الرُّصافة لما وقع ما وقع لخالد .

بل لقد بلغ هشام بن عبد الملك من العمى السياسيِّ في اتّخاذ القرارات بحيث إنه لما تزعَّم بهلول بن بشر الشيبانيَ المُلقَّب بكُثارة إحدى ثورات الخوارج ، كان صاحبُ البريد قد كتب إلى خالد القسري يُخبِره بخروجِ جماعة من الخوارج وبأنه لا يعرفُ من هو زعيمُهم ، فلما انتقل كثارةُ بجماعتِه يهاجِم الموصل كتبَ عامُلها إلى هشامٍ بأمر الخوارج « يُخبِرُه بهم ، ويسألُه جُنداً ، فكتب إليه هشام : وجِّه إليهـ[ـم] كثارة بنَ بشرٍ ؛... فكتب إليه العاملُ أن الخارج هو كُثارة »[٣] .

من هنا وجدنا أن رجلاً من كبراء بني أميّة يعتقد أنّه إنّما زال ملكُهم بسبب « تضييع الأخبار »[٤] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٤٠٢ ؛ وينظر تاريخ الطبري ٥ : ٥٥٨-٥٥٩ . والجوامع جمعُ جامعة ، وهي القيد الذي يجمع بين عُنُقِ المُقيَّدِ ويديه .

(٢) الكامل نفسه .

(٣) الكامل في التاريخ ٣ : ٣٦١ ، وينظر تاريخ الطبري ٥ : ٤٥٩ ومابين المعقوفتين منه .

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٣٢٣ .

على أنَّ من المهمِّ أن أُقرِّر أن الأمويين كانوا قد أرسوا مبدأً على الغاية من الأهمية في عمل الجهاز هو أن لا يعرف الجواسيسُ العاملون فيه بعضُهم بعضاً ، وهذا المبدأ واضحٌ جداً في الرسالة التي كتبها عبد الحميد الكاتب على لسان آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد المعروفِ بالحمار إلى ابنِه ، ووليِّ عهدِه : عبدِ الله وقد أمره بمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني ، وكان ذلك سنة : ١٢٨هـ(١) ، فقد أوصاه بالحذر من أن يعرف بعضُ جواسيسه بعضاً مخافة أن يتواطأوا على نقل ما لا صحّة له من الأخبار ، وأوصاه ألاّ يُعرف هؤلاء الجواسيس بحيث يُشار إليهم(٢) .

وعلى أن هذه الرسالة هي من وثائق الاستخبارات العسكرية ، إلاَّ أنه ليس هنالك ما يمنع من الظنّ بأن المبادئ التي قرَّرتها في العمل الاستخباريِّ ، هي نفسها التي كان معمولاً بها في ميدان المخابرات السياسيّة أيضاً ؛ لأنَّه لا أسلم في التأكُّد من صحة الخبر أن يكتبَ به أكثرُ من جاسوس على غير تواطؤٍ ولا درايةٍ ولا علمٍ بما كتب الآخرُ .

أما حين يحتاج بعض الجواسيس أن يعرف بعضهم بعضاً في مهمّة يقومون بها معاً فإنَّهم يلجأون إلى كلمة السرِّ ، فقد كانت كلمة السرّ بين أبي عبد الله الموصلي ومنير الخادم المصري ـ وكلاهما ممّن استخدمه عضد الدولة البويهيّ في جهازه ـ « صديقك يقرئك السلام »(٣) .

وعلى أنَّها أي الرسالة من بنات سنة : ١٢٨هـ ـ كما قلتُ ـ إلاَّ أنني لا أظنُّ أنَّ عبقريّة عبد الحميد الكاتب أو نبوغَ مروان الحمار ممّا يقف وراء هذه المبدأ . وأجدُني ميّالاً إلى أن هذا المبدأ هو من تراث هذا الجهاز ، وإن كنّا لانعرف مَن الذي أرساه .

---

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢ : ٤٧٦ .

(٢) تنظر الرسالة في صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ وما بعدها .

(٣) ذيل تجارب الأمم : ٦٠ .

أقول هذا لأنني وجدتُ الإمام عليّاً وقد اتَّخذ من عبد الرحمن بن شبيب الفزاري عيناً له على الشام في صراعِهِ مع معاوية ، لم يسمع منه وحدَه خبر مقتل محمد بن أبي بكر الصدّيق ، وإنما سمع من ابن أبي غُزيَّة الأنصاري حين قدم عليه من مصر[١] . ولكنني لا أريد لأحدٍ أن يزعم أن الإمام هو الذي أرسى هذا التقليد ؛ لسببٍ يسيرٍ هو ما يُمكنُ أن يتبادر إلى الذهن من أنه يعمل بالمبدأ الدينيِّ القائل بضرورة شهادة شاهدين عدلين على الحادثة .

ولكن يمكنُ أن يؤيِّد ما أذهب إليه من كون عدم التواطؤ قد كانَ مذهباً من مبادئ الجهاز مافعلَه يوسف بن عمر ـ عامل هشام بن عبد الملك على العراق ـ بأمر الإمام زيد ابن عليٍّ ؛ فقد أخبره واليه على الكوفة بأوّل مواجهة بينه وبين أصحاب زيد ، وكان سليمان ابن سراقة البارقي قد أخبر يوسف بن عمر بنية زيدٍ في الخروج ، فلم يكتفِ بكلِّ ذلك وإنَّما بعث رجلاً اسمُه جعفر بن العباس ليأتيه بالخبر . ولا بدّ أن يكون يوسف بن عمر قد فعل كلَّ ما فعل خيفة التواطؤ على أمر زيدٍ[٢] . بل إننا رأينا أن خالد بن صفوان بعد أن كُفَّ بصرُه كان إذا مرَّ به موكبُ بلال بن أبي بُردة ـ صاحبِ شرطة البصرة ـ يقول : « ماهذا ؟ فيقال له : الأمير ، فيقول خالدٌ :

سحابةُ غيمٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ

فقيل ذلك لبلال ؛ فأجلسَ معه من يأتيه بخبرِه... »[٣] .

أريدُ أن أخلص من ذلك كلِّه أنَّ المبدأ كان شائعاً قبل عهد مروان بن محمد .

وانقرضت الدولةُ الأمويَّةُ ، وقامت دولةُ بني العباس ولم يكن من خلفائها ـ في مرحلة التأسيس ـ من هو مثلُ أبي جعفر المنصور ؛ فقد كان يؤرِّق هذا الرجلَ

(١) الأخبار الموفقيات : ٣٤٧ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٣ : ٣٨٠-٣٨١ . ومعروف أن خروج زيدٍ ومقتله كان في سنة : ١٢٢ هـ .

(٣) الكامل في اللغة ٢ : ٤٢ .

سؤالٌ واحدٌ هو كيف انقرضت دولة الأمويين بمثل هذه السرعة ، وكيف يحتاطُ مما وقعت فيه الخلافة الأموية فيحفظ دولة بني العباس الفتية ؟ فكان من اللافت للنظر أن يسأل أحد كبراء بني أمية فيقول له : « إني أسألك عن أشياء فاصدقني ولك الأمان ، قال : نعم ، فقال له... : من أين أُتي بنو أميَّة حتى انتشر أمرُهم ؟ قال : من تضييع الأخبار... قال : فعندَ مَن وجدوا الوفاء ؟ قال : عند مواليهم ، فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيتِه ، ثمَّ قال : أضعُ من أقدارِهم فاستعان بمواليه »[١] .

ويمكننا أن نلاحظ أن المنصور هو الذي أرسى مبدأ الولاء المطلق في اختيار الرجال الذين يعملون في هذا الجهاز ، ولكن ينبغي أن نتنبَّه أنَّه الولاء لشخصِه ، فإن توسَّعنا فهو الولاء لبني العباس بغضِّ النظر عمّا ينادون به ، وعمّا يسوسون به الناس .

بل أستطيع أن أقول : إنَّ أبا جعفرٍ كان لا يثقُ بمواليه الذين استخدمَهم في جهاز مخابراتِه تماماً ؛ وإلاّ فقد كان « ولاة البريد في الآفاق كلِّها... يكتبون إلى المنصور أيَّام خلافتِه في كلِّ يوم... »[٢] بما يجِدُّ من أخبارٍ ؛ ومع هذا رُوي عنه أنه كان يقول : « ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعةُ نفرٍ لايكون على بابي أعفُّ منهم ، قيل : له من هم ؟ قال : أركان المُلك ولا يصلح الملك إلاّ بهم كما أن السرير لا يصلحُ إلاّ بأربع قوائم إن نقصتْ واحدةٌ وَهَى . أما أحدُهم فقاضٍ لا تأخذُه في الله لومة لائم ، والآخر صاحبُ شرطةٍ يُنصف الضعيف من القويِّ ، والثالث صاحبُ خراجٍ يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابعُ - ثمَّ عضَّ على إصبَعِه السبّابة ثلاث مرّاتٍ يقول في كلِّ مرَّةٍ آهٍ آهٍ - قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحِبُ خبرٍ يكتب بخبرِ هؤلاء على الصحَّة... »[٣] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٢٣-٣٢٤ .

(٢) السابق ٦ : ٣٣٦ .

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٣١٢ .

ويبدو أنَّ انشغاله ـ وإنْ شئتَ شكَّه في أن أصحاب الأخبار من مواليه لا يُوافونَه بكلِّ ما يُحبُّ أن يعرفه ـ جَعلَه يباشِرُ الإشراف على جهاز مخابراتِه بنفسه ، فقد رُويَ عنه «عن المهاجر بن عمار الخزاعيِّ قال : بعثني أبو الدوانيق [أي : أبو جعفر المنصور] إلى المدينة ، وبعث معي مالاً كثيراً[1] وأمرني أن أتضرَّع لأهل البيتِ ، وأتحفَّظَ مقالتَهم . قال فلزمتُ الزاوية التي مما يلي القبرَ ، فلم أكنْ أتنحّى عنها في وقتِ الصلاة : لا في ليلٍ ولا نهارٍ ، قال : وأقبلتُ أطرحُ إلى السؤّالِ الذين حول القبر الدراهمَ ومَنْ هو فوقَهم الشيءَ بعدَ الشيء حتى ناولتُ شباباً من بني الحسنِ ومشيخةً حتّى ألِفوني ، وألِفتُهم في السِّرِّ...»[2] . وفي بقيَّة الخبر ما يدلُّ دلالة لا تحتملُ أدنى قدرٍ من الشكِّ في أن المنصور بعث بمهاجرِ الخزاعيِّ يتجسَّسُ له على العلويين ويتجسَّسُ له ـ بصفةٍ خاصّةٍ ـ على زعيمهم الإمامِ جعفرِ الصادق ؛ فقد كان يريد من هذا الكرمِ المُصطنَعِ أن يصل إلى أخبارِه من خلال فلتاتِ ألسُن أهلِه .

ولا أريدُ أن أتعرَّض إلى كلِّ ما في أخبار المنصور رَجلَ مخابراتٍ فريدٍ من نوعِه ؛ وإنما أريد أن أنصَّ على وصيَّته لابنه المهديِّ ووليِّ عهدِه ـ لأنها شيءٌ ذو دلالةٍ ـ بقولِه : «ولا تقدُّم في الحياطةِ بمثل نقلِ الأخبار»[3] .

فلقد بلغ أبو جعفر من الاهتمام بهذا الجهاز ، ومعرفتِه الأخبار عن طريقه أوّلاً بأوّل أن وجدنا رجلاً مثل القاضي التنوخيِّ يُصدِّق ما رواه له أحدُ شيوخه من أنَّ المنصور لما بنى بغداد ، وبنى القبَّة الخضراء فيها «كان على رأسها صنمٌ على صورة فارسٍ في يده رمحٌ ، فكان السلطانُ إذا رأى ذلك الصنَّم قد استقبل بعضَ الجهاتِ ، ومدَّ الرُّمحَ نحوها علِم أنَّ بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة...»[4] .

---

(١) في الأصل : مال كثير .

(٢) موسوعة الاستخبارات ٣ : ٢٥٨-٣٥٩ .

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٣١٧ . ومن وصاياه لابنه المهدي في الطبري ٦ : ٣٢٤٥ : «وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشِرِ الأمورَ بنفسِك...» .

(٤) خطط بغداد : ٦٥ .

وفي هذه الرواية ما يدلّنا على مابلغه الناسُ من الحيرة ـ وهم يجهلون أمر الجهاز بحكم سريّته ـ في معرفة أبي جعفر المنصور كلَّ ما يدور في مملكتِه . ولكن العجيب أن القاضي التنوخي وهو ابن القرن الرابع لم يستطع أن يُفسِّر علم المنصور هذا فيصدّق خرافات أشياخه .

ولعلَّ تشـدّد المنصور في حفظ مُلكه ، وأخذ الناس بالظنِّ ، هو الذي جعل ابنَه المهديَّ حين استُخلِفَ يُطلِقُ سراح السجناء المعارضين سياسة أبيه ممَّن لا يُخشى خَطرُهم[١] .

وكان من إنجازات الخليفة المهدي في تنظيم البريد أن أمرَ سنة : ١٦٦هـ « بإقامة البريد بين مدينة الرسول (ص) وبين مكّة واليمن »[٢] ولابدَّ أن الخوف من العلويّين وثوراتهم ـ وإن لم يَثُر علويٌّ في عهده ، وإنما ثاروا في عهد أبيه ـ من بين الأسباب التي جعلته يُعنى بالمدينة ومكّة . وكان من إنجازاتِه المخابراتيّة أن أسَّسَ ـ بلغتنا المعاصرة ـ شعبةً خاصّةً بملاحقة الزنادقة ولّى أمرَها عمر الكلواذيَّ ، ثمَّ حَمدويه : محمد بن عيسى من أهل ميسان[٣] .

ويهُمني الآن أن أقول : إن ديوان البريد في العصر العبّاسيِّ الأوّل كان يقوم على مراقبة العُمّالِ والقضاةِ وعلى الكتابة بالأسعار وما إلى ذلك ؛ ولكنَّ العاملين فيه لم يكونوا بأيَّة حالٍ من الأحوال « يُشبِهونَ ـ في عصرِنا ـ أدقَّ الشبه مراسلي الصُّحف ومندوبيهم »[٤] ؛ كما قرَّر بعض الباحثين ؛ لسببٍ يسيرٍ هو أنَّ ديوان البريد لم يكن في خدمة الناس وإنما كان في خدمة الخليفة والدولة ، وهو أشبه ما يكون في ذلك بالبريد عند الرُّومان[٥] .

---

(١) ينظر السابق ٦ : ٣٥٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٨ .

(٣) السابق ٦ : ٣٩٠-٣٩١ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ٣ : ٢٢ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (بريد بقلم : هارتمان) ٣ : ٦١٠ .

ويهمّني أن أُقرِّرَ صحة قوله الآخر عن العصر العبّاسي الأول من أنّه « كان هناك ديوانٌ كبيرٌ على رأسه صاحبُ الخبر ، وكانت تأتيه أخبار الولايات بواسطة موظّفين مهمّتهم أن يُوافوه بكلّ ما يجري في الولايات من أحداثٍ وأسعار »[١] . ولا يمنعُ تقريري صحّة هذه الحقيقة أن أتحفّظَ على وصفِه صاحبَ هذا الديوان بأنّه صاحبُ الخبر ؛ وذلك أنني لم أجد هذا المصطلح قد استُعمل ، أو كان شاعَ في القرن الثاني للهجرة ، وإنما وجدتُ أنه يوصفُ بصاحبِ ديوان البريد . أما الذين تحدّثوا عن صاحب الخبر من مؤلّفي القرن الثالث وهم يتحدّثون عن أخبار القرن الثاني فلعلّهم كانوا يقيسون الديوان بما هو عليه في عصرِهم .

ويبدو أن أبا جعفرٍ المنصور ، ومن بعدِه ابنُه الخليفةُ المهديّ هما اللذان تلافيا ما كان قد وقع فيه خلفاءُ بني أميّة من جعلِ صاحب بريد الولاية مُرتبِطاً إدارياً بوالي الولاية . فأصبح صاحبُ البريد في خراسان ـ على سبيل المثال ـ يرفعُ تقاريرَه إلى صاحب ديوان البريد في بغداد ، فيُطلِعُ صاحِب بريد بغداد الخليفةَ على ما ورد في هذه التقارير منتظِراً توجيهاته بشأنها . ويمكنني أن أستدِلّ على صحّة ذلك بجملة أمورٍ منها ما رأيتُه من عِلم أبي جعفرٍ المنصور بما فعلَ زياد بنُ عُبيد الله الحارثيّ ـ واليه على المدينة ومكّة والطائف ـ مع محمد ابن عبد الله بن الحسن إذ قال له ـ وهو يعلم أن المنصور يطلبه ـ «الحقْ بأيّ بلاد الله شئتَ ، وتوارى محمدٌ ، وتواترت الأخبار بذلك على أبي جعفر...»[٢] ؛ فعزَلَه عن ولايته .

ولا أحِبُّ لأحدٍ أن يظنّ أنّ علم أبي جعفر بما فعل واليه كان من علانية الوالي فيما فعل فقط ؛ فقد بلغ هذا الجهاز من الاستقلالية في عهدِه بحيثُ كان يُراقِبُ أولادَ الخليفة المنصور أنفسِهم ، فقد « رفعَ صاحبُ الخبر إلى المنصور أن

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٣ : ٢٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ١٦٤ .

مطيعَ بن إياسٍ زنديقٌ وأنه يُعاشِرُ ابنَه جعفراً ، وجماعةً من أهلِ بيتِه ، ويوشك أن يُفسِدَ أديانَهم ، وينسبوا إلى مذهبِه... »[1] .

وقد كان من ردِّ فعل ابنِه المهديِّ ـ يوم ظنَّ أن أباه المنصور يريد أن يجعلَ أخاه جعفراً وليّاً لعهدِه ـ أن قال لعمارة بن حمزة : إنه سيقتلُ أباه إن فعل ذلك ، فلما دخل عمارة على المنصور بعد سماعه تهديد المهديِّ مباشرة يريد أن يقول له بما سمِعه من ابنه ، قال له المنصور : « أنا أُخبرك قبل أن تُخبرني ، جاءك المهديُّ فقال كيت وكيت... »[2] .

وبلغ المنصور من الدقَّة في معرفة ردِّ ابنه بحيث علَّق على ذلك عمارة بقوله : « واللهِ يا أمير المؤمنين لكأنَّك حاضرٌ ثالثنا » .

ولعلَّ أحداً يظنُّ أنَّ أصحاب الأخبار كانوا موكَّلين بعمارة بن حمزة وحدَه دون المهديِّ ، ولكنَّ الذي يمنعني من قبول هذا الرأي هو أنني وجدتُ صاحب بريد الريِّ يكتب بأخبار المهديِّ وهو وليُّ عهدٍ ، ووالٍ لأبيه على الريِّ[3] .

واتَّبع المهديُّ في خلافتِه سيرة أبيه ـ كما قلتُ ـ في جعلِ علاقةِ أصحاب بُرُدِ الأمصارِ علاقةً مباشِرةً بصاحب البريد في بغداد ، يدلُّنا على ذلك ما كتبه لعامله على الكوفة رَوْح ابن حاتم ؛ وقد مات عيسى بن موسى الذي خلع نفسَه عن ولاية العهد لصالح المهديِّ ، فلم يُصلِّ عليه روحُ إجلالاً له ، وإنَّما قدَّم ولدَه العباس بن عيس فصلَّى عليه ؛ فبلغ الخبرُ الخليفة المهديَّ فغضِبَ على روحٍ وكتبَ إليه : « قد بلغني ما كان من نكوصك عن الصلاةِ على عيسى! أبنفسِك أم بأبيك أم بجدِّك كنتَ تُصلِّي عليه ؟ أوليس إنَّما ذلك مُقامي لو حضرتُ فإذ غبتُ كنتَ أنتَ أولى به لموضعك من السلطان... »[4] ؟ .

---

(١) الأغاني : ٤٦٦١ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٣١٤ .

(٣) السابق ٦ : ٣١٨ .

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٩ .

وإذاً أستطيع أن أتصوّر الآن أن هيكلة الجهاز كانت تتمثّل بصاحب بريد الحضرة في بغداد يرتبطُ به عمّال بُرُد الأمصار ، ويرتبطُ بهؤلاء العمّالِ مُخبرون يجمعون الأخبار . وأن صاحب بريد الحضرة كان مرتبِطاً ـ وكلُّ هذا وأنا أتحدَّثُ عن القرن الثاني ـ ارتباطاً مُباشِراً بالخليفة ، وليس بوزيره .

ولعلَّ مما يدلّنا على ذلك شيئان أحدهما ما رُوي من أنَّ المأمون قد فوّض وزيرَه الفضل بن سهل المعروف بذي الوزارتين أن ينظرَ في جميع أمورِه ؛ فحدث أنَّه «لمّا عزم على نقل الخلافة إلى الطالبيين ، وبايعَ وهو بمرو لعليٍّ بن موسى الرضا ، بلغ ذلك إلى بني العبّاس ، فاضطربوا وشقَّ عليهم ذلك ، ثمَّ نصبوا إبراهيم المهدي [كذا] ، وأدّى الأمرُ إلى أن حاربوا الحسن بن سهلٍ وكسروه ، والأخبارُ منطويةٌ عن المأمون بسبب تمكّن ابن سهلٍ [أي : الفضل بن سهل] من الأمور ، وكان وزير المأمون ، فتحيَّلتْ زوجة المأمون في أن بعثتْ له خلعاً من خَزٍّ ووشيٍ ، وكتبت ما أرادتْ على بطائنها[1] وجعلتْ فوق البطائن بطائناً وسخةً خلقة ، فلمّا عُرضت على الفضل بن سهل أمر بحملها إلى المأمون ولم ينتظر في ذلك ، فلمّا أراد المأمون لبسها نظر في رداءة بطائنها فنزعها ؛ فرأى الكتابة على البطائن الأصلية ، وعلم انطواء الأخبار عنه ، فأخرجَ البريدَ عن تعلُّق الوزير...»[2] .

وليس يهمّني كثيراً أن تكون زوجةُ المأمون على مثل هذه العبقريّة أم لم تكن بمقدار ما يهمّني أن أُقرِّر أن علاقة صاحب ديوان البريد كانت علاقةً مباشرةً بالخليفة ، وأن الخليفة المأمون قد جعلَ ارتباط صاحب البريد ـ في مرحلةٍ من مراحل خلافته ـ بوزيره ، ثمَّ أعرض عن هذا .

أما الشيء الثاني الذي يدلّنا على صحّة ما استنتجتُه فهو قول أبي عليٍّ البصير المتوفّى بعد سنة : ٢٥٨هـ في سعيد بن حُميد بعد أن وليَ الجهاز في بغداد :

---

(١) في الأصل : «وكان وزيرُ... على بطاينها» . ووردت البطائن في النصّ جميعاً بتسهيل الهمزة على : بطاين .

(٢) آثار الأُول في ترتيب الدول : ١٥٠-١٥١ .

بأبي نفسُ سعيدٍ ... إنّها نَفسٌ شريفه

لم يَزلْ يحتالُ حتى ... صار غَمّازَ الخليفه[١]

فقولُ البصير عن صاحب ديوان بريد الحضرة أنّه صار غمّاز الخليفة كنايةٌ عن أنّه هو الذي يُومئُ إلى مَن يتولّونه ومَن يبغضونه عندَه ؛ لأنّه هو الذي يُطلِعه على ما يوافيه به رجالُ الديوانِ من أخبار الناس .

ومن هنا كان من جملة الوصايا التي يُوصى بها الملوك أنه : « ينبغي للملك أن لا يجعلَ بينه وبين البريد وأصحاب الأخبار واسطةً ، ولا يجعلْ بينهم وبين الوزراء تعلّقاً... »[٢] .

أمّا هيكلُ علاقة المُخبرين بصاحب الديوان فأستطيع أن أتصوّر أنّه كان لهم رؤساء مسؤولون عن هذه المحلّة أو تلك ؛ إذ كان لكلّ محلّةٍ ـ كما يُخيّلُ إليّ ـ صاحبُ خبرٍ . فقد كان على عهد أبي جعفر المنصور مَن يُسمّى بصاحب السكّة وظيفتُه أن يكتبَ عن الطارئين من الضيوف ، والزّوار على هذه الدار أو تلك من ذاك الزقاقِ أو ذلك[٣] . وكانت بغدادُ قد قُسّمتْ إلى أرباعٍ أي : محلاّتٍ لكلّ ربعٍ منها مسؤولٌ ، وكان المسؤول الأعلى لهذه الأرباع إبراهيم بن السّنديّ[٤] . وكان إبراهيم بن السندي يرتبطُ مباشرَة بالخليفة المأمون .

فإذا افترضنا أن النظام الذي عمِل به المنصور ظلّ قائماً ، والحقُّ أنه ليس هنالك ما يمنع من هذا الافتراض ؛ لأنني رأيتُه قائماً في القرن الرابع[٥] قلنا : إنّ لكلّ طريقٍ وسكّةٍ صاحباً يكتبُ بأخبارهما ، وإن لكلّ هؤلاء مسؤولاً عنهم هو صاحبُ المحلّة الذي يرتبط ـ كما رأينا ـ بصاحب الخبر ، وإنّ أصحاب البريد

---

(١) الكناية والتعريض : ٥٦ .

(٢) آثار الأول في ترتيب الدول : ١٥٠ .

(٣) ولاة مصر : ٩١ .

(٤) ينظر بغداد : ٣٥ ، والمحاسن والمساوئ ١ : ٢٧١ .

(٥) ينظر ذيل تجارب الأمم : ٥٩ .

مسؤولون عن جمع الأخبار وموافاة صاحب بريد الحضرة بها ، ومن هنا كان من رسوم أصحاب البريد في المخاطبة الرسمية (أي كان من البروتكول الرسمي في مخاطبتهم) أن يُخاطب كلُّ واحدٍ منهم بِرُتبتِه في الجهاز ، فيُقالُ في المكاتبة لأصحاب الطبقة الأولى «ممن يتقلّدُ الأعمال الجليلة : أكرمَكَ اللهُ ، ومدَّ في عُمركَ ، وأتمَّ نعمتَه عليك ، وأدامها لك... والطبقة الثانية منهم : أكرمكَ اللهُ وأبقاك ، وأتمَّ نعمتَه عليك وأدامها لك ، والطبقة الثالثة : حفظك اللهُ وأبقاك وأمتع بك...»[١] .

وكان كلُّ هذا مما يُخاطَبُ به أصحابُ البريد في الحضرةِ مما يؤيِّدُ ما استنتجتُه . أما أصحابُ البريد في النواحي فتكون مخاطبة صاحبِ البريد في الناحية بمثابة صاحبه في الحضرة ، ومن هو مسؤولٌ عن المحلّة بمثابة زميله في بغداد ، وكذلك هو المسؤول عن أخبار السكّة[٢] وهكذا .

وكان أصحاب البريد مسؤولين أيضاً عن دوابّ البريد التي تنقل الأخبار[٣] ، وما إلى ذلك من قضايا تقنيّة تضمنُ وصول الأخبار بأسرع ما يُمكِن ؛ لأنَّ الخلفاء ومن هو في سبيلهم اعتادوا أن تكون لهم أوقاتٌ معلومةٌ يخصّصونها للنظر في الأخبار ؛ ولأنَّ جهاز المخابرات أيَّ جهازٍ يتطلّب لكي يكون ناجزاً ، فاعلاً السرعةَ في نقل الأخبار . فقد كان الخليفة المنصور على ـ سبيل المثال ـ ينظرُ في البريد الوارد عليه بعد صلاة العِشاء من كلِّ يوم[٤] . أمّا عضد الدولة البويهي فقد بلغ من حرصِه على ورود البريد عليه أن كان لكتب البريد عنده «وقتٌ معلومٌ تصلُ فيه وتُراعى فإنْ تأخَّرتْ قامت القيامةُ ووقع البحثُ عن العائق العارض...»[٥] .

---

(١) الوزراء : ١٧٨ .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر قضاة مصر : ٢٩٠ ؛ ودائرة المعارف الإسلامية ٣ : ٦١٠ .

(٤) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ٣١٦ .

(٥) ذيل تجارب الأمم : ٤٠-٤١ .

وقد ضمن أصحابُ البريد هذه السرعة في نقل الأخبار ؛ حتى إنّه كان يصلُ خبرُ الاضطرابات من البصرة إلى بغداد في اليوم نفسهِ(١) ، وكان البريدُ السياسي يصلُ من شيراز إلى بغداد في سبعة أيام فكان « يُحمَلُ مع المُرتَّبين بواكيرُ الفواكهِ والمشموم من نواحي فارس وخوزستان فتصلُ طريَّةً سليمةً »(٢) ، وكان هذا البريدُ يصل من أذربيجان إلى سامرّاء « في أربعة أيامٍ أو أقلّ »(٣) رُغم أن الثلوج كانت تُفسِدُ الطريق ، ويصل من أقاليم مصر إلى القاهرة بانتظام « مرّتين كلَّ أسبوعٍ وكان ناقلُ البريد يسيرُ من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيامٍ وأحياناً في ثلاثة أيامٍ فقط »(٤) على حين كان يستغرق وصولُ خبرٍ عاديٍّ من قبيل وقوع كارثةٍ من الدّبيل إلى بغداد ما لايقِلُّ عن شهرينْ(٥) . بل إنّ هذه المدّة القصيرة كان من الممكن أن تُختزل ـ في بعض الأحيان ـ إلى ساعاتٍ فقد رُوي عن ابن مقلة أنه كانت تَرِدُ عليه أخبار أبي طاهر القرمطيِّ من الأنبارِ على الساعات أي ساعةً بساعةٍ ، وكان يُوافي بها نصراً الحاجبِ تملُّقاً رجاء أن يُستوزَر(٦) .

وأعودُ إلى ماكنتُ فيه من هيكل الجهاز فأقول : إنّ هذه الهيكلة شهِدت تطوّراً آخر على عهد ضعف الخلافة العباسية ابتداءً من عهدِ المُقتدرِ ؛ إذ صارالذي يبتُّ بتقارير الجهاز ـ في بعض الأحيان ـ هو الوزيرُ وليس الخليفةُ(٧) . بل إن حاجب الخليفة كان يتجسَّسُ على الخليفة نفسِه لمصلحة الوزير ؛ فقد رَوى « أبو عبد الله بن عبد الأعلى الإسكافيّ كاتب نصر القشوريّ الحاجب قال : كنتُ بحضرة صاحبي [يقصد بصاحبِه نصراً] في يوم القبضِ على ابن الفرات [وابنُ الفراتِ وزير المُقتدرِ] فرأيتُه قد خاف خوفاً شديداً ؛ فقلتُ : ما الخبرُ أيُّها الأستاذُ ؟ قال :

(١) ينظر تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٤ .

(٢) ذيل تجارب الأمم : ٤٠-٤١ .

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٢٦٠ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٦١٠ .

(٥) ينظر تاريخ الإسلام (حوادث ٢٦١هـ ـ ٢٧٠) : ٢٤٤ ، والكامل في التاريخ ٤ : ٥٧٢ . والدبيل في أرمينية .

(٦) الوزراء : ٣٤١-٣٤٢ .

(٧) السابق : ٢٨١ ، ٣٤١-٣٤٢ .

ويحكَ جاءني الساعةَ خادمٌ ممَّن أُعوِّلُ عليه في مراعاة أخبار الخليفة ، فعرَّفني أنه شاهدَه وقد جمعَ جماعةً من خواصِّ خدمِه ، وأقامهم حواليه بالسلاح وأسبل... الستائر في الدار التي هو وهم فيها ، وهذا لأمرٍ كبيرٍ لا أعلم ما هو... »(١) ؟

ويُخيَّل إليَّ أن الوزير - وهو يُقابلُ ما نصطلحُ عليه اليوم برئيس الوزراء - كان له جهازُ مخابراتٍ خاصٌّ به ، ربَّما يكون نصر القشوريّ من أفراده ؛ وإلاَّ فلم خوفه على نفسه ، وعلى الوزير ؟ فقد كان أحمد بن أيّوب صاحب خبرِ ابن الفرات على حين أنَّ شفيع اللؤلؤي كان صاحبَ بريد الخليفة المُقتدِر وصاحب خبره ، وموضعَ ثقتِه(٢) .

ولعلَّ ضعفَ المُقتدِر من ناحيةٍ وإحساسَه بأن لوزرائه جهازَ مخابراتٍ خاصّاً بهم يبلغُ من النفوذ بأن يتجسَّس هذا الجهازُ عليه هو نفسِه جعلَهُ يتَّخِذُ مجلسَ مخابراتٍ في الأمور الجليلة هو ممّا نسمّيه اليوم مجلس أمنٍ قوميّاً ؛ فقد رأينا المقتدر وقد ورد عليه خبرُ وصول الفاطميين إلى مصر قد اجتمعَ إلى « مؤنسٍ ومانس وغريبٍ الخال ونصر الخال وشفيعٍ وغيرهِم من الخاصّة... »(٣) . ولكنَّني لا أزعمُ أنَّ هذا المجلسَ كان مجلساً رسميّاً مستقِرّاً بقانون أو ما يُشبِهه .

وفي أيام الخليفة الراضي بالله صار بجكم - وكان يلي أمرَ العراق - هو الذي تُرفع إليه التقارير(٤) .

ويبدو أنه بمقدار ما كانت تضعفُ الخلافة - كما هي طبيعة الأمور - يزدادُ اعتمادُها على جهاز المخابرات ، ولنا في حُكم الناصر لدين الله نموذجٌ ؛ فقد كان له « عيونٌ وأصحابُ أخبارٍ لا يُؤبَه لهم يُخالطون أصناف الناس »(٥) ؛ « وكان

---

(١) السابق : ٢٩٠ .

(٢) ينظر السابق : ١٦٤ويؤيد هذا الخبر ما ورد من حوادث فيه على الصفحات : ٤٨ ؛ ١٠٧ ؛ ٢٨١ .

(٣) السابق : ٢٨٠ .

(٤) أخبار الراضي بالله والمتقي : ١٩٤ .

(٥) الفخري في الآداب السلطانية : ٣٩ .

كلُّ أحدٍ من أربابِ المناصب والرعايا يخافُه ويحذرُهُ ، بحيثُ كأنَّه يطَّلعُ عليه في دارِهِ ، وكثرت جواسيسُه وأصحابُ أخبارِهِ عند السلاطين وفي أطراف البلاد ، وله في مثل هذه قصصٌ غريبة »[١] .

فمن قصص الناصر لدين الله الغريبة أنّه « لمّا دخل رسولُ مازندران بغدادَ كانت تأتيه ورقةٌ كلَّ صباحٍ بما عمِلَ في الليل ، فصار يبالغ في التكتّم والورقةُ تأتيه بذلك ، فاختلى ليلةً بامرأةٍ دخلتْ من باب السِّرِّ فصبَّحتْه الورقة وفيه : كان عليكم دواجٌ فيه صورةُ فيلة ، فتحيَّر وخرج من بغداد وهو لا يشكُّ أن الخليفة يعلمُ الغيب... »[٢] . وهنالك أخبارٌ أخرى عنه تدلُّ على اهتمامه الشديد بحفظِ ملكه عن طريق التجسس على الناس .

وأجيءُ الآن إلى رجال الجهاز فأبدأ بأدنى مراتبِه فأقول : إنَّ مُخبريه ـ كما هي الحالُ في عصرنا الحاضر ـ كانوا من مختلف طبقات المجتمع ، فيهم : « الطفلُ والمرأةُ والمحتالُ والذَّمِرُ وابنُ السبيل... »[٣] .

فأمّا استعمالُ المرأة مُخبِرةً فلعلَّ أوَّل مَن بدأ به أبو جعفر المنصور[٤] ، إذ اتَّخذ من حجّامةٍ مُخبرةً ، ثمَّ أرساه وتوسَّع فيه الخليفةُ المهديُّ فقد رُويَ عنه حُبُّه الجمُّ للنساء ، وأنه كان يبلُغ من هذا الحبِّ بحيثُ يفاوضُ في أمور النكاحِ وزيرَه الشيعيَّ الزيديَّ يعقوبَ بن داود الذي لا يختلِفُ عنه في حُبِّ النساء والنكاحِ حتّى إذا شكَّ في ولائه أهدى له جاريةً حسناء وقال له كما يروي يعقوب نفسُه : « لي إليك حاجةٌ... فوثبتُ قائماً ثم قلتُ : يا أمير المؤمنين ما هذا إلاّ من مَوجدةٍ... قال : لا ، ولكنّي أُحبُّ أن تضمن لي قضاء هذه الحاجة ؛ فقلتُ : الأمرُ لأمير المؤمنين وعلى السمع والطاعة . قال : والله ؟ قلتُ : واللهِ ثلاثاً ، قال : وحياةِ

(١) السابق : ٣٢٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ٤٤٨ وما بعدها نقلاً عن نظم الاستخبارات : ١٢٦ . والدواج ـ كما يظهر ـ ما يتغطّى به النائم .

(٣) بغداد : ٣٥ ؛ والمحاسن والمساوئ ١ : ٢٧١ . والذّمر : الظريف اللبيبُ اللعين . ينظر تاج العروس : ذمر .

(٤) ينظر بين الخلفاء والخلعاء : ٩١ .

رأسي ؟ قلتُ : وحياةِ رأسِك ، قال : فضعْ يدَك عليه واحلِفْ به ، قال : فوضعتُ يدي عليه وحلفتُ له به لأعملنَّ بما قال ، ولأقضينَّ حاجتَه . قال : فلمّا استوثقَ مني في نفسِه قال : هذا فلان بن فلان من ولد عليٍّ أُحِبُّ أن تكفيني مؤونتَه ، وتُريحني منه ، وتُعجِّلَ ذلك ، قلتُ أفعلُ... »[1] . وإذ اصطحب يعقوب بنُ داود العلويَّ المُراد قتلُه والجاريةَ الحسناء إلى بيتِه وقرَّر أن يُطلِق سراح العلويِّ موهِماً المهديَّ أنه قتَلَه اكتشف أن الجارية كانت قد بلَّغت الخليفةَ بحقيقة الأمر ؛ فكان ذلك سببَ نكبتِه ، وسجنِه .

ويُخيَّلُ إليَّ أنَّ الخلفاء المسلمين ـ بعد خلافة الراشدين ـ قد اتَّخذوا في كلِّ عصورهم من النساء وسيلةً في اصطياد الرجالِ سياسيّاً حتى بلغ الأمرُ بابن بطلان ـ وهو من أبناء القرن الخامس ـ أن قال في وصيّته الرابعة لمن يروم شراء غلامٍ أو جاريةٍ : « ما حُذِّر منه الرؤساءُ خاصَّةً . قالوا : ليحذر الرؤساءُ ـ ممن له عدوٌّ يخشى منه غيلةً ، أو يخافُ أن يطَّلِعَ منه على سِرٍّ ـ شرى خادمٍ له أو جاريةٍ ، خاصَّةً إن كانت كاتبةً خرجتْ من دارِ سلطانٍ ، إلاّ بعدَ خبرتِه بها ، ولا شِرى جاريةٍ مولَّدةٍ من تاجرٍ أو جلاّبٍ ؛ فإنَّ هذه حيلةٌ قد هلك بها جماعةٌ من الملوك والرؤساء »[2] .

أمّا الأطفال المستخدَمون في جهاز المخابرات فينبغي ألاّ نتصوَّر طفولتهم وهي في سنيِّها الأولى ؛ لأنَّ هؤلاء يبلغون من براءة الطفولة بحيث يكونون هم من مصادر الخبر عن ذويهم ؛ فقد رُويَ أنَّه « كان معلِّمو الصبيان مُواقَفينَ على أن يسألوا أولادَ الجُندِ الذين في مكاتبهم عن أمور آبائهم ، ومُتصرَّفاتِ أحوالِهم في منازلهم ، ويكتبون بذلك إلى ديوان البريد ، ولهم على ذلك رزقٌ دارٌّ »[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٤ ، وينظر الفخري في الآداب السلطانية : ١٨٥-١٨٦ . ولا بدَّ أنَّ جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي زوجة الحسن بن عليِّ بن أبي طالب التي سمَّته كانت على صلةٍ بأحدٍ ما . ولكن الجهاز لم يكن قد أُسِّس بعد ؛ فلا أستطيع أن أصنفها بأنها كانت من العاملين فيه .

(٢) شرى الرقيق وتقليب العبيد : ٣٥٦ .

(٣) ذيل تجارب الأمم : ٥٩ .

وللذَّمِرين شأنٌ في الجهاز بحُكم كونِهم ممن يُحبُّ الناسُ معاشرتَهم ، وحسبنا من هذا الشأن أن خدَعَ أحدُهم رجلاً مثلَ المُحسِّن الصابي رُغم أن أباه إبراهيم بن هلال الصابي كان في الاعتقال ؛ مما يجعلنا نفترضُ أنه كان يُدرك وجوب أن يكون حذراً ؛ ولكنَّه مع هذا خُدِع برجلٍ « شيرازيٍّ رثِّ البزَّة يذهبُ في أمرِه مذهبَ التَّطايُبِ ويُضحِك... إذا جلسَ... »[١] .

وأستطيع بعد كلِّ ما سُقتُ أن أطمئنَّ إلى أنَّ طائفةً من المخبرين كانوا من هؤلاء الفقراء الذين لا يستلفتون النظرَ إلى خطورتِهم لما هم عليه من حالٍ تدعو إلى الشفقة أكثرَ مما تدعو إلى الريبة .

وهنالك حالٌ أخرى مُغايِرةٌ تدعو إلى الثقةِ أكثر مما تدعو إلى الرِّيبة هي حال الفقهاء والمثقَّفين والأدباء وطلبة العِلم ؛ فمن هذه الحال أن يُنهَى ما يدور في مجلسِ محمد بن رافعٍ - وهو مجلسُ حديثٍ نبويٍّ - إلى جهاز المخابرات[٢] . فإذا برَّأنا محمّد بن رافع نفسَه أن يكون من رجال الجهاز ؛ وذلك بشرط أن نعتقِد أنَّ مُحقِّق الكتاب قد صحّفَ قُلنا إنَّه لا بدَّ أن أحدَ طلبة العِلمِ المزعومين كانَ مكلَّفاً بنقل ما يدور في مجلسه .

هذا ما كان من أمر المخبرين الصغار الذين لا يلتفتُ التاريخُ إلى أسمائهم في العادة ؛ فأمّا الذين هم أكبرُ منهم فقد حفِظ لنا التأريخ طائفةً من أسمائهم مُلمِّحاً مَرَّةً ، ومُصرِّحاً مَرَّةً أخرى .

فقد اعترفَ أبو حيان التوحيديُّ أنَّه إنَّما امتنع من مصاحبة ابنِ موسى إلى الجبلِ ؛ لأنه كُلِّف أن يكون عيناً عليه[٣] . ولكنَّ أبا حيّان نفسَه وقد امتنع أن يكون عيناً على ابن موسى لم يمتنِع أن يكون عيناً للوزير ابن سعدان على

---

(١) نفسُه .

(٢) أدب الإملاء والاستملاء ، ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) ينظر الإمتاع والمؤانسة ١ ، ٨٥ . ونبَّهني إلى ضرورة أن أهتمَّ بأبي حيّان التوحيديّ جاسوساً صديقي الدكتور هاتف الجنابي ؛ فله الشكر الجزيل على تنبيهه .

العامَّةِ ؛ فينقل له ما قالوا عن نزوله إلى دجلة ، وعن رأيه في غلاء الأقوات[1] .

وعلى أنَّني لا أتَّهم أبا حيّان بأنّه كان من مُخبري هذا الجهاز إلاّ أنَّ هذا لا يمنعني أن أقول : إنَّ أهل النفوذ في عصرِه قد استغلّوا فقرَه المُدقِعَ ، وحاجتَه المشروعة أن يعيش عيشةً تليق ببني آدم وليس بالموهوبين من أمثاله أبشعَ استغلالٍ فوظّفوه في جهازهِم مُتطوّعاً من حيثُ لا يشعرُ ومن دونما أجرٍ . ولعلَّ تجربة أبي حيّان في بلاط الصاحب بن عبّاد ، وتصوّرَه بأنَّ الصاحبَ قد نوّل أبا بكر الخوارزمي ما نوّل لأنه اتّخذَه عيناً على محمد بن إبراهيم صاحب الجيشِ بنيسابور[2] ، أقول : لعلَّ تجربته البائسة في رفقة الصاحب ، وتصوّرَه لسبب حظوة أبي بكر عنده هي التي جعلته سهل الانقياد لأولي الشأن .

أمّا مسؤولو هذا الجهاز فلا أظنُّ أنَّ من الفائدة في شيءٍ أن أُعدِّد أسماءهم ؛ لأنَّهم نَكِراتٌ من مثلِ إبراهيم بن السنديِّ الذي مرَّ بنا ذِكرُه ، وموسى بن بغا وأمثالِهما ؛ ممن لم يَعلُ شأنُه إلاّ بما تولاّه من أمرالديوان ، وإلاّ بما قمعَ به الناس ؛ ولكن لعلَّه لا يخلو من فائدةٍ أن أقول : إنَّني رأيتُ من بينهم هو أكبرُ من أن يُنسبَ إلى مثل هذا الجهاز ؛ ولكنَّه كان من أعمدتِه .

فمن هؤلاء ـ كما رأينا ـ قبيصة بن ذؤيب ، وكان يُعدُّ من فقهاء المدينة الكبار[3] ؛ إذ كان رابعَ أربعة منهم .

ومن هؤلاء سعيد بن حُميد الكاتب ؛ وهو كاتبٌ مجوِّدٌ ، وشاعرٌ معروفٌ جداً في عصرِه[4] ، وقد ولي ديوان بريد الحضرة كما سبق القول .

ومنهم مسلِم بن الوليد المعروف بصريع الغواني ؛ فقد ولاّه الفضلُ بن سهل

---

(١) السابق ٢ : ٢٨ .

(٢) يُنظر مثالب الوزيرين : ٧٧ .

(٣) الكامل في التاريخ ٣ : ١٨٢ .

(٤) جمع شعره الدكتور يونس السامرّائي في الجزء الثالث من كتابه شعراء عباسيون .

ذو الرِّياستين «بريد جُرجان وبها مات ،»[1] . ومسلم «أوَّل من طلب البديعَ وأكثرَ منه ، وتبعه الشعراء فيه»[2] .

ومنهم أبو تمّام الشاعرُ الذي انعطف بالشعرِ العربيِّ انعطافةً لم تكن تُنتظَرُ إلاّ على يدِهِ ؛ حتّى لتستطيع أن تقول وأنتَ تؤرِّخ للشعر العربيِّ في أهمِّ إنجازاتِهِ إنّه كان من تأريخه امرؤ القيس الذي ألهى الشعراء بعدَه ثلاثة قرونٍ ، وإنه كان في تأريخه أيضاً أبو تمّام الذي ألهى بتجديده الشعراء عشرة قرونٍ وما يزالُ يُلهيهم . فقد تولّى أبو تمام بريد الموصل فأقامَ به «أقلَّ من سنتين ثمَّ مات...»[3] .

ومن هؤلاء الذين عملوا في هذا الجهاز من هو أقلُّ موهبةً شعريةً من مسلم وأبي تمام مثل الشاعر محمَّد بن حامد الحامديّ الخوارزميّ ، وكان من أصدقاء الشاعر أبي الفتح البُستي ، فقد تولّى للصاحب بن عبّاد بريد قُم ، فبقي فيه حتى وفاة الصاحب[4] .

وكان الحريريُّ القاسمُ بن عليٍّ المُتوفّى سنة : ٥١٦هـ صاحبُ المقامات المشهورة مُشرَباً بالتجسُّس ، فقد كان هو صاحبَ الخبر في البصرةِ ، وبقي هذا المنصبُ لأولادِهِ من بعده حتى نهاية عهد المُقتفي سنة : ٥٥٥هـ[5] ، فكأنَّه كان قد علَّم أولاده الجاسوسية ، وليس اللغة العربية التي حاول أن ينفي عنها اللحنَ في كتابه : «دُرَّة الغوّاص في أوهام الخواص» ، أو الأدبَ الذي اشتهر به في مقاماته وشِعره .

ومهما يكن من أمرٍ فقد كان هذا الجهازُ يستخدم كلَّ من استطاع استخدامَه ، ولكن ما هي وظائفُه ومُهمّاتُه ؟ ذلك ما أرجو أن نراه في الفصل التالي .

---

(١) معجم الشعراء : ٢٢٧ .

(٢) نفسه .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ١٦ .

(٤) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٨ ، والمحمدون من الشعراء : ٣٢٠ .

(٥) ينظر معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٢ .

الفصل الثالث

وظائف الجهاز ومهمّاته



بدهيٌّ أن أقول : إنَّ وظيفة الجهاز أيِّ جهاز هو حفظ أمن الدولة . ولكنَّ ما يُختلَف فيه هو مفهوم هذا الأمنِ من صاحبِ خبرٍ إلى آخرَ ؛ أو من خليفةٍ إلى سواه ؛ فإذْ كان المنصور ـ على سبيل المثال ـ يرى أن استقرار الأسعار جزءٌ من أمن الدولة ، فكان يكتبُ إليه « ولاة البريد في الآفاق كلِّها في كلِّ يومٍ بسعر القمح ، والحبوب ، والأُدم ، وبسعر كلِّ مأكول... فإذا وردتْ كتُبُهم نظرَ فيها ؛ فإذا رأى الأسعار على حالها أمسكَ ، وإن تَغيَّر شيءٌ منها عن حاله كتبَ إلى الوالي والعامل هناك ، وسأل عن العلّة التي نقلت ذاك عن سعرِه... »[1] كان عضد الدولة البويهيُّ يرى أن شتمَ شيخٍ حلاويٍّ له في مصر من قضايا الأمن[2] .

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه لم تكن للجهازِ مُهمّاتٌ ظلتْ على مرِّ العصور من وظائفه الأساسية . فمن هذه المهمّات ، ولعلها من أهمِّ المهمّات التجسُّسُ على المعارضة السياسيّة ، حتى قبل أن يصبحَ الجهازُ جهازاً واضح الملامح كما صار إليه حالُه في العصر العباسي فقد رُوي أنّ الإمام عليّاً « قال في خطبةٍ له بيَّن فيها حال طلحة والزبير : ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه ، فكتماه عني »[3] وواضحٌ أنَّ كتمان الكتاب عنه مما يدلُّ على أنه علم بخبرِه من

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) ينظر ذيل تجارب الأمم : ٦٠ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢١٠ نقلاً عن موسوعة الأمن والاستخبارات ٢ : ٤١ .

طريق التجسس ، وروي عن الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك أنه كان يضعُ أحدَ خدمِه عيناً على زيد بن عليٍّ وهو ينتظر الإذنَ للدخول عليه[1] ، وقد رأينا في الفصل السابق تجسس المنصور على الإمام جعفر الصادق من خلال تسقّط فلتات ألسنِ بعض العلويين في المدينة .

أمّا تقدير أنّ هذا من المعارضة أو ذاك فيُترك ـ كما يبدو ـ لصاحب الخبر نفسِه . ويمكن أن نلمحَ أن وجوه المجتمع سواء أكانوا من المثقّفين ، أم من أهل الدين ، أو من أهل النفوذ الاجتماعي كانوا موضوعين تحت الرقابة يدلُّنا على ذلك خوف شاعرٍ مثل العطوي من عيون الرشيد[2] ، ويدلُّنا عليه ما مرَّ بنا في الفصل السابق من أمر أن جعفر بن الخليفة أبي جعفر المنصور كان من جلساء مطيع بن إياس ، فإذا كنّا قد قرَّرنا هنالك أن المقصود بالتجسس هو ابن الخليفة كما دلَّ عليه خبرُه ، فإننا نُقرِّر هنا أنّ مطيعاً نفسه كان موضوعاً تحت المراقبة ، يدلُّنا على ذلك أنّ الخليفة المهدي قال لمطيع : « قد رفع إليَّ صاحبُ الخبر أنّك تتماجنُ على السؤّالِ ، وتضحك منهم ؛ قال : لا ، واللهِ ما ذلك من فعلي ولا شأني ، ولا جرى منّي قطّ إلاّ مرَّةً واحدةً ؛ فإنَّ سائلاً أعمى اعترضني ـ وقد عبرتُ الجِسرَ على بغلتي ـ وظنَّني من الجُندِ ، فرفَعَ عصاهُ في وجهي ثمَّ صاح : اللهمَّ سخِّر الخليفة لأن يعطي الجندَ أرزاقهم ، فيشتروا من التجار الأمتعةَ ، ويربح التجارُ عليهم فتكثر أموالُهم ، فتجب فيها الزكاةُ عليهم ، فيصَّدَّقوا عليَّ منها ، فنفرتُ بقلبي من صياحِه ، ورفعَ عصاه في وجهي حتى كدتُ أسقط في الماء . فقلتُ : ياهذا ما رأيتُ أكثرَ فضولاً منك ، سلِ الله أن يرزقك ولا تجعل هذه الحوالات والوسائط التي لا يُحتاجُ إليها ؛ فإنَّ هذه المسائل فضولٌ ؛ فضحك الناسُ منه... »[3] . ولا أريد أن أُطيلَ في ذكر أسماء هؤلاء الشعراء الذين كان صاحب الخبر يكتب بأخبارِهم ، ولكن أريد أن أقول إنّ وضعهم تحت المراقبة يكاد يكون من مهمات الجهاز في

---

(١) ينظر الكامل في التاريخ ٣ : ٣٧٤ .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ٤٩٦ .

(٣) الأغاني : ٤٦٦٢ .

كلِّ العهود ؛ فقد رأينا أن الخليفة الرشيد قد وكّلَ بأبي العتاهية صاحِب خبرٍ « يكتبُ إليه بكلِّ ما يسمعُه... »[١] ، وأنَّ الخليفة المأمون قد وكَّل بالشاعر أبي جعفر محمد ابن عبد العزيز الغَزّي[٢] ونرى بعد قرنين من عصر الرشيد أن بعض آل سامان قد وكّلوا بالشاعر أبي الطيب الطاهري « فكان أصحابُ أخبار السرِّ... يُنهون إلى كلٍّ من الأميرين : الشهيد والسعيد في أيّامِهما ما يُقدِمِ عليه هذا الطاهري من هجائهما... »[٣] . ولعلَّ في هذا ما يُفسِّر اتّخاذ بعض الشعراء والأدباء عيوناً تتعاون مع الجهاز إن لم تكن من أفرادِهِ كما رأينا في الفصل السابق . فمن غير المعقول أن يتجسسس على الأديب غيرُ الأديب . ومن هنا أيضاً نستطيع أن نفهم الليلة الرابعة من ليالي « الإمتاع والمؤانسة » فقد كان الوزير ابن سعدان فيها معنيّاً أن يسأل من طرفٍ خفيٍّ عن أبي الوفاء المهندس ، وهو من أئمة الحساب والهندسة والجبر والفلك ، وعن الصاحب بن عبّاد ، وعن سواهما[٤] .

فإذا تجاوزنا الشعراء إلى أهل التديّن والتصوّف ، ومن إليهما رأينا أنَّ هشام بن عبد الملك قد أخذ الجَعدَ بن درهم لمّا قال بخلق القرآن ، وأرسل به إلى واليه على العراق خالد القسري ليقتلَه[٥] ، ورأينا أنَّ الرشيد يقول : « بلغني أن بِشر بن غياث يقول إن القرآن مخلوقٌ ، لله عليَّ إن أظفرني به لأقتلنَّه... وكان بشر متوارياً أيام الرشيد ، فلما مات ظهر... ودعا إلى الضلالة »[٦] ، وواضحٌ من النصِّ أن بشراً لم يُجاهر برأيه فيبلغُ جهرُه به الرشيدَ ليتوعّده بالقتل ، وإنما كان الرشيد قد اطّلع ـ كما يخيَّل إليَّ ـ على رأيه بوسائله الخفية الخاصة ؛ وإلاّ فكيف علم الرشيد برأيه وهو لم يدعُ إليه علانيةً إلاّ بعد وفاته ؟

---

(١) السابق ١ : ١١٢٩ .

(٢) معجم الشعراء : ٣٦١ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٧٠ ، وينظر مصير الشاعر الحرّاني فيه ٤ : ١١٥ .

(٤) ينظر الإمتاع والمؤانسة ١ : ٨٣-٩٦ . والتعريف بأبي الوفاء من إحدى حواشيه .

(٥) ينظر الكامل في التاريخ ٣ : ٣٩٣ .

(٦) الوافي بالوفيات ٦ : ٣٦٥ .

وشيءٌ آخرُ لا يحتمل الخلاف في أنّ أهل الدين كانوا تحت المراقبة ؛ فقد كان مجلس الحافظ القُشيري محمد بن رافع مُراقَباً يدلنا على ذلك ما رواه الحافظ ابن السمعاني ؛ فقد قال : « ... سمعتُ أبا الحسن أحمد بن الخضر الشافعي يقول : كنّا في مجلس محمد بن رافع في منزلِه قعوداً تحت الشجرةِ ـ وهو مستنِدٌ إليها يقرأ علينا ، وكان إذا رفع في المجلس أحدٌ صوتَه أو تبسَّم قام فلا يقدر أحدٌ منّا على مراجعتِه . قال : فوقع ذرقُ طائرٍ على يدي وقلمي وكتابي فضحك خادمٌ من خدم طاهر بن عبد الله [بن طاهر] ـ وأولاده معنا في المجلس ـ فنظر إليه محمد بن رافع فوضع الكتاب ، وأُنهي[1] ذلك الخبرُ إلى السلطان ، فجاءني الخادمُ عند السَّحَرِ ومعه حمّالٌ على ظهرِه نبتُ سامان فقال : والله ما كنتُ أملك في الوقت شيئاً أحمله إليك غير هذا ، وهو هديّةٌ لك ؛ فإنْ سُئلتَ عنّي فقل : لا أدري مَن تبسَّم ، فقلتُ أفعلُ . فلمّا كان من الغداة حُملتُ إلى باب السلطان فبرَّأت الخادمَ مما قيل ، ثمَّ بعثَ[2] السامانَ بثلاثين ديناراً... فلُقِبتُ بالحَصيريّ... »[3] .

ومن الطبيعيّ أن أقول : إنَّ من وُكِّلَ بمجلس الحافظ القشيري لم يُوكَّل بمن يبتسم فيه فيؤذي ابتسامُه الحافظَ ؛ وإنَّما وُكِّلَ به لينقل كلَّ ما يدور في المجلس حتى ولو كان ابتسامةً .

وإذا كان الحافظ القشيري لم يكن يعلمُ أنّه قد وكِّلت العيونُ بمجلسه ؛ فقد بلغ الحلاّج من العِلم بحيث قال :

... من بعدِ ما حضرَ السجّانُ ، واجتمع الـ
أعوانُ ، واختطَّ إسمي صاحبُ الخبرِ[4]

أما مراقبة وجوه الناس ، وذويهم ، فحسبنا منها ما رواه الجاحظ ، قال :

---

(١) في الأصل : وأنهى ، وهو وهم .

(٢) في الأصل : ثم بعث ، وهو تصحيف لا يستقيم به المعنى .

(٣) أدب الإملاء والاستملاء ، ٢٢٣–٢٢٤ . وتنظر ترجمة الحافظ القشيري في الوافي بالوفيات ٣ : ٦٨ .

(٤) ديوان الحلاج : ٤٠ .

«نصبَ ابنٌ لمحمد بن إبراهيم كاتب ابن أبي دواد فَخّاً على ظهر الطريق إلى جنب حائطٍ ، فجاء بعضُ الأتراك فبالَ في موضعِه ، فلمّا أراد أن يمسحَ نظر إلى نَبَكَةٍ مرتفعةٍ ، فتمسَّح بها ؛ فوقع الفخُّ في ذَكَرِه ، وخصيتِه [كذا] وظنَّ التركيُّ أنه أفعى ، فمرَّ يعدو ، وابنُ محمَدٍ يعدو خلفه ويصيحُ : فخّي فخّي ، والتركيُّ يقول : فخُّ أيش ويلك ؟ فاجتمع الناسُ فخلّصوا خصى التركيِّ من الفخِّ ، وكتب بذلك صاحبُ البريدِ إلى المعتصم ، فلمّا دخلَ ابن أبي دواد قال له : من كاتبُك الذي يصيد ابنُه خصى الأتراك بالفخاخ ؟...»[١] .

ولم تكن مراقبة هؤلاء سواء أكانوا من المثقفين أم من المعارضة السياسيّة لتقف عند من هم طليقو السراح ؛ وإنما كانت هذه المراقبة تتمُّ في السجون أيضاً ، فقد وكّل الرشيد بأبي العتاهية من يكتب إليه بأخباره في الخبر الذي مرَّ بنا آنفاً ، وأبو العتاهية في السجن . ولعلّه يتبادر إلى ذهن أحدٍ أن يقول : إنَّه إنَّما وكّل به ليمتحن ولاءه بعد سجنِه ، فيكون في هذا شيءٌ من الصحة ، أو يكون فيه الصحّةُ كلُّها . ولكنَّ ما لا يدخلُ في باب امتحان الولاء ما فعله الخليفة المعتز في سنة : ٢٥٨هـ فقد روى محمد بن أحمد العياش في كتابٍ له لا نعرف من أمره اليوم شيئاً قال : «كان أبو هاشم الجعفريّ حُبِسَ مع أبي محمد (ع) ، وكان المعتزُّ حبسهما مع عدّةٍ من الطالبيين ، قال : حدثّنا أحمد بن زياد الهمداني ، عن عليّ بن إبراهيم بن هاشم ، عن داود بن القاسم قال : كنتُ في الحبس المعروف بحبس خشيش في الجوسق الأحمر أنا والحسن بن محمد العقيقي ، ومحمد بن إبراهيم العمري ، وفلان ، وفلان ، إذ دخل علينا أبو محمد الحسنُ [هو الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند الشيعة الإمامية] وأخوه جعفر ، فحففنا به ، وكان المتولّي لحبسه صالح... وكان معنا في الحبس رجلٌ جُمحيٌّ يقول : إنّه علويٌّ ، قال ، فالتفتَ أبو محمد فقال : لولا أن فيكم مَن ليس منكم لأعلمتكم متى يُفرج عنكم ، وأومأ إلى الجمحيِّ أن يخرجَ فخرجَ ؛

(١) نثر الدُّر ٧ : ٢٥٨ . والنبكة : تلٌّ صغير فيه حجارة ، أو هي ربوةٌ من طين .

فقال أبو محمد : هذا الرجلُ ليس منكم فاحذروه ، فإنَّ في ثيابه قصةً قد كتبها إلى السلطان يُخبرُه بما تقولون فيه ، فقام بعضُهم ففتَّش ثيابَه فوجد فيها القصّةَ يذكرنا بكلِّ عظيمة »[1] . فإذا آمنّا ـ كما يؤمن المسلمون كافةً وفي الصميم منهم الشيعةُ الإمامية ـ أنّه لا يعلم الغيبَ إلاّ اللهُ قُلنا : إنَّه لا بدّ أن يكون دَسُّ رجال المخابرات بين السجناء من رجال المعارضة السياسية رجالاً يتسقَّطون أمورهم قد أصبح من الشيوع والذيوع في أوساط المعارضة بحيث شكَّ الإمام الحسن العسكريُّ بهذا الجُمحي الذي يدّعي النسبَ العلويَّ ، فبلغَ الشكُّ في نفسه أن قال ما قال .

ولم يكن يُكتفى بمراقبة رجالِ المعارضة السياسيّة وحدَهم ، لمعرفة أخبارِهم ؛ وإنَّما كان يجري مراقبة الصيارفة ، باعتبارِهم سبيلاً من سبُل جمع الأموالِ لهذا الثائر أو ذاك تحت ستار جمع الزكاة[2] ، وكانت هذه المراقبة تجري باتّخاذ بعض الصيارفة جواسيسَ على زملائهم ؛ فقد رأينا أبا جعفر المنصور قد اتَّخذ من ابن مقرن الصيرفي عيناً على أهل الكوفة يطمئنُّ إلى حُكمه عليهم[3] .

ولكن هذه الحال قد تغيَّرت أثناء ضعف الخلافة العباسيّة فصار من شأن الجهاز أن يراقب الناس كافةً ، وكأنَّ كلاً منهم هو مشروع خَطرٍ على الدولة ؛ فقد رُفع إلى الخليفة المقتدرِ أن مسجد براثا يجتمع « فيه قومٌ ممن يُنسبُ [كذا] إلى التشيّع ، ويقصدونه للصلاةِ والجلوس فيه... لسبِّ الصحابة ، والخروج عن الطاعة ؛ فأمرَ بكبسِه يوم جُمعةٍ وقت الصلاة ، فكُبِسَ ، وأُخِذ من وُجد فيه ، فعوقبوا وحُبسوا حبساً طويلاً ، وهُدِم المسجدُ حتّى سُوِّي بالأرض ، وعُفِّي رسمُه ، ووُصل بالمقبرة التي تليه »[4] .

---

(١) بحار الأنوار ٥٠ : ٣١١-٣١٢ نقلاً عن موسوعة الاستخبارات ٣ : ٣٥٨ .

(٢) ينظر خطط الكوفة : ٢٤-٢٥

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٧ : ٦٢١ (طبعة أبو الفضل إبراهيم) .

(٤) خطط بغداد : ١١٣ .

وقد كان الأمير بجكم قد رغِب إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصوليّ أن يجلس في المسجد الجامع ، وكانا بواسط ، للناس يُقرئهم في يوم الجمعة . قال الصوليُّ : «ففعلتُ... فقال لي يوماً : أتدري ما كتب به أصحابُ الأخبارِ ـ وما رأيتهم قطُّ مع أحدٍ أكثر منهم معه ـ ففزعتُ والله ، وقلتُ : وما هو أيَّد الله الأمير ؟ قال : طلبتُك فلمّا قمتَ من المسجد قالوا بعدَك : أعجَله الأميرُ ولم يَتِمَّ مجلسنا . أفتراهُ يقرأ عليه شِعراً أو نحواً أو يسمع منه الحديث»[1] .

وبمقدار ما يمكن أن يدلَّ الخبرُ على ما سبق أن قرَّرناه من أنَّ مجالس العِلم كانت تحت الرقابة يمكن أن يدلَّنا بالقدر نفسِه أن العامّة أنفسهم كانوا مراقبين أيضاً . وإلاّ فإنَّ بجكم هو الذي طلب من الصوليِّ أن يجلس للناس فما معنى أن يراقبه ، وإنَّ الصوليَّ يعلمُ بما لبجكم من جهازٍ أقسم أنه لم يرَ أكفأ منه عند سواه ، فما معنى أن يُخدَع عن المراقبة ، أو أن يُحسِن الظنّ بها ؟

وإذا كان في هذا الخبر ما يُختَلفُ قليلاً على دلالته فلا أظنُّ أنَّ أحداً يختلف معي فيما رواه ابنُ الأثير من قولِه عن خلافة الظاهر بالله الذي ولي الخلافة بعد أبيه الناصر لدين الله من : «أنَّ العادة كانتْ ببغداد أن الحارس يُبكِّرُ بكلِّ دربٍ ، ويكتبُ مطالعةً إلى الخليفة بما تجدَّد بدربه من اجتماعِ بعض الأصدقاء ببعضٍ على نُزهةٍ ، أو سماعٍ أو غير ذلك ، ويكتبُ ما سوى ذلك من صغير وكبير... فلمّا وليَ هذا الخليفة... أتته المطالعاتُ على العادة ، فأمر بقطعها ، وقال : أيُّ غرضٍ لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم ؟ فلا يكتب أحدٌ إلينا إلاّ ما يتعلَّق بمصالح دولتنا»[2] .

بل لقد جرَّأ الناصر لدين الله العبّاسي جهاز مخابراتِه بحيث صار هو يضجرُ من ضحالة بعض الأمور التي يكتبون بها عن العامّة ؛ فقد كُتب إليه ذات يوم : «أن رجلاً ببغداد عمِلَ دعوةً ، وغسل يدَه قبل أضيافِه ، فطالع صاحِبُ الخبرِ

(١) أخبار الراضي والمتّقي : ١٩٤ .

(٢) الكامل في التاريخ ٧ : ٦٢٣ .

الناصر بذلك ، فكتبَ :... سوء أدبٍ من صاحب الدار ، وفضولٌ من كاتب المطالعة »[١] .

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ العامة لم تكن بمثل خطورة المعارضين السياسيين . ومن هنا كان من مهمّات الجهاز اغتيالُ من يُقدّرُ أنَّ في حياتِه خطراً من رجالِ المعارضة السياسية على الخلافة ، على أنَّ هذه الاغتيالاتِ لم تلزمْ حالةً واحدةً ـ كما هي طبيعة الأمور ـ ولا طريقةً لا تحيد عنها . فقد اغتال أبو جعفر المنصور أبا الجهم ـ ولعلّه أبو الجهم بن عطية مولى باهلة وكان من خَواصِّ أبي مسلم الخراسانيِّ ـ بأنْ دسَّ « إليه سَويقَ اللَّوْز ، فشربه ومات... »[٢] فكان المنصور من الفرح بموتِه بحيث قال ساخراً :

تجنَّبْ سويقَ اللوزِ لا تشربَنَّه
فشربُ سويقِ اللوزِ أردى أبا الجهمِ[٣]

ودسَّ المنصورُ نفسُه إلى وليِّ عهده ـ بموجب وصيّة الهادي ـ عيسى بن موسى بعد أن امتنع عليه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنه المهديِّ ، أقول : دسَّ له بعضَ ما يُتلِفه مما لا نعرفه ، فاستأذن عيسى المنصورَ أن ينحدر إلى الكوفة ليتعالج بها ، وكان الذي نصحه بذلك الطبيب بختيشوع ؛ لأنه عرّف ما به ـ على ما يبدو ـ ولأنه كان خاف أن يُعالجه ببغداد . أقول : لا نعرف ما الذي دسَّ المنصور لوليِّ عهده ؛ ولكننا نعرف أنّه صار يتساقط منه شعرُه . ولستُ أشكُّ في أنَّ المنصور قد سقاه مادّة لا يبعد أن تكون مادّةً كيمياويةً سامّةً لا يظهر تأثيرُها إلاّ بعد حين أدَّت إلى تساقط شعرِه ، وإلى اختلال سمعِه ، وبصرِه قبل موته ؛ ويمكن أن يدلنا على ذلك قولُ يحيى بن زياد البرجمي ، وقد رآه عندما ورد الكوفة :

---

(١) تاريخ الخلفاء : ٤٤٨ ، نقلاً عن نُظم الاستخبارات : ١٢٧ .
(٢) تلقيح العقول : ٥٤ و (نسخة ليدن) .
(٣) نفسه .

أفلتَ من شربةِ الطبيبِ كما أفلتَ ظبيُ الصَّريمِ من قَتَرِه
... حتى أتانا وفيه داخلةٌ تُعرَفُ في سمعِهِ وفي بَصرِه
أزعرَ قد طارَ عن مفارقِهِ وَحْفُ أثيثِ النباتِ من شَعَرِه[1]

ويبدو أنَّ الخلفاء العباسيين كانوا يتفنّنون باستعمال السمّ ، فهو قد يكون في سويق اللوز ، أو في شربة طبيبٍ ، وقد يكون بغير هذين كما رأينا في خبر سمّ إدريس بن عبد الله العلويّ ؛ فقد دسَّ الرشيدُ الشمّاخَ إلى إدريس ، وكتب له كتاباً إلى عاملِه على إفريقية إبراهيم بن الأغلب ، حتى إذا وصل الشمّاخُ إلى المغرب « ذكر أنّه مُتطبّبٌ ، وأنه من أوليائهم ، ودخل على إدريس فأنس به واطمأنّ إليه ، وأقبل الشماخُ يريه الإعظامَ له ، والميلَ إليه ، والإيثار له ؛ فنزل عنده بكلّ منزلةٍ ، ثمّ إنه شكا إليه علّةً في أسنانه ، فأعطاهُ سَنُوناً مسموماً قاتلاً ، وأمرَه أن يستنَّ به عند طلوع الفجر لليلته ، فلما طلع الفجرُ استنَّ إدريسُ بالسَّنُون وجعل يُردُّه في فيه ويُكثِرُ منه فقتَلَه . وطَلَبَ الشماخَ فلم يظفر به ، وقدِم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره بما كان منه ، وجاءته بعد مقدمه الأخبارُ بموتِ إدريس ؛ فكتب ابنُ الأغلب إلى الرشيد بذلك ، فولّى الشماخ بريدَ مصر وأخبارَه... »[2] .

واغتيالُ إدريس عمليةٌ معقّدةٌ تستدعي أكثر من تساؤل ، لعلَّ أهمَّها هو معرفةُ الرشيد عن طريق جهاز مخابراتِه ـ وكان عليه عبد الله بن مصعب[3] ـ أن أسنان إدريس مُرشّحةٌ للشكوى ، مما يجعلنا نظنُّ أنه لم يكن من وظائف جهاز المخابرات مراقبة النشاط السياسيّ لهذا المُعارض أو ذاك فحسب ، وإنّما مراقبة كلّ ما يمكن مراقبته فيه ، ثم حفظ ذلك إلى وقت الحاجة .

فإذا صحَّ هذا صحَّ معه أن أستنتج أن من بين المعلومات التي جمعها الجهازُ عن إدريس العلويّ المعلومات التي تتعلّق بصحةِ أسنانِه ، وأن هذه المعلومات لم

(١) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣ .
(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٤١٦ . والسَّنون : شيءٌ تُنظّف به الأسنان كالمسواك .
(٣) ينظر السابق ٦ : ٤٩٢ .

تكن معلوماتٍ شفويّة ، وإلاّ لصعُب الرجوع إليها ، والاستفادة منها ، وإنما هي - كما أُرجّحُ - معلوماتٌ مُدوّنةٌ في إضبارةٍ خاصّةٍ به . ولعلّ معنى قول الحلاّج الذي سبق : «واختطّ إسمي صاحبُ الخبرِ» هو هذا ؛ وإلاّ فما معنى كتابة اسمِه إن لم يكن معناه فتحُ ملفٍّ له يُدوّنُ فيها نشاطُه ؟

ولعلّ مما يدلّنا على هذا شيئان أوّلهما أن التقارير المرفوعة عن هذا أو ذاك لا تكون شفويةً وإنّما مكتوبة[1] ، وثانيهما أنني رأيتُ أنّ هنالك إضبارةً خاصّةً بالوزير أبي الحسن عليّ بن الفرات ، وأخيه أبي العباس أحمد مما رُفِع عنهما من أخبار[2] ، فلمَ لا تكون لسواهما إضبارات ؟

هذا إلى نظام الأرشيف - كما نصطلح عليه اليوم - لم يكن غريباً على الحضارة الإسلامية ؛ فقد كان هنالك ما يُعرف بالأسكدار ، وهو ما نصطلح عليه اليوم بسجّل الصادرة والواردة[3] ، وكان هنالك أيضاً خزانة الحجج ، وهي الخزانة التي تودَع بها الأوراق الرسمية الهامّة[4] ، وإن عجبتَ فَعَجبٌ أنّه كان هناك أرشيفٌ لرؤوس القتلى الخارجين على الخلافة العباسيّة يُسمّى بخزانة الرؤوس ، تُحفظُ فيه رؤوسُهم بعد أن تُقطعَ ، وتنظَّف ؛ ونعرف من بين الرؤوس التي حُفِظت فيها رؤوس : مؤنس المُظفّر ، وبُليقٍ ، وعليّ بن بُليق[5] .

وتساؤل آخرُ هو أتُرى أنه كانت في جهاز المخابرات شعبةٌ كيمياوية يديرها أناسٌ متخصّصون يستطيعون بتخصُّصهم أن يُشربوا السواكَ العادي مادّةً سامّةً قاتلةً ، ثمّ لا يتنبّه من يستعمِله إلى اختلافٍ في طعمِه يجعلُه يشكُّ في أمرِه .

أراني أميل إلى هذا يدفعني إليه أنّني رأيتُ يحيى بن زياد قد تحدّث عن

---

(١) ينظر الوزراء : ٤٨ ، على سبيل المثال ، ورسوم دار الخلافة : ٧٢ .

(٢) ينظر الوافي بالوفيات ٨ : ١٣٢ .

(٣) أشياء من اللغة المولدة في القرن الرابع الهجري : ٥ .

(٤) تاريخ البيهقي : ٨٨ .

(٥) ينظر الكامل في التاريخ ٥ : ١٤٧ .

سمَّ عيسى بن موسى بشربةٍ من طبيبٍ[1] ، فإذا كان هذا الطبيب أو ذاك قد يسَّر إلى أبي جعفرٍ المنصور أن يسمَّ أحدَ من يقفون في طريق خلافة ابنه المهديِّ فما الذي يمنع أن يستعين الجهاز ببعض الأطباء والكيمياويين يُنفّذون له ما يُطلَب منهم من تحضير السموم ؟

ويلفِتُ النظرَ أيضاً أن أوامر الاغتيال تكون شفويّةً غير مكتوبة ، فقد أمر الرشيدُ شمّاخاً أمراً شفويّاً باغتيال إدريس . ولعلّ ذلك فضلاً عن ضمان السريّة احتياطٌ لهيبة الدولة فيما لو أخفقت المحاولة ؛ فثمّة فرقٌ كبيرٌ بين أن يقال اعترف شمّاخٌ أنّ الرشيد قد كلّفه بالاغتيال ، وأن يكون هنالك كتابُ تكليفٍ رسميٌّ بالاغتيال . ومن هنا رأينا أن شمّاخاً لم يُخبِر ابن الأغلب ـ رغم أنه عاملُ الرشيد ـ إلاّ بعد أن نجحت مهمّة الاغتيال أو كادت ، مما جعل الرشيد يتبنّاها يُخوّف بها خصومه[2] .

ويمكن أن يدلّنا على هذه السرّية المطلقة في تنفيذ مثل هذه المهمات وما أشبهها ماخاطبَ به الرشيدُ السنديَّ بن شاهك ليلة نكبة البرامكة يأمره بتطويق دُورِهم ؛ إذ قال له : «قد بعثتُ إليك في أمرٍ لو علِمَ به زرُّ قميصي رميتُ به في الفرات...»[3] .

ولجأ الرشيدُ إلى طريقة أخرى في التخلّص من المعارضة السياسيّة هي قتلهم خلسةً وهم في السجن ، فقد دعا بيحيى بن عبد الله العلويّ من سجنه ؛ فلما جاءه قال له الرشيدُ : «هِيه ، هِيه مُتضاحكاً : وهذا يزعُم أيضاً أنا سممناه ؛ فقال يحيى : وما معنى يزعُمُ ؟ هاهو لساني... وأخرجَ لسانَه أخضر مثل السِّلقِ... فتربّد وجهُ هارون...»[4] .

---

(١) من الأطباء الذين استعان بهم المنصور في سم خصومه طبيبٌ نصرانيٌّ اسمه : الخصيب . ينظر الطبري ٦ : ٣٢٨ .

(٢) ينظر الاغتيالات السياسية في العصر العباسي ، مقال في مجلة المدى : ١٢٣ ، ع : ١٠ ، في ١٩٩٥/٧/١ .

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٤٩٣ .

(٤) السابق ٦ : ٤٥٢ . ويُروى أنّ الإمام موسى الكاظم مات مسموماً في سجن الرشيد . ينظر وفيات الأعيان ٥ : ٣١٠ .

ويلفتُ النظر مرّة أخرى في الخبرِ أنَّ أمر هارون في سمِّ خصومه قد بلغ من الذيوع بحيث يضطر الرشيدُ أن يلجأ إلى مثل هذه الأساليب في تكذيبه ، ثمَّ لايكون ذلك داعياً ليحيى أن يحترس من تناول شيءٍ ما وهو في سجنِه ، فهل ترى أن الشعبة الكيمياوية ـ كما تخيَّلتُها ـ كانت من البراعة بحيثُ لا تترك تركيباتُها الكيماوية في تحضير السُّمِّ طعماً يكون من شأنه أن يلفظه المرءُ أوّل تناوله ؟

أراني أميل إلى ذلك ، ويقوي من هذا الميل في نفسي ما قدَّمه الحسن بن عبد الله من وصايا لأصحاب السلطان حين قال : « ينبغي للملك أن يتَّخذ عنده ما يدلُّ على السموم إن حضرتْ في الأطعمةِ ، وغيرِها وما يُبطلُها ، أو يُنقِصُ قواها قبل تأثيرها ، وما يدفعُ مضرَّتها بعد تناولها... وأما من سُقيَ شيئاً من السموم المعدنية ، أو النباتية ، أو الحيوانية فعلاجاتها مشروحةٌ في كتب الطبِّ... »[1] .

ومن وظائف الجهاز تشويه سمعة المعارضة السياسيةتشويهاً قد يضمنُ نُفرةَ العامّة منها فإن لم يكن فلا أقلَّ من عدم الاهتمام بها منهم . ويمكن أن نضرب على ذلك مثلاً بما وقع للحلاّج ، فقد وضع تحت الرّقابة « سنتين بتهمة القرمطة ، وشُهِر في بغداد بحبلٍ مدّة ثلاثة أيامٍ فضحاً له وتعزيرا ، ولما أثبت التحقيقُ أنه كان يعمل لحسابه خيف من قتله ، وثورة أنصاره فسُجن في دار السلطان في بنايةٍ شيدت خصيصاً له ، وسُمِح للناس بزيارتِه في سجنِه ، ففاز بإعجاب الكثير بمن في ذلك نصر القشوريّ حاجب الخليفة المقتدر »[2] . ولكنَّهم لمّا عزموا على قتله أشاعوا ما نقرأه من إشاعاتٍ تردّدها كتب التاريخ على أنه مما نُقِل للوزير حامد ابن العباس من أنه إلهٌ يُحيي الموتى ، وأنه أجاز الحجَّ إلى

---

(١) آثار الأول في ترتيب الدول : ٢١١-٢١٢ . ومن عجائب الاغتيالات ما رواه ابن الأثير عن محاولة اغتيال الخليفة الفاطميّ الحافظ وزيرَه أبا عليٍّ ، فقد « وضعَ له فرّاشُه في بيت الطهارة ماءً مسموماً ، فاغتسل به » الكامل ٦ : ٦٢٧ .

(٢) ديوان الحلاّج : ١٨ .

غير الكعبة[1] ، وأنه كان «ادّعى للناسِ أنه إلهٌ وأنه يقول بحلول اللاهوت في الأشراف من الناس... »[2] .

ويمكن أن نقيس ـ دون أن نخوض في التفصيلات ـ على ما لحق سمعةَ الحلاّج من تشويه دافع عنه أبو حامد الغزاليُّ في مشكاة الأنوار ، وابنُ سريج فيما نقل عنه تلاميذُه[3] أقول : يمكن أن نقيس على ما لحق بسمعة الحلاج من تشويه ماالتصق بسمعة الخوارجِ وثوّارهم ، والشيعة وثوّارِهم ، وابن أبي العزاقر ، وهكذا مما لا أريد التطويل فيه .

ولعلّ جهاز المخابرات لم يكن يُدرِكُ أنّ هذا التشويه وحدَه لا يكفي في إبعاد العامّة عن المعارضة ؛ لأنّ لهؤلاء العامة من المصالح الطبقيّة ما يجعلُهم ضدّ الحاكم سواءٌ أشُوِّهتْ المعارضة أم لم تُشوَّه ؛ فإذا أدركنا هذا أدركنا وصيّة الخليفة المعتضِد إلى وزيرِه عبيد الله بن سليمان ، وقد بلغه أن «طائفةً من الناس يجتمعون بباب الطاق ، ويجلسون في دكّان شيخٍ تبّانٍ ، ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنونٍ من الأحاديث... [أنْ] وجِّهْ صاحبَكَ [يقصد صاحبَ الجهاز] وليكن ذا خبرةٍ ورفقٍ ، ومعروفاً بخيرٍ وصدقٍ ، حتى يعرف حال هذه الطائفة ، ويقفَ على شأن كلِّ واحدٍ منها في معاشه... فمن كان منهم يصلح للعمل فعلِّقه به ، ومن كان سيء الحال فَصِلْه من بيت المال بما يُعيدُ نُضرة حالِه ، ومن لم يكن من هذا الرَّهط وهو غنيٌّ مكفيٌّ... »[4] فَهَدِّدْه بالموت .

وأخذ الوزير بنصيحة الخليفة في معالجة الأمر ؛ فكان أعجبَ ما في هذه المعالجةِ أن اتُّخِذَ التبّانُ نفسُه عيناً على أصحابه يبلِّغُ الجهاز بأحوالهم ، وبأحاديثهم .

---

(١) ينظر الكامل في التاريخ ٥ : ٧٠-٧١ . وينظر ما شوِّهت به سمعة محمد بن أبي العباس السفاح ـ خصم المنصور ـ في تاريخ الطبري ٦ : ٣٢٨ ، تمهيداً لقتله بالسم .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ١٤٢ ، وكان ذلك منه كما يزعمون في سنة ٢٩٩ أي قبل أن يُعدَم بعشر سنين مما يدلُّ أن الدولة كانت تُعِدُّ لإعدامه ، فتمهّد إلى ذلك بتشويه سمعتِه عند العامّة .

(٣) السابق : ١٤٠ ، ١٤٤ (حاشية المحقق) .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ١٠٧-١٠٨ .

ومن وسائل التقليل من أهمية المعارضة التكتُّم على ما تقوم به من نشاطٍ سياسيٍّ ؛ فمن ذلك ما روي من أنَّ هذه المعارضة قد وزّعت ـ بلغتنا المعاصرة ـ منشوراتٍ سياسية في بغداد تحدَّث عنها صاحب جهاز المخابرات في عهد الخليفة المأمون إبراهيم بن السنديّ فقال : « وجدنا رقاعاً في طرُقات بغداد فيها شتمٌ للسلطان ، وكلامٌ قبيحٌ فكرهتُ رفعها على جهرتِها لما فيها ، وكرهتُ أن أطوي ذكرَها وأنا صاحبُ خبرٍ ، فينقلها [كذا] من جهةٍ أخرى فيلحَقُني ما أكرهُ ؛ فكتبتُ : إنّا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعاً فيها كلامُ السفهاء والسفلة ، وفيها تهديدٌ ووعيدٌ ، وبعضها عندنا محفوظةٌ إلى أن يأمر فيها أميرُ المؤمنين بأمرِه . فكتبَ إليَّ بخطِّه : هذا أمرٌ إنْ أكبرناهُ كثرغـمُّنا به ، واتَّسع علينا خرقُه . فَمُرْ أصحابَ أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعةً أن يُمزِّقوها قبل أن ينظروا فيها ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك لم يُرَ لها أثرٌ ولا عينٌ... »(١) .

ومن مهمّات الجهاز التهويل من شأنِه ، والتضخيمُ في حجمِه ، والمبالغة في قدراته ممّا يلقي في روْع المعارضة أنّه جهازٌ لا يُقهَر ، ولا يُختَرَقُ وأنه يعلمُ بكلِّ شيءٍ .

ومن هنا رأينا لهذا الجهاز نشاطاتٍ يُمكنُ أن نُسمِّيها نشاطاتٍ استعراضيّة ؛ فمن ذلك مارُويَ من أنَّ أحد جواسيس عضد الدولة البويهيِّ ذكر له ـ ويبدو أنه كان في مهمّة تجسُّسيةٍ بمصر ـ « في جملة ما أخبرَ به أنّه تقدّمَ إلى شيخٍ حلاويٍّ في زقاق القناديل بمصر فدفعَ إليه درهماً تاجيّاً ليبتاع به شيئاً مما بين يديه ؛ فردَّه عليه وتنازعا فيه ، فشتَمه وشتم الآمِرَ بضرب الدرهم [وهو عضد الدولة] وأنه سأل عن اسم الحلاوي حتى عرّفه وسمّاه... »(٢) .

والخبر ـ كما هو واضحٌ ـ مما لا يؤبَه له ؛ لسببٍ يسيرٍ هو أن مصر لم تكن تحت نفوذ البويهيّين ، ولكنَّ عضد الدولة قرَّرَ أن يستغِلَّ هذه الحادثة

---

(١) بغداد : ٣٦-٣٧ .

(٢) ذيل تجارب الأمم : ٦٠ .

التافهة ليُشيع في مصر أمرَ قوّة جهازِه ، وأنه لا تخفى عنه خافية ؛ فبعث أحد الحلاويين الماهرين في صناعة الحلوى من بغداد إلى أحد جواسيسه في مصر ، ومعه كلمة السرّ ، ليتوصّل بذلك إلى أن يخدع الحلاويّ المصريّ فيجيءُ يرتزق ببغداد ، وإذ نجح مسعاه وجاء الشيخُ الحلاويُّ المصري إلى بغداد استدعاه هو وصاحبَه البغدادي إلى قصره فقال له : «أنت فلان بن فلان الحلاويّ ؟ قال : نعم ، قال : لا تخف ، وإن كنتَ قد أسأتَ إلى نفسك وجشّمتَها السفرَ عن منزلك بالفضول من قولِك وفعلِك ، فبكى الشيخُ بكاءً شديداً ، فتركه قليلاً ، ثم قال : ياهذا هبكَ رددتَ الدرهمَ الذي من ضَربِنا ، ولم تُحِبَّ أخذَه من الرجل الغريبِ الذي وقف بك فما بالُكَ شتمتَه وشتمتَ الذي أمر بضربِه ؟ ولولا أن في تأديبك والفتك بك ـ وأنت شيخٌ غريب ولعلّ وراءك من يتوقّعُك... ـ لأمرنا بتأديبك وتقويمك . لكنا نهب جِنايتَك لمن خلَفَكَ من عيالِكَ ، وقد تقدَّمنا بإطلاق نفقةٍ لك تردُّك إلى بلدك فلا تُعاوِدْ مثل ما كان منك ، وتحدَّثْ في بلدِكَ بصفحنا عنكَ وعن جرمِك ومنّتنا عليك . فبكى الشيخُ حتى كاد يموت ، ولم يكن له لسانٌ يُجيبُ به ، وخرجنا... وأعطى الشيخَ ، وحملتُه إلى منزلي فأكرمتُه واستأجرتُ له ما ركبه في بعض القوافل إلى الموصل . فذُكرَ أن الشيخ لما عاد إلى مصر تحدّث بحديثه وشاعَ ذلك هناك ، فكان الغريب إذا جلس إلى بعض أهل البلد صاحوا : الحذر الحذر ، فتمسّك الناسُ عن ذكر عضد الدولة...»[(١)] .

ويمكن أن نلاحظ أنه لم يكن غرض عضد الدولة أن يتحدث الشيخ عن أنّه غفر له جرمَه ، ولا عن أنه أكرمه ؛ وإنما كان يريد أن يتحدّث بعلمه وهو في العراق أن هنالك رجلاً بمصر شتمَه . ومهما يكن في أمرٍ فقد زرع عضد الدولة الرُّعبَ في قلوب المصريين . وكانت العملية برمّتها رسالةً إلى من يُعارِضُه في أنه يعلم كلّ شيء ، وأنه لا يتهاون في شيء .

(١) ذيل تجارب الأمم : ٦٣-٦٤ .

ويدخل في باب التهويل من شأن الجهاز المجاهرة بما أنجزَ فمن ذلك «أنَّ المنصور لما أخذ عبد الله بن حسن وإخوتَه... صعد المنبرَ... ثمَّ قال :... بلغني عن بعضهِم بعضُ السقم والتعرّم ، وقد دسستُ لهم رجالاً فقلتُ : قم يا فلان ، قُم يا فلان فخذْ معك من المال كذا ، وحذوتُ لهم مثالاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسّوا إليهم تلك الأموالَ ؛ فوالله ما بقيَ منهم شيخٌ ولا شابٌ ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ إلاّ بايعهم بيعةً استحللتُ بها دماءهم وأموالَهم ، وجلَّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة... فلا يرون أني أتيتُ ذلك على غير يقين... »[1] .

وأبو جعفر المنصور يكذبُ ويعلمُ أنه يكذبُ ؛ فقد خرج الناس مع بني الحسن بفتوى الإمام مالك بن أنس ؛ إذ أفتاهم بأنَّهم با يعوا أبا جعفرٍ مُكرَهين وأن «ليس على مُكرَه يمينٌ»[2] ، وأنه قد بلغ من العَسف والقمع والجور بحيث صادَرَ أموال العلويين حتى روي أنه صادر ما لجعفر الصادق من مال ، «فلمّا قدم المنصور المدينة قال له جعفر في معنى مالِه ، فقال : قبضها مهديُّكم»[3] يعني بالمهديِّ محمد بن عبد الله ؛ فقد كان يُعرَف بذي النفس الزكيَّة ، وبالمهديّ .

وإذاً فأبو جعفر كاذبٌ ، ولكنَّه قال ما قال لا ليدافع عن نفسِه في اضطهاد العلويين ، وإنَّما ليبلِّغ المعارضة بقوّة جهازه الذي لا يخفى عنه شيءٌ . ولا أدلَّ على ذلك من أنَّه لمّا جيء بآل الحسن إليه من المدينة نظر «إلى محمد بن إبراهيم بن حسن ، فقال : أنت الديباجُ الأصفر ؟ قال : نعم ، قال : أما واللهِ لأقتلنَّكَ قِتلةً ما قتلتها أحداً من أهل بيتك ، ثمَّ أمرَ بإسطوانةٍ مبنيَّةٍ ، فَفُرِّقتْ ثمَّ أُدخِلَ فيها فبَنى عليهِ وهو حيٌّ»[4] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٣٥ .

(٢) الكامل في التاريخ ٣ : ٥٦٥ .

(٣) السابق ٦ : ٥٧٣ .

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ . وينظر الكامل في التاريخ ٣ : ٥٦٢ .

ولا بدّ أن مثل هذا التفنُّن في الوحشيَّة لم يكن مقصوداً لذاتِه بدليل أنه لم يقتل إخوة الديباج وأهل بيته هذه القِتلة الشنيعة وإنما اكتفى بدسّ السمّ ـ على إحدى الروايات ـ إليهم وهم في سجنه[1] ، مما يُرجّحُ الرأي بأن قتله كان قتلاً استعراضياً القصدُ منه تخويف المعارضة .

ويدخل في باب استعراض قوّة الجهاز مراقبةُ العامة من الناس في شؤون معايشهم ، ولم يكن يخشى أصحابُ السلطان هؤلاء العامّة في شيءٍ بمقدار ما يخشون أن يُهملوا مراقبتَهم فيستقرَّ في أذهانهم أنهم بعيدون عن أنظار أولي الأمر ؛ مما يُهيِّئهم أن يكونوا من أنصار المعارضة ؛ فمن ذلك ما روي من أنَّ « فلاناً العقيليَّ اعترضَ سفينةً من سفُنِ المعادن وهي مُصعِدةٌ ، والتمس بعضَ المدّادين قطعةً من شاروفةٍ فأخذها قهراً من صدرِه... »[2] ، وكتب صاحبُ الخبر بالأمر بعد أن اعتقله فورد عليه الكتابُ أن يُطالبَه « بالشاروفةِ التي أخذها ، فإذا أحضرها خُنِقَ بها في الموضعِ الذي أخذها... »[3] .

ولا أظنُّ أنَّ حبلاً أُخِذَ بالقوّة يستحقُّ أن يُعدمَ ـ لولا استعراضُ القوّة ـ آخذُه لا شرعاً ولا عقلاً ولكن المسألة لم تكن تخضعُ لا للشرعِ ولا للعقل ، وإنما كانت تخضع لحسابات السياسة .

ومن مهمّات الجهاز حفظُ هيبة الخلافة من طريق مكافحة ما يُشاعُ من أمرها على ألسنِ الناس ؛ مما قد يكون وراءه المعارضة ؛ فقد روي أنه « أبطأ المنصور عن الخروج إلى الناس والركوب ، فقال الناس : هو عليلٌ وكثَّروا ، فدخل عليه الربيعُ فقال : يا أمير المؤمنين ، لأمير المؤمنين طول البقاء ، والناسُ يقولون ، قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون : عليل... ثمّ مكث أياماً ، وقال :

---

(١) ينظر السابق : ١٨١ ، وينظر الكامل في التاريخ نفسه . وفيه : الديباج الأصغر .

(٢) ذيل تجارب الأمم : ٥٥ . والمدّاد هو الذي يمدّ للسفينة بحبل رسوّها ساعة إقلاعها . والشاروفة : الحَبلُ ، وليس الجبل كما تصحّف في المعجمات العربية . ينظر شذرات من اللغة المولدة . العرب : ١٦٥-١٦٦ .

(٣) نفسه ، وينظر أيضاً بغداد : ١٣-١٤ .

ياربيع ، اضرب الطبلَ ، فركب حتى رآهُ العامّة »[1] .

وفعل الخليفةُ القادر مثلَ ما فعل المنصور من قبلِه ؛ فقد مرِضَ في سنة : ٤٠٠هـ ، « واشتدّ مرضُهُ ، فأُرجِف عليه ، فجلس للناس وبيده القضيب... »[2] .

ومن وجوه حفظ هيبة الخلافة تأويلُ ما يقعُ لها تأويلاً بعيداً عن جوهر الحادثة ، فمن ذلك ما رُويَ من حادثة اغتيال الخليفة المعتضد سنة : ٢٨٤هـ رواية غامضةً ، فقد أُلقيت تلك المحاولة على عاتق الجنّ ، واستُدعي لها المُعزِّمون والسحرة[3] .

ومع هذا ، أرجو أن لا يظنّ أحدٌ أنّ مثل هذه الإجراءات سواء ما كان منها يتعلّق باستعراض قوّة الجهاز ، أو مكافحة الإشاعات كانت تنطلق من قوّةٍ ، أو كانت تدلُّ على قوّة بل على العكس من ذلك كانت تدلُّ على الضعفِ حيناً ، وعلى شيءٍ من قلّة الثقة بالجهاز حيناً آخر . إذ لم يكن هذا الجهاز ـ كما يريد أصحابُ السلطانِ أن يُصوّروه للناس ـ جهازاً فولاذيّاً لا يمكن أن يُختَرَق .

فمن آيات هذا الضعف أن رأينا أبا جعفرٍ النصور ـ وهو في أوجِ قوّتِه ـ ينامُ في غرفةٍ نستطيع أن نصفها بأنّها غرفةٌ سرّيةٌ بائسةٌ لا يعلمُ بمكانها إلاّ أهلُ بيتِه ؛ فقد ذكرَ عليّ بنُ محمد الهاشمي أن أباهُ محمد بن سليمان حدّثه قال : « بلغني أن المنصور أخذ الدواء في يومٍ شاتٍ شديد البردِ ؛ فأتيتُه أسألُ عن موافقة الدواء له ، فأُدخِلتُ مدخلاً من القصر لم أدخله قطّ ، ثمّ صرتُ إلى حُجَيرةٍ صغيرةٍ وفيها بيتٌ واحدٌ ورواقٌ بين يديه في عرض البيت ، وعرض الصحن على إسطوانة ساجٍ ، وقد سُدِلَ على وجه الرواق بواريّ كما يُصنع بالمساجد ، فدخلتُ فإذا في البيت مِسحٌ ليس فيه شيءٌ غيره إلاّ فراشُه ، ومرافقُه ، ودثارُه فقلتُ : يا أمير المؤمنين هذا بيتٌ أربأُ بك عنه ؛ فقال : ياعمّ ،

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٢٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٨٥ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٨ : ١٩١ ، والكامل ٤ : ٥٨٦ .

هذا بيتُ مبيتي ، قلتُ : ليس هنا غير هذا الذي أرى ، قال : ما هو إلاّ ما ترى »[1] .

ويكون من المضحك أن نظنَّ أنَّ المنصور قد اتَّخذ هذه الغُرَيْفةَ ـ وهو مريضٌ أحوج ما يكون إلى الرعاية من خدمِه وغلمانه وجواريه ـ زهداً بالدُّنيا ؛ لأنَّ الزاهد لا يكون بخيلاً ، وقد بلغ المنصور من شدَّة بخلِه أن سُمِّيَ بالدوانيقي ؛ وإنما يُخيَّل لي أنه اتَّخذها مبيتاً خاصّاً لا يعلم به إلاّ أهلُ بيتِه خيفة الاغتيال .

ولم يكن هاجسُ الاغتيال عند الخلفاء العباسيين ـ في الأقلّ ـ وسواساً ، وإنَّما كان هاجساً مبنيّاً على حقائق ؛ فقد تعرَّض المعتضد ـ كما رأينا قبل قليل ـ إلى محاولة اغتيال ، وكانت هنالك محاولة اغتيال لأبي جعفر المنصور خُطِّط لها أن تكون في أثناء حجه سنة : ١٤٠هـ[2] .

وجرت محاولة أخرى لاغتيال الخليفة المقتدر في سنة : ٣١٢هـ ؛ فقد ظهر في دار أم الخليفة المقتدر ، وكان الخليفة يكثِر الجلوس عند والدتِه ، « رجلٌ أعجميٌّ على سطح مجلسٍ من مجالسها ، وعليه ثيابٌ فاخرةٌ ، وتحتها مما يلي بدنَه قميصُ صوفٍ ومعه محبرةٌ ، ومقدحةٌ ، وسكّينٌ ، وأقلام ، وورقٌ . وحبلٌ . ويُقالُ إنه دخل مع الصُّناع ، فحصل في الموضع فبقي أياماً فعطش ، وخرج ليطلب الماء ، فظُفِر به ، وسئل عن خبرِه ؛ فقال : ليس يجوز أن أخاطب غير صاحب الدار . فأُخرج إلى الوزيرِ أبي الحسن بن الفرات ، فقال له : أنا اقوم مقام صاحب الدار فقل ما شئتَ ، فقال : ليس يجوز غير خطابه في نفسه ، ومسئلته عما أحتاجُ إليه ، فرفق به فلم يُغنِ الرِّفقُ ؛ فلما لم تكن فيه حيلةٌ أخذ الخدمُ يُقرِّرونه بالضرب والعنف ؛ فعدل عن الكلام بالعربية ، فقال بالفارسية : ندانم [بمعنى : لا أعرف] ، ولزم هذه اللفظة ، فلم يَزُل عنها في كلّ ما يُخاطَبُ

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٢٤ .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ١٦١-١٦٢ .

به ، وأُخرج فعوقِب حتى تلِفَ وهو لا يزيد عن : نَدانِمْ...»[1] .

ومن هنا رأينا الخلفاء ـ بصورة عامّة ـ قد اتّخذوا لهم حرساً يحمونهم مما يمكن أن يجري لهم على أيدي المعارضة ، فقد رأينا أن معاوية بن أبي سفيان هو أوّل من اتَّخذ له حرساً ، وتبعه على ذلك مَن بعدَه من أولي السلطان ، وتوسَّعوا في الحراسة فصار من مهمّات الحرس أن يُخلوا الأماكنَ التي يزورها الخليفة من الناس ؛ فقد روي عن الوليد بن عبد الملك أنه لما حجَّ بالناس سنة ٩٢هـ ، ودخل المدينة «غدا إلى المسجدِ ينظر إلى بنائه ، وأُخرج الناسُ منه ولم يبق غيرُ سعيد بن المسيّب لم يجرؤ أحدٌ من الحرس أن يُخرِجَه...»[2] .

ولم يشذَّ العباسيون في أمر الحراسة عمّا درج عليه الخلفاءُ الأمويون إن لم يكونوا زادوا عليهم ؛ فقدصار لهم جندٌ يحرسونهم ، ويمنعون الناس من الوصول إليهم فقد روي عن المعتصم أنّه كان «منصرفاً من المصلّى في عيد فطرٍ أو أضحى ، فلمّا صار في مُربَّعة الحرشيِّ ، نظر إلى شيخٍ قد قام إليه ؛ فقال : يا أبا إسحاق ، فابتدره الجندُ ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم فكفَّهم عنه...»[3] .

وكان لبعضهم فضلاً عن جند الحراسة رجالٌ يُسمَّون بالمطَرَّقة[4] ، وأحسبُ أنَّهم ـ واللفظةُ مولَّدةٌ لم تتناولها المعجمات العربية ـ الذين يُخلون الطريقَ للخليفة حفاظاً على سلامتِه ، وراحته .

وقد كنتُ قلتُ : إن استعراض القوّة كان يدلُّ على قلّة ثقةٍ بالجهاز ، أكثر مما يدلُّ على الثقة التامّة بقدراتِه ، وكان يدفعني إلى هذا القول ما رأيته من اختراق المعارضة بعضَ حلقاتِه ؛ فمن ذلك ما رأيته من أن محاولة اغتيال المنصور وهو في حجّه كان قد اتُّفق فيها مع أحد قوادّه شريكاً في المحاولة[5] .

---

(١) تجارب الأمم ٥ : ١١٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ٣ : ٢٠٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٢ .

(٤) السابق ٦ : ٤٣٠ .

(٥) السابق ٦ : ١٦٢ .

وكان يدفعني إليه أيضاً ما رأيتُه من محاولة اغتيال المعتضد بالله ؛ فقد «وكّلَ المعتضدُ بسور دارِه ، وأحكم السورَ ، ورأسةَ ، وجعلَ عليه كالبرابخ ؛ لئلاّ يقعَ عليه الكُلاّبُ إن رُميَ به ، وجيء باللصوص من الحبس ونوظروا في ذلك ، وهل يمكُن أحد الدخولَ إليه بنقبٍ أو تسلّقٍ»[1] . ولكن ظلَّ هذا الرجلُ الذي يحاول اغتيال المعتضد لغزاً يؤرِّقه ما يقربُ من شهرٍ رغم اتّخاذه كلَّ الإجراءات التي من شأنها أن تمنعه من دخول قصرِه . فإذا كان لهذا من معنًى فإنّه معنًى واحدٌ هو أن المعارضة قد اخترقتْ قصرَه بشراء واحدٍ من سكّانه ، وكلّفته أن يُقلِقَه لا أن يقتلَه[2] . وكأنها كانت تريد أن تقول له : إننا نستطيع أن نصل إلى حيث تأمنُ على حياتك .

ومن هذا الاختراق أن كاتب أبي جعفر المنصور على سرِّه ، أي كاتب عمليّاته المخابراتية ـ وكان متشيِّعاً ـ قد كتب إلى عبد الله بن الحسن أن الخليفة المنصور قد بثَّ عليه عيناً وحذَّره منه[3] .

وقريبٌ من هذا ما حدث لوالي المنصور زياد بن عبيد الله ـ وقد كلَّفه بالجدّ في طلب محمد ذي النفس الزكية ـ إذ كان له «كاتبٌ يقال له : حفص بن عمر من أهل الكوفة يتشيّع... يثبِّطُ زياداً عن طلب محمد...»[4] .

بل إنَّ إدريس بن عبد الله العلويَّ حين «أفلت من وقعة فخٍّ في خلافة الهادي ،... وقع إلى مصر ، وعلى بريد مصر واضحٌ مولى لصالح بن أمير المؤمنين المنصور ، وكان رافضياً خبيثاً فحمله على البريد إلى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة...»[5] .

---

(١) السابق ٨ : ١٩٠ .

(٢) ينظر : الاغتيالات السياسية في العصر العباسي ، المدى : ١٢٢ .

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ١٦٢ ، والكامل ٣ : ٥٥٥ .

(٤) الطبري ٦ : ١٥٨ .

(٥) السابق ٦ : ٤١٦ .

هذا إلى أن الجهاز حتّى من دونما اختراقٍ لم يكن يعرف ـ كما هي طبيعة الأمور ـ كلَّ شيءٍ ، وبحسبنا من هذا أن « وجّه كرامةُ بنُ مرٍّ من الكوفة بقومٍ مقيَّدين ذكرَ أنَّهم من القرامطة ، فقُرِّروا بالضربِ ؛ فأقرّوا على أبي هاشم بن صدقة الكاتب أنه منهم ، فقبض عليه... »[1] .

ومعنى مثل هذا الخبر أن الجهاز لم يكن قد اكتشف كلَّ خلايا تنظيم القرامطة ، وإلاّ لكان قد عرَف أنَّ ابن صدقة الكاتب منهم .

ومهما يكن من أمرٍ فقد كان على المعارضة السياسية أن تتقي الوقوع في فخاخ هذا الجهاز ، وكانت تتّقي ذلك فعلاً . أمّا طرقُها في اتّقائه وحماية تحركاتها منه فذلك ما نطمح أن نتعرَّف عليه في الفصل القادم .

---

(١) الكامل ٤ : ٥٨٦ .

الفصل الرابع

المعارضة وتفادي الجهاز



ليس هنالك من معارضة في الأرض تُحبُّ أن تكون فريسةً لجهاز المخابرات ، تلك بديهية تكاد تكون مضحكةً من بداهتها . ومن هنا كانت المعارضة أيّةُ معارضةٍ معنيّةً بتتبُّع أساليب الجهاز في ملاحقتها ، ومهتمّةً بمعرفة رجاله .

ولم تكن المعارضة الإسلاميةُ لتشذَّ عن هذه القاعدة ، ولو شذّت لما امتلأت صفحاتُ كتب التاريخ الإسلامي بأخبار هذا العدد الضخم من الفتن والاضطرابات والثورات .

ومن هنا كان للمعارضة أساليبها المضادّة للأساليب التي يتّبعها الجهازُ في الإيقاع بها ، وكان من أساليب جهاز المخابرات تتبّع حركة الأموال تستدلُّ بها على تعيين جهة الخطر القادم ؛ لأنّه لا يُمكن لحركةٍ سياسية أن تنجح في التغيير من دون أموال ، كان يدفعها المتمكّنون مالياً من أعضاء هذه الحركة أوتلك . لذلك رأينا في الفصل السابق كيف اتّخذ أبو جعفرٍ المنصور من ابن مقرن الصيرفي عيناً له في الكوفة .

ويبدو أنّ هذا الأسلوب إن كان غريباً على المعارضة في أوّل أمرِه ؛ فإنّه لم يَعُد كذلك ـ كما هو منطقيٌّ ـ بعد انكشاف أمر هذا المعارض أو ذاك بتهمة تسلّم أموالٍ باسم الزكاة أو باسم سواها . فقد روي عن الحسن بن الحسن العلويّ أنّه

وُشي برجلٍ إلى السلطان - وينبغي أن يكون ذلك السلطانُ هو المعتضد - يجبي الأموالَ «وله وكلاء ، وسمّوا جميع الوكلاء في النواحي ، وأنهي ذلك إلى عبيد الله بن سليمان الوزير ؛ فهمَّ بالقبض عليهم ، فقال السلطان : اطلبوا أين هذا الرجل ؛ فإنَّ هذا أمرٌ غليظ ، فقال عبيدُ الله بن سليمان الوزير : نقبضُ على الوكلاء ، فقال السلطان : لا ، ولكن دسّوا لهم قوماً لا يُعرَفُون بالأموالِ فمن قبضَ منهم شيئاً قُبِضَ عليه .

قال : فخرجَ بأن يُتقَدّم إلى جميع الوكلاء أن لا يأخذوا من أحدٍ شيئاً ، وأن يمتنعوا عن ذلك ويتجاهلوا الأمرَ ، فاندسَّ لمحمد بن أحمد رجلٌ لا يعرِفه وخلا به ، فقال : معي مالٌ أريد أن أُوصلَهُ ؛ فقال له محمد : غلطتَ أنا لا أعرفُ من هذا شيئاً ، فلم يزل يتلطَّفه ومحمد يتجاهل عليه . وبثّوا الجواسيس وامتنع الوكلاء كلُّهم لما تقدَّم إليهم»[1] .

وينبغي أن يكون الذي أمرَ بعدم قبض الأموال هو الإمام محمد بن الحسن العسكريَ أو أحد نوّابه بأمرٍ منه ؛ ولكن ما هو أهمُ من ذلك أن يكون هنالك في قصر الخليفة المعتضد مَن بلّغه بما دار بين الخليفة ووزيرِه فاحتاط لما دار بأن منع وكلاءه من قبض الأموال ؛ مما أفشل خطَّة الخليفة في القبضِ على أنصارِه .

ويمكنُ أن يدلّنا على مدى احتياط المعارضة في جمعها تبرّعات أنصارها ما رُويَ من «أنه وجّه محمد بن زيد العلويّ من طبرستان إلى محمد بن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينارٍ ليفرّقها على أهل بيتِه ببغداد ، والكوفة ، والمدينة ؛ فسُعي به إلى المعتضد ، فأُحضِرَ محمدٌ عند بدر ، وسئل عن ذلك فأقرَّ أنه يوجِّه إليه كلَّ سنةٍ مثل ذلك ، فيفرِّقه على من يأمره بالتفرقة عليه ؛ فأعلمَ بدرٌ المعتضد ذلك ، وأعلمه أن الرجل في يديه والمال ، واستطلع رأيه وما يأمر به»[2] فأمر المعتضد بإطلاقه ، والسماح له بتفريق المال .

(١) أصول الكافي ١ : ٥٢٥ الحديث رقم : ٣٠ نقلاً عن موسوعة الاستخبارات ٣ : ٢٤٩ .
(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٧١-١٧٢ .

ودع عنك حديث الرؤيا التي ترويها كتبُ التاريخ ، هذه الرؤيا التي تقول إنَّ المعتضد رأى الإمام عليّاً في منامِه ، وإنه أوصاهُ خيراً بأولادِهِ تجدْ أن الذي جعل المعتضد يسمحُ بإطلاق الأموال هو تأكّدُهُ من أنها صلةُ رحمٍ وليس شيئاً آخرَ ؛ وإلاّ فلم عجزت الرؤيا نفسها أو مثيلاتُها عن أن تجعله متساهلاً مع وكلاء محمد بن الحسن العسكري ؟!

وكان المبدأ الذهبيُّ عند المعارضة السياسية الحذر ؛ ولعلَّ شعارها في ذلك يكون قد تمثَّل بقول الإمام جعفر الصادق : « إذا كان الزمانُ زمانَ جورٍ ، وأهلُه أهلَ غدرٍ ، فالطمأنينة إلى كلِّ أحدٍ عجزٌ »[1] وواضحٌ أنَّ أهل الغدر في حديث الصادق هم أفراد جهاز المخابرات ؛ لأنَّ الرجل الساذَجَ يطمئنُّ إليهم فيبوح لهم ما في نفسِه على أنَّهم من أهل الثقة فيغدرون به بما يُنهون من أخباره إلى أولي الأمر .

ومن هنا كان من قول الإمام علي الهادي لداود الضرير ، أحدِ صحابتِه ، : « يا داود لو قلتُ لك إنَّ تارك التقيَّة كتارك الصلاة لكنتُ صادقاً »[2] ؛ مما يجعلني أعتقد أن التقية عند الصادق وسواه من أئمة الشيعة الإمامية « كانت تعني السرّية في التنظيم والاحتراس من الخصوم »[3] . وطبيعيٌّ أنَّ أعتى هؤلاء الخصوم هم أفراد جهاز المخابرات .

وبوحيٍ من هذا ينبغي أن نفهم الخلاف الذي استحكم بين جعفر الصادق والشيعة الزيدية ؛ فقد كان الزيدية يرون الخروج مع كلِّ ثائرٍ حتى بلغوا ألاّ يعدوا الإمام إماماً إذا لم يخرج على خليفة عصره الجائر ، مما كان يُعرِّض طائفةً من الشيعة إلى الاعتقال والأذى بعد إخفاق كلِّ ثورةٍ من ثوراتهم المتلاحقة على حين كان يرى الصادقُ التمهّل في الإعداد ، والسرّية في التنظيم حتى ليروى أنه قال له

---

(١) موسوعة الاستخبارات والأمن ١ : ٤٥ .

(٢) كشف الغمة ٢ : ٣٨٩ .

(٣) الشعر في الكوفة : ٣٧ .

أحد أصحابه واسمه سليمان بن خالد : « إن الزيدية قد عرفوا وجرَّبوا وشهرهم الناسُ ، وما في الأرض محمديٌّ أحبُّ إليهم منك ، فإن رأيت أن تُدنيهم وتقرّبهم منك فافعل ؛ فقال : إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن علمنا إلى جهلهم فلا مرحباً بهم ولا أهلاً وإنْ كانوا يسمعون قولنا وينتظرون أمرَنا فلا بأس »[1] .

ولقد بلغت السريَّةُ من نفس الإمام الصادق أن قال ذات مرَّة : « ... ليس من أمرنا التصديق له ، والقبول فقط . من احتمال أمرنا سترُه ، وصيانته من غير أهله »[2] ؛ ولا أحسبُ أنه كان مبالِغاً في مثل هذا الاحتياط ؛ وإنما بناه على تجاربه السابقة ؛ فقد روي عنه أنه قال لأحد أصحابه : « لقد قرب هذا الأمرُ ثلاثَ مرّاتٍ فأذعتموه ، فأخَّره الله . واللهِ ما لكم سرٌّ إلاّ وعدوُّكم أعلم به منكم »[3] .

وإذاً فرأي الإمام الصادق في الزيدية من الشيعة يمكن أن يدلّنا على منهج في الثورة يقوم على الإعداد الجيد ، والاحتراس المحكم ، ولا يهمني بعد ذلك أن تكون الظروف السياسية قد واتته ليقوم بها أم لا ، بمقدار ما يهمّني أنها كانت من همومه ؛ وليس أدلَّ على هذا أنّه كان عيَّن سنة : ١٤٠هـ موعداً لها ثمَّ لم يستطع إنجازها ، بسبب قلّة احتراس أصحابه ، وانكشافهم ـ على ما يبدو ـ لمخابرات المنصور[4] .

من خلال كلّ ما سُقتُه أستطيع أن أطمئنَ إلى أنَّ الاحتراس من جهاز المخابرات كان الشغل الشاغل لحركات المعارضة ؛ ولا أدلَّ على ذلك من أنه بلغ المغيرة بن شعبة ـ وهو والي الكوفة يومذاك أن الخوارج يريدون الثورة ـ ولكنه حين سئل إن كان يعرف أسماءهم قال : « ما سُميَ لي أحدٌ ، ولكن قد قيل لي : إنّ جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر... »[5] .

---

(١) الروضة من الكافي ٨ : ١٥٩-١٦٠ .

(٢) أصول الكافي ٢ : ٢٢٢-٢٢٣ ، نقلاً عن موسوعة الاستخبارات .

(٣) موسوعة الاستخبارات ٣ : ٢٠٠ .

(٤) ينظر السابق ٣ : ٢٠١ .

(٥) تاريخ الطبري ٤ : ١٤١ .

وكان لهذا الاحتراس وجوهُ شتّى ، فمن هذه الوجوه الاسترابة بالآخرين وتقصّي أحوالِهم ؛ فقد بلغت الاسترابة بمهاجر بن عمار الخزاعي ، وتقصّي شأنه حين بعثه المنصور يتجسَّسُ على الإمام الصادق أن قال له ذات يوم بعد أن فرغ من صلاته : «تعال يا مهاجر ، [قال مهاجر :] ولم أكن أتسمى باسمي ولا أتكنّى بكنيتي ، قل لصاحبك ، يقول لك جعفر : كان أهل بيتك إلى غير هذا أحوج منهم إلى هذا . تجيء إلى شبابٍ محتاجين فتدسّ إليهم ؛ فلعلَّ أحداً منهم يتكلَّم بكلمةٍ تستحلُّ بها دمَه ، فلو برَرتهم ، ووصلتَهم ، وأغنيتَهم كانوا أحوجَ إلى ما تريد منهم فلما جئتُ أبا الدوانيق قلتُ له : جئتُ من عند ساحرٍ كذّابٍ كاهن... من أمرِه كذا وكذا»[1] .

ويمكن أن نلحظ أن وصف مهاجرِ الإمامَ الصادقَ ـ بعد أن كشف مهمّته التجسُّسية ـ بأنه ساحرٌ كاهنٌ هو إمعان في تبرئة ذمّته أمام المنصور أن الصادق لم يَكتشِف أمرَه لقصورٍ فيه أو قلّة حيطةٍ أو سوء تأتٍّ ؛ وإنما لأنه ساحر!!

وبمثل هذا يمكن أن نفسّر خبر اكتشاف الإمام الحسن العسكري الذي مرَّ بنا في الفصل السابق الرجلَ الجمحيَّ أنه من أفراد المخابرات رغم ادّعائه النسب العلويَّ الذي يُبرِّرُ به سجنَه معه .

ومن آيات هذا الاحتراس اللجوء إلى الأحاديث الشفوية لا المكتوبة في التنظيم ؛ وقد رأينا هذا عند الإمام علي بن موسى الرضا ، وعند أبي الحسن عليٍّ الهادي ؛ فقد روى داود الضرير قال : «أردتُ الخروج إلى مكة فودّعتُ أبا الحسن بالعشيِّ وخرجتُ ، فامتنع الجمّالُ تلك الليلةَ وأصبحتُ ، فجئتُ أُودِّعُ القبرَ فإذا رسولُه يدعوني فأتيتُ واستحييتُ ، وقلتُ : جُعلتُ فداك ، إنَّ الجمّال تخلّف أمسِ فضحِك ، وأمرني بأشياء وحوائج كثيرةٍ ، فقال : كيف تقول ؟ فلم أحفظ مثلَ ما قال لي ، فمدَّ الدواةَ وكتبَ (بسم الله الرحمن الرحيم ، أذكُرُ إن شاء الله والأمر كلُّه بيدك) فتبسّمتُ فقال لي : مالك ؟ فقلتُ له خيرٌ ، فقال : أخبرني ؛

(١) موسوعة الاستخبارات ٣ : ٢٥٩ .

فقلتُ ذكرتُ حديثاً . حدَّثني رجلٌ من أصحابنا أن جدَّك الرِّضا كان إذا أمر بحاجةٍ كتب (بسم الله الرحمن الرحيم أذكرُ إن شاء الله) ، فتبسَّم وقال : يا داود لو قلتُ لك إنَّ تارك التقية كتارك الصلاة لكنتُ صادقاً »[1] .

وواضحٌ جداً أنَّ الذي أوصى به الإمامُ الهادي ليس من أمور الحياة اليوميّة ؛ لذلك رأى أن يعتمد حافظة رسوله داود الضرير إلى أصحابه في مكة لا أن يكتب بما يريدُ كتاباً يكون أداةَ تجريمه حال وقوعه بيدٍ معادية .

ولم يكن هذا المسلك الذي سلكه الإمام الرضا والإمامُ الهادي خاصّاً بهما ؛ وإنَّما كان ـ كما يُخيَّل إليَّ ـ مسلكاً شائعاً عند حركات المعارضة ؛ فقد رُوي أن أبا جعفر المنصور بعث بعقبة بن سلمٍ ـ وبيده كتابٌ مُزَوَّرٌ ـ من شيعة خراسان إلى عبد الله بن حسن والد ذي النفس الزكيّة «فلقيه بالكتاب ، فأنكرَه ونَهرَهُ ، وقال : ما أعرِفُ هؤلاء القوم فلم يزل ينصرف ويعودُ إليه حتى قبِل كتابَه... وأنِسَ به ، فسأله عُقبةُ الجوابَ فقال : أما الكتاب فإني لا أكتبُ إلى أحدٍ ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فاقرأهم السلام وأخبرهم أنَّ ابنيَّ خارجان لوقت كذا وكذا ؛ فقدم عقبةُ حتى قدم على أبي جعفرٍ فأخبره الخبر »[2] .

وعلى أنَّ عبد الله بن حسن قد بلغ من الغفلة ـ بحيث خمَّن المنصور أنه هو موضعُ إفشاء السرِّ وليس ابنيه محمد أو إبراهيم ـ وبحيث لان لعقبة ، فأعطاه موعد خروج ابنيه على المنصور ؛ إلاّ أنه مع هذا امتنعَ أن يكتب كتاباً بذلك ربَّما يكون دليلاً ضدَّه ، وضدَّ ولديه ؛ مما يؤيِّد ما قلت من أنَّ الشفوية كانت مسلكاً مألوفاً في تنظيمات المعارضة وخططها .

أما إذا اضطروا إلى الكتابة لجأوا إلى جملة أمورٍ يضمنون بها ألاَّ ينكشف أمرُهم ، وألاّ يُزوِّر أحدٌ ما كتبوا دون أن ينكشف .

فمن باب كشف التزوير ما لجأ إليه أبو مسلم الخراساني مع كاتبه ، وكان

---

(١) كشف الغمة ٢ : ٣٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ١٥٧ .

قد أحسَّ بأن أبا جعفر المنصور قاتله ؛ فلمّا قتله أمر المنصورُ « كاتبَه أن يكتب عنه كتاباً إلى نائبِه على الجيشِ ، ويُعلِّمُ علامتَه ، وخَتَم بختمِهِ بأن تأتي بالثَّقلِ والخزائن وتقدُم العراق ، فلمّا انتهى الكتابُ إليه صاح وقال : ما هذا كتاب سيّدي أبي مسلم ، وارتحل من وقتِه إلى خراسان ، وكان قد قرَّر معه أن يرد كتابُه[1] إليه وهو مختومٌ بنصف الخاتَم »[2] .

وإذا كانت هذه هي طريقة أبي مسلم في منع تزوير الكتب الصادرة عنه فليس هنالك ما يمنع أن نتصوَّر أنَّ لكلِّ مُعارِضٍ طريقته التي يتَّفق بها مع أصحابه لكي يتأكَّدوا أن الكتاب صادرٌ عنه لا عن سواه .

ولعل هذه الطريقة هي التي منعت أبا جعفر المنصور من أن يتَّصل جاسوسُه عُقبةُ بن سلم بحمد ذي النفس الزكيّة أو بأخيه إبراهيم خيفة أن يكونا اتَّفقا مع شيعتهما في خراسان على صيغةٍ يتخاطبان بها . ومن هنا كان إلحاح المنصور أن يتّصل عقبة بأبيهما الرجل المتخشّع ، العابد .

أما إذا أمنوا التزوير فكتبوا ما كتبوا فلهم في ذلك جملةُ طرقٍ ، وأحدُ هذه الطرق أن يكتبوا الكتابة العادية المألوفة تُبعَثُ بيد رسولٍ مؤتمنٍ ، فإذا حدث ذلك كان مصير الكتابِ المُرسل الحرق ؛ فقد روى الحسنُ بن عليّ الوشاء قال : « سألني العباسُ بن جعفر بن محمد بن الأشعث أن أسأل الرضا عليه السلام أن يحرق كتبَه إذا قرأها مخافة أن تقع بيد غيرِه ، قال الوشّاءُ ، فابتدأني عليه السلام بكتابٍ قبل أن أسأله أن يحرق كتبَه[3] ، فيه : أعلِم صاحبَك أني إذا قرأتُ كتبَه إليَّ أحرقتُها »[4] .

أما لماذا يوصى بإحراق الكتب لا بتقطيعها ، أو تمزيقها مثلاً فسببُه إمكان

---

(١) في الأصل : كتابي إليه ، وهو تصحيف .

(٢) آثار الدول : ١٨٦ ، وينظر تاريخ الطبري ٦ : ١٣٩ .

(٣) في الأصل : أنه يحرف ، وهو تصحيف .

(٤) موسوعة الاستخبارات ٢ : ٣٦٤ .

جمع قصاصات الورق الممزَّق بعضها إلى بعض ، وقراءتها ؛ فقد روي « أن بعض بني الفرات كان له روشنٌ مُطلٌّ على الدجلة وكان إذا جلس فيه لقضاء بعض الأشغال ، وقراءة القصص ، قطّع مايريدُ كتمانَه ورمى به في دجلة ، وعنده أنه قد احتاط على الكتمان ، وكان رجلٌ من أصحاب الأخبار يجلسُ على طريق مائه ، ويلتقط تلك الأوراق المقطّعةَ ، ثم يمضي بها ويلفّقها[1] ويستخرج منها الأسرار التي ظنَّ أنه كتمها... »[2] .

هذا وكانت تلجأ المعارضة في أحيانٍ إلى الكتابات المرموزة ؛ فقد روي أنه لمّا قُبِضَ على الحلاّج « جدّ حامدٌ في طلب أصحاب الحلاّج ، وأذكى العيون عليهم ، وحصل في يده منهم حيدرة والسمري ومحمد بن علي القنائي والمعروف بأبي المغيث الهاشمي ، واستتر ابنُ حماد وكُبِسَ منزلُه ، فأُخذت منه دفاترُ كثيرة ، وكذلك منزلُ محمد بن علي القنّائي فكانت مكتوبةً في ورقٍ صينيٍّ... وجواباتٌ لقومٍ كاتبوه بألفاظٍ مرموزةٍ لا يعرفها إلاّ من كتبها ، ومن كُتبت إليه »[3] .

وهذه الكتابات المرموزة هي ما اصطلح عليه العربُ « فنَّ التعمية » بحيث ألّفوا فيها كتباً[4] وهي تعميةٌ تعمد إلى الأرقام بدل الحروف مرَّةً ، وإلى كتابة العربية بحروف أجنبيّة مرَّة أخرى ، وإلى سوى هاتين الطريقتن مرَّة ثالثةً مما لا أريد أن أُفيض فيه .

وهنالك تعميةٌ أخرى معروفة هي استعمال ما نصطلحُ عليه اليوم بالحبر السرِّي ، وقد شغل القلقشندي صفحاتٍ من الجزء التاسع من كتابِه : « صبح الأعشى » بوصفات هذا الحبر ؛ ولكنَّ الذي وصفه القلقشندي لم يكن من اختراعِ

---

(١) في الأصل : ويلقفها .

(٢) آثار الأول ١٤٩ ، والقصص : ما يُرفع للوزير أو الخليفة من مطالب ، ومظالم .

(٣) تجارب الأمم ٥ : ٧٨-٧٩ ، وصلة تاريخ الطبري ٦٢-٦٣ .

(٤) من ذلك : علم التعمية واستخراج المُعَمّى المطبوع في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٨٧ .

عصرِه فقد رأينا على سبيل المثال أبا حاتِم السجستاني يقول لأحد تلاميذه ـ ولعلّه المبرِّد ـ «إذا أردتَ أن تُضمِّن كتاباً سرّاً فخُذْ لبناً حليباً فاكتب به في قرطاس ، فيذرُّ المكتوبُ إليه عليه رماداً سُخناً من رماد القراطيسِ فيظهرُ المكتوب ، وإن كتبتَه بماء الزاجِ الأبيضِ فإذا ذرَّ عليه المكتوبُ إليه شيئاً من العَفْصِ ظهرَ ، وكذا بالعكس»[1] .

وهنالك طرائق أخرى ذكرها القلقشنديُّ لا أرى بي حاجةً أن أعرض إليها ؛ لأنني لم أعثرْ على نصٍّ صريحٍ يقول إن المعارضة استخدمت الحبرَ السرِّيَّ ، ولكن هذا لا يعني أنها لم تستخدمه ؛ وإلاّ فمن أين لفتَ نظر المؤلِّفين ؟

وتسمّى الرسائل المكتوبة بالحبر السرّي المُلَطَّف ، والمُلَطَّفة[2] .

وكان أهمَّ من كتابة الرسالة بالحبر السريِّ ـ في رأيي ـ عندهم وصول ما كتبوه إلى أصحابِه ؛ فقد تفنّنوا في إخفاء رسائلهم وفي المحافظة عليها ، فمن ذلك ما رُوي «عن داود ابن الأسود وقّاد حمّامِ أبي محمد [لعله الحسن العسكري] قال : دعاني سيّدي أبو محمد ، فدفع إليَّ خشبةً كأنّها رِجلُ بابٍ ، مُدوَّرةً طويلةً ملء الكفِّ ؛ فقال : صِرْ بهذه الخشبة إلى العمريِّ ، فلمّا صرتُ إلى بعض الطريق عَرَضَ لي سقّاءٌ معه بغلٌ ، فزاحمني البغلُ على الطريق فناداني السقّاءُ : صِحْ على البغلِ ، فرفعتُ الخشبةَ التي كانت معي فضربتُ بها البغل فانشقَّتْ ، فنظرتُ إلى كسرها فإذا فيها كتبٌ فبادرتُ سريعاً فرددتُ الخشبةَ إلى كُمّي ، فجعل السقّاء يناديني ، ويشتمني ويشتم صاحبي ، فلمّا دنوتُ من الدارِ راجعاً استقبلني عيسى الخادمُ عند الباب ؛ فقال : يقول لك مولاي أعزّه الله لم ضربتَ البغلَ وكسرتَ رِجلَ البابِ ؟ فقلتُ له : ياسيدي لم أكن أعلمُ ما في رِجْل الباب ، فقال : ولم احتجتَ أن تعمل عملاً تحتاجُ أن تعتذر منه ؟ إياك بعدها أن

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٣٢ ، وينظر تاريخ الإسلام (حوادث : ٢١١-٢٢٢) : ٢٢١ ، والقول منسوبٌ للمأمون فيه .

(٢) ينظر شذرات من اللغة المولّدة ، مجلة العرب (ج٣ ، ٤ آذار ، نيسان ١٩٩٥) : ١٧٤ .

تعود إلى مثلِها ، وإذا سمعتَ لنا شاتماً فامضِ[1] لسبيلك التي أُمِرتَ بها ، وإيّاك أن تُجاوبَ من يشتمنا ، أو تُعرِّفه من أنتَ ؛ فإننا ببلد سوء ، ومصر سوء ، فإنَّ أخبارك تردُ إلينا فاعلم»[2] .

ولنا أن نلاحظ على النصِّ جملةَ أمورٍ منها : أنَّ الوقّاد لم يكن يدري ماذا يحملُ فيضطرِبَ ؛ فيُكتَشَفَ حالُه . وإلاّ لكان قد أجاب صاحب البغل السقّاء بأن الصياح على البغل من مهمات صاحبه وليس من مهماته هو . على أنَّ في استعانة السقّاء به ما يدلُّ على أنَّ رسالتَه التي يحملها لم تكن لتلفت أنظار الناس العاديّين . هذه واحدة .

فأمّا الثانية فهي أنَّ الرسالة كانت محميَّةً بمن يُراقِبُ هذا الوقّاد خيفة أن يحصل له شيءٌ نتيجة جهله بما يحملُ ، وربَّما خيفة خيانته . ومبدأ حماية المعلومات كان معمولاً به لدى جهاز المخابرات ولدى المعارضةعلى السواء ؛ فقد سبق أن رأينا أنَّ عليّاً الهادي يبعث وراء داود الضرير مَن يُتابعه .

ونرى الآن الحسن العسكريَّ يحذِّرُ وقّادَه أنَّ أخبارَه تَرِد إليه . وقلتُ : إنَّ هذا المبدأ - مبدأ حماية المعلومات - كان معمولاً به من قبل جهاز المخابراتِ ، وأريد الآن أن أضرب مثلاً عليه بما رواه هلال بن المحسن الصابي أنه كان في درب أبان من الجانب الشرقي ببغداد «رجلٌ شيرازيٌّ رثُّ البزّة يذهب في أمرِه مذهب التطايب[3] ، ويضحكنا إذا جلس معنا ؛ فبينما هو في بعض الأيام قاعدٌ مع والدي على باب دارنا - ومعنا رجلٌ يُعرَف بابن مواتة من أولاد الشهود والجيران - إذ اجتاز بائع رمّان ؛ فدعاه ابنُ مواتة وسامَه وجرى بينهما ما رفع له ابنُ مواتة يدَه فلطَمَهُ ؛ فقبض الرجلُ الشيرازيُّ يدَه على كُمِّ ابن مواتة وقال : قُمْ إلى دار الملك ، قال له : أصنعُ ماذا ؟ قال : أطالع بما فعلتَه من لطم الطوّاف ، ويؤخذ بحقِّه منك...

(١) في الأصل : فامضي .

(٢) موسوعة الاستخبارات ٣ : ١٢ .

(٣) التطايب تقليد الآخرين ومحاكاتهم بغرض الإضحاك . ينظر فن التمثيل عند العرب : ٦٢ وقد تطبَّعت فيه كلمة المطايب على : المطالب .

لقد مات ابنُ مواتة خوفاً وجزعاً ، وعطف والدي على الشيرازي يسأله الإمساك... »[١] ، ولكن الرجل الشيرازي لم يستجب لوساطة المحسّن الصابي ، ولم يستجب لتنازل الطوّاف أي : البائع المتجول عن حقّه ؛ قائلاً : « لا أستطيع الإمساك لأن خبرنا قد رُفِع الساعةَ إلى الحضرة ، وإذا أمسكتُ صار لي ذنبٌ أهلك به وتنقطع معيشتي ، وأنا أرتزق رزقاً سلطانياً على نقل هذه الأشياء ... »[٢] .

وإذاً فإنَّ هذا الرجل يعلم أنَّه مُراقَبٌ من رجل مخابراتٍ آخر خيفةَ أن يتقاعس عن أداء واجبه ، أو أن يخون فيما ينقله .

وينبغي لنا ألاَّ نظنَّ أنَّ متابعة الشيرازي حالةٌ خاصَّة ، فقد قرَّر الحسنُ بن عبد الله العباسيّ ضرورة أن يكون مع رجل المخابرات رجلٌ أخر وكلُّ واحدٍ عينٌ « على رفيقه بحيث لا يشعران... حتّى يعتقد كلٌّ منهما أنه العينُ على صاحبه ؛ فتوافي[٣] الأخبارُ فتصحُّ أو تتخالف فيُنظَر في أمرها »[٤] .

ومن أساليب المعارضة في تضليل رجال المخابرات عن متابعتهم تنكُّرالمطلوب بزيٍّ غير غير زيِّه المعروف ؛ فقد كان أبناء عبد الله بن ميمون القدّاح ـ صاحب الدعوة الفاطمية ـ « يُخفون أشخاصَهم »[٥] ، وكان عبيد الله المهدي قد شاعَ « خبرُه عند الناس ، أيام المكتفي فطُلِب ، فهرب هو وولدُه أبو القاسم نزار الذي ولي بعده ، وتلقَّب بالقائم... فلمّا انتهى إلى مصر أقامَ مُستتِراً بزي التجار... »[٦] ، وكان ابن مُقلة وهو يُعدُّ لخلع القاهر « يجتمع بالقواد ليلاً ، تارةً في زيٍّ أعمى ، وتارةً في زيِّ مُكدٍّ ، وتارةً في زيِّ امرأة... »[٧] .

---

(١) ذيل تجارب الأمم : ٥٩ .

(٢) نفسه .

(٣) في الأصل : فتوافق ، ولم أر لها معنى ؛ فلعلها تصحّفت مما أثبتُّ .

(٤) آثار الأول : ١٨٥ .

(٥) الكامل في التاريخ ٥ : ١٧ .

(٦) السابق : ١٨ .

(٧) السابق : ١٥٨ .

ويبدو أن من أساليب التنكُّر أن يكون للمعارض اسمان ؛ فقد كان للحلاَّج فضلاً عن اسمه : الحسين بن منصور الذي نعرِفه اسمُ آخرُ هو محمد بن أحمد القارسي[1] ؛ وقد غيَّرَ عمار بن يزيد حين أُرسل والياً على شيعة بني العباس في خراسان سنة : ١١٨هـ غيَّر اسمَه ، وتسَمى بخداش[2] . ولا بدَّ أن يكون قد غيَّر اسمه تضليلاً لأفراد جهاز المخابرات الذين كانوا يلاحقون دُعاة بني العباس . ولعلّ في هذا ما يُفسِّر أن كثيراً من الثورات كانت تدعو للرضا من آل محمد من دون أن تسمّيَه ، بما في ذلك الثورة العباسية نفسُها .

ومن أساليب المعارضة في حماية نفسها اجتناب زعمائها النشاط السياسيَّ العلني ؛ فمن ذلك ماَرُوي عن محمد بن شرف من قوله : « كنتُ مع أبي الحسن (ع) [يعني الإمام الرضا] أمشي بالمدينة ؛ فقال لي : ألستَ ابنَ شرف ؟ قلتُ : بلى ؛ فأردتُ أن أسأله عن مسألةٍ فابتدأني من غير ان أسأله ، فقال : نحن على قارعة الطريق وليس هذا موضع مسألة »[3] .

ومن الطبيعيِّ أن نتصور أن المسألة لم تكن مسألةً فقهيةً أو ما أشبه وإلاّ فمن العجيب أن يمتنع الإمام الرضا عن إجابة مثلها .

وإذا كان الحذر من جهاز المخابرات عنصراً غير واضحٍ تمام الوضوح في النصِّ السابق فإنّه واضحٌ جداً فيما رواه أحمد بن محمد بن نصر البزنطي من قوله عن الإمام الرضا نفسه : « ... كتبتُ إليه كتاباً أسأله فيه الإذن عليه ، وقد أضمرتُ في نفسي أن أسأله إذا دخلتُ عليه عن ثلاث آياتٍ قد عقدتُ قلبي عليها ، فأتاني جوابُ ما كتبتُ : عافانا الله وإياك ، أما ما طلبتَ من الإذن عليَّ فإنَّ الدخول إليَّ صعبٌ ، وهؤلاء قد ضيَّقوا عليَّ في ذلك ؛ فلستَ تقدر عليه الآن ، وسيكون إن شاء الله »[4] .

---

(١) صلة تاريخ الطبري : ٦٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٤٤٠ ، والكامل في التاريخ ٣ : ٣٥٢ .

(٣) موسوعة الاستخبارات ٢ : ٣٦٦ .

(٤) السابق ٢ : ٣٦٨ .

من هنا لم يكن غريباً على بعض أئمة الشيعة أن يلتقوا ببعض أصحابهم في أماكن يقدّرون أنّها آمنة ؛ فقد روي عن زكريا بن إبراهيم أنه قال : « كنتُ نصرانياً فأسلمتُ ، وحججتُ فدخلتُ على أبي عبد الله (ع) فقلتُ : إني كنتُ على النصرانية ، وإني أسلمتُ... فقال... لا تُخبِر أحداً أنّك أتيتني حتّى تأتيني بمنى إن شاء الله »[1] .

وأكاد أتخيّل هذا النصراني الطيّب ، وقد فرح بدخوله الجديد في الإسلام جاء إلى الإمام الصادق وهو يظنُّ أنه لا شيء أزكى لإسلامه من أن يلتقي بأحد أبناء رسول الله من أئمة المسلمين ، ولم يكن يدور بخَلدِهِ أنّه مُراقبٌ تُحصى عليه حركاتُه وسكناتُه ؛ فكان على الإمام الصادق أن يضرب له موعداً في مكان بعيد عن المراقبة لعلّه يفاتِحه بما يُعرِّض إليه نفسه من خطرٍ حين يتّصل به اتّصالاً علنيّاً في مكان لا بدّ أن يكون الإمام الصادق مُتأكّداً من أنه محصيَّةٌ عليه فيه حركاتُه .

ومن وسائل زعماء المعارضة في حماية أنفسهم اتخاذُهم ما نُسمّيه اليوم بالأوكار الحزبية ، وإن شئتَ فاتّخاذهم مساكن سريَّةً لا تلفت النظر ؛ فقد اعترف أحد القرامطة بأن زكرويه القرمطي كان مختفياً في منزلِه واصفاً اختفاءه بقوله إنّه : « ... قد أُعدّ له سردابٌ تحت الأرض عليه بابُ حديد ، وكان لنا تنور فإذا جاء الطلبُ وضعنا التنور على باب السرداب وقامت امرأةٌ تسخِّنه فمكث زكرويه كذلك أربع سنين في أيام المعتضد ، ثم انتقل من منزلي إلى دارٍ قد جُعل فيها بيتٌ وراء باب الدار ، فإذا فُتح بابُ الدّارِ انطبقَ على باب البيتِ ؛ فيدخلُ الداخلُ فلا يرى باب البيت الذي هو فيه ، فلم تزل هذه حاله حتى مات المعتضد »[2] .

وأوصى الإمامُ الرضا أحد أصحابه ، وقد استقبله في القادسية ، فقال له : «اكترِ حُجرةً لها بابان ، بابٌ إلى الخانِ ، وبابٌ إلى خارج ؛ فإنّه أسترُ عليك»[3] .

---

(١) موسوعة الاستخبارات ٢ : ٣٦٩ .

(٢) تاريخ الطبري ، الصلة ٨ : ٨ ، وينظر الكامل في التاريخ ٤ : ٦٢١ .

(٣) موسوعة الاستخبارات ٢ : ٣٦٧ .

أما اجتماعاتُ هؤلاء فكانت تطمح أن تتّخذَ لها غطاءً لا يلفت النظرَ ؛ فقد رأينا الإمام الصادق قد ضرب موعداً لزكريا بن إبراهيم بمنى ؛ لأنه لم يكن من المستنكر في جبل منًى أن يتشاور الناسُ في أمورهم ؛ فهذا الجبل إنّما سُمِّيَ بمنًى « من مَنَيْتُ الشيء إذا قدَّرتَه ، والتقاؤهما أن الناس يقيمون بمنًى فيقدُرون أمورهم وأحوالَهم فيها ، وهذا صحيحٌ مستقيم »[١] .

واتّخذ الغلمان الحجرية والساجية ، وقد صار الخليفة القاهر يذمّهم ، ويتحدّث عن كرهه لهم في مجالسِه ، فصاروا يدبِّرون للقاهر ـ كما يدبِّر ابنُ مقلة له ـ أن يُخلعَ ، أقول : اتّخذوا من تظاهرهم بأن لبعض قوّادهم عرساً حجّةً للاجتماع ، والتفاوض في أمر خلع القاهر ، دون أن يلفتوا نظر أحدٍ .

ومن المعقول أن نتصوَّر أنّهم قد أقاموا كلَّ مظاهر العرسِ إمعاناً في التمويه والتضليل ؛ وإلاّ فإن الادّعاء بأن هنالك عرساً دون رؤية مظاهره لا يُقنع أحداً بصحّة ما يُدَّعى .

وكلُّ هذا الحذر مبعثُه الخوف من الوقوع بيد السلطة ؛ ولكن ينبغي أن نُقرِّر أنَّ بعض هذه الاحتياطات لم تكن ناجعةً تماماً ؛ فقد كان يحدث أن يُلقى القبض على هذا أو ذاك من المعارضة مما يُعرِّض أفراد هذا التنظيم أو ذاك للانكشاف أمام أعين السلطة ؛ لذلك يكون الاتّصال بالسجين وهو في سجنه شيئاً مُهمّاً .

فقد كان الاتّصال بالسجناء عن طريق الرسائل شيئاً شائعاً ؛ ففي الفتنة بين النزارية واليمانية كان جديع بن علي بن شبيب المعروف بالكرماني قد خالف نصربن سيّار ، فحبسَه ، ولكنَّ أنصاره استطاعوا أن يدسوا له رسالةً في طعامِه يخبرونه فيها بأن يستعدَّ لتهريبِه ، فكان أن وسَّعوا مجرى ماء السجن ، وهرَّبوه من هذا المجرى[٢] .

---

(١) معجم ما استعجم ٤ : ١٢٦٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٥٨٧-٥٨٨ ، والكامل في التاريخ ٣ : ٤٢١ .

ويبدو أن دسَّ الرسائل في طعام السجين قد بلغ من الشيوع بحيثُ إنه لما اعتُقل الخليفة القاهر في دار الخلافة ، ووُكِّل به أحمد بن زيرك ، وأُمِر بالتضييق عليه «وتفتيش كلِّ من يدخل الدار ويخرج منها ، وأن يكشف وجوه النساء المنقبات ، وإن وجِد مع أحدٍ رقعةٌ دفعها إلى مؤنس ، ففعل ذلك وزاد عليه . حتى إنّه حُمِلَ إلى دار الخليفة لبنٌ فأدخلَ يدَه فيه لئلاّ يكون فيه رقعة»[1] .

ولعل هذا الشيوع هو الذي جعل أبا عبد الله الشيعي إذ انتصر على جيش زيادة الله ، «... واستقرَّت دولتُه... كتبَ... كتاباً إلى المهديِّ ـ وهو في سجن سِجِلماسة ـ يُبشِّرُه ، وسيَّر الكتاب مع بعض ثقاتِه ، فدخَلَ السجنَ في زيِّ قصّابٍ يبيع اللحمَ ، فاجتمع به وعرَّفه بذلك»[2] .

ولكن ينبغي ألاّ نتصور أن عمل المعارضة عملٌ سلبيٌّ همّه الأوّلُ ، والأخير هو التخلّص من عيون الجهاز إذ كان هذا التخلّص سبباً من أسباب القيام بما تريدُه لنفسها من معارضة اتّخذت أشكالاً عدّةً فمن هذه الأشكال ما رأيناه من ثورات متوالية يقودها الخوارج حيناً ، والعلويون حيناً آخر ، والشيعة حيناً ثالثاً ، والزنج والقرامطةُ حيناً رابعاً وهكذا .

وحسبك من نجاح هذه المعارضة أن قامت دولة الأدراسة في المغرب ، ثم الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ثم الدولة العلوية في طبرستان ، ثم دولة القرامطة في البحرين .

ولكن كانت هذه المعارضة حين تُمهِّدُ لأمرٍ ، أوحين تُخفِق في أمرٍ تلجأ إلى إزعاج الحاكم بما تقوم به من نشاطات سياسية .

فمن نشاطاتها كما رأينا في الفصل السابق إزعاج الخلافة بحوادث تخريبيَّة من مثل إشعال الحرائق ؛ فقد لفت نظري أنَّه وقعت جملة حرائق لم يُفسِّرها المؤرِّخون في بغداد ، كمثل الحريق الذي وقع ببغداد سنة : ٢٩٢ بباب الطاق

(١) الكامل في التاريخ ٥ : ١٤٢ .

(٢) السابق ٥ : ٢٠ .

فاحترق فيه « ألفُ دكّان مملوءة متاعاً للتجار »[١] ، وكالحريق الذي وقع بها سنة : ٣٠٢ في عدّة مواضع[٢] ، والآخر الذي يُعرف بحريق الكرخ الكبيروقد وقع سنة : ٣١٠ ؛ وهو إنما سمي بالكبير لأنه كان وقع حريق آخرفيه سنة : ٣٠٧[٣] ، وهناك حريقٌ وقع في سوق الثلاثاء سنة : ٣٥٩ فاحترق جماعة رجال ونساء ، وأما الرِّحال وغيرها فكثيرٌ ، ووقع الحريق أيضاً في أربعة مواضع من الجانب الغربي...[٤] . وآخر وقع في الكرخ بعد ثلاث سنوات ، وهكذا مما لا أريد أن أطيل في تعدادِه ، ولكنني أريد أن أُقرِّر شيئين هما غموض حوادث الحرائق هذه في كتب التاريخ ، إذ لم أجد ذكراً لأسباب وقوعها ، وثانيهما أنني رأيتُ العقاب بالحرق من تقاليد السلطة العباسية ، فقد احترق الكرخُ حريقاً عظيماً ، وكان « سبب ذلك أن صاحب المعونة [أي : مدير السجن] قتل عاميّاً ، فثار به العامّةُ والأتراكُ ؛ فهرب ودخل دار بعض الأتراك ، فأُخرج منها مسحوباً ، وقتِل وأُحرِق ، وفُتِحت السجونُ فأُخرجَ من فيها ، فركب الوزيرُ أبو الفضل لأخذ الجناةِ ، وأرسل حاجباً له يُسمّى صافياً في جمعٍ لقتال العامة بالكرخ ، وكان شديد العصبيّة للسنّة ، فألقى النارَ في عدّة أماكنَ من الكرخ ؛ فاحترق حريقاً عظيماً ، وكان عدّة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان ، وثلاثمائة دكّان ، وكثيرٌ من الدُّور ، وثلاثةٌ وثلاثين مسجداً ، ومن الأموال ما لا يُحصى »[٥] .

وإذ أُقرِّرُ ذينك الشيئين فإني أريد من خلالهما أن أقول : إنه ليس بعيداً عندي أن تكون المعارضة السياسيّةُ هي المسؤولة عن بعضِ هذه الحرائق الغامضة . أما الغرضُ من هذه الحرائق فقد يكون هو التمهيد لعملٍ سياسيٍّ كبيرٍ ، وقد يكون للَّعبِ بهيبة السلطةِ ، وقد يكون شيئاً آخر من مثل إقناع الناس أن

(١) السابق ٤ : ٦١٧ .
(٢) ينظر السابق ٥ : ٥٣ .
(٣) ينظر الكامل ٥ : ٧٢ ، ٦٧ .
(٤) السابق ٥ : ٣٧٢ .
(٥) السابق ٥ : ٣٨٢ .

السلطة غير قادرةٍ على حمايتهم من خلال بثّ الرُّعب والبلبلة في نفوسهم .

وإذا كنّا نختلف في نسبة مثل هذه العمليات إلى المعارضة السياسية فلا أظنُّ أننا سنختلف في الأمر ونحن نرى أن خزانة سلاح الناصر لدين الله العباسي الذي جعل الناسَ يظنون أنه يعلم الغيبَ ـ لكثرة أفراد جهازه ولجودة انتشارهم ـ قد احترقت ، «فاحترق فيها منه شيءٌ كثيرٌ ، وبقيت النارُ يومين ، وسار ذكرُ الحريق في البلدان فحمل الملوك من السلاح إلى بغداد شيئاً كثيراً»[1] .

وقد يكون الغرضُ من هذه الحرائق قبل كلّ هذا وبعدَه الردَّ على جهاز المخابرات بأنَّه لا يعلم كلَّ شيء كما يحلو له ولأوليائه أن يُصوِّروا للناس ، وأن المعارضة تستطيعُ أن تتحدّاه وأن تقف بوجهه حتى وهو في دار الخلافة .

فمن هذا التحدّي السافر قيادةُ المظاهرات . وإذا كانت كتبُ التاريخ تُسمّي هذه التظاهرات ـ في العادة ـ شغبَ العامةِ أو ما أشبهَ ؛ مما يُفوِّتُ على الدارس فرصة الإمساك بحقيقة هذا الشغب ، فإنَّ لدينا نصّاً رواه ابنُ الأثير لا يحتمل مثل هذه التسمية الفضفاضة المُضلِّلة ، فقد تظاهر في سنة ٥٨٤هـ «جماعةٌ من الشيعة عدّتُهم اثنا عشر رجلاً ليلاً ، ونادوا بشعار العلويين : يالَ عليّ ، يالَ عليّ ، وسلكو الدروبَ ينادون ظنّاً منهم أنَّ رعيّة البلدِ يُلبّون دعوتَهم ، ويخرجون معهم ، فيُعيدون الدولة العلويَّةَ ، ويُخرجون بعضَ من بالقَصرِ محبوساً منهم ، ويملكون البلدَ ، فلم يلتفت أحدٌ منهم إليهم ، ولا أعارهم سمعَه»[2] .

ولابدَّ لمن يقرأ مثل هذا الخبر أن يحكم بسذاجةِ أحد اثنين هما إما ابن الأثير ، وإما هؤلاء المتظاهرين الذين أخفقت مظاهرتهم ضدَّ صلاح الدين الأيّوبي . على أنَّ الراجح عندي هو سذاجة ابن الأثير الذي كان مأخوذاً بانتزاع بيت المقدس من أيدي الصليبيين فصدَّق ما أشاعته أجهزةُ صلاح الدين عن هؤلاء المساكين ، وإلاّ فأيُّ عاقلٍ يُمكن أن يُصدِّق أن تظاهرة يشترك فيها الآلاف ، وليس

---

(١) السابق ٧ : ٤٧٤ .

(٢) الكامل ٧ : ٣٥٧ .

هذا العدد الذي لا يكاد يُذكر ، يمكن أن تُسقِط بطلاً جماهيرياً مثل صلاح الدين .

نعم أكاد أتصوَّر أنَّ هؤلاء كانوا نواة تظاهرةٍ لم تكتمل ـ لسبب من الأسباب ـ يحتجّون فيها على اضطهاد صلاح الدين إيّاهم ، هذا الاضطهاد الذي يمكن أن يُعطينا صورةً عنه ما فعله صلاحُ الدين بمكتبة الجامع الأزهر التي كانت تضمُّ على عهدِهِ مائةً وعشرين ألف كتاب ؛ لا لشيء إلاّ لأن الفاطميين أسَّسوها وبلغوا من الاهتمام بها بحيث كانت تضم مليوني كتاب[1] .

وإذاً فأنا لا أستبعدُ أن هؤلاء الاثني عشر كانوا قد أعدّوا لتظاهرتهم أن يلتحق بها مؤيِّدوهم في معارضة صلاح الدين ، ولكن حدث شيءٌ لا أعرفُه جعل الناسَ يُحجمون عن المشاركة مما جعل التظاهرة تُخفقُ ؛ ولعلَّ صلاح الدين نفسَه كان قد أدرك ذلك حين «أهمَّه أمرهم وأزعجه»[2] وإلاّ فإنّه سيكون من العجيب أنَّ قاهر الصليبيين ، وفاتح بيت المقدس يكون يهمُّه أمرُ أثني عشر رجلاً متظاهراً ويزعِجُه ، وهو يعلم أنّهم قد اعتقلوا .

وإذا كان هؤلاء الاثنا عشر قد أخفقوا في إطلاق سراح السجناء فإن الراوندية ـ وكان عددهم ستمائة ـ قد نجحوا في أن يتظاهروا مموِّهين تظاهرتهم بجنازة كاذبة حتى إذا بلغوا باب السجنِ رموا بالجنازة ، وأطلقوا سراح المائتين من زملائهم الذين اعتقلهم أبو جعفر المنصور[3] .

ونجح إسماعيل الصفّار البصري ، وهو أحد شيوخ المعتزلة في البصرة ، وكانت السلطة تلاحق المعتزلة ، وتعتقلهم أن يقود مظاهرةً تضمُّ أكثرَ من ألفِ بَصريٍّ انتهى بها إلى والي البصرة نزار بن محمد الضبّي ، فقابلوا الوالي ، واستطاعوا أن ينتزعوا منه أمراً بإطلاق سراح أحد المعتزلة[4] .

---

(١) ينظر المكتبات في الإسلام : ١٢٠-١٢٢ .

(٢) الكامل ٧ : ٣٥٧ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ١٤٧ .

(٤) ينظر الفرج بعد الشدة ١ : ٢٥٠-٢٥٢ .

وإذا كانت تلك الحرائق ، وبعض هذه التظاهرات غامضة الأهداف أو تكاد تكون ـ بوجه أدق ـ كذلك للناظر المُتعجِّل فإنَّ عمليات الاغتيال التي كانت تقوم بها المعارضةُ لم تكن كذلك . فقد كانت المعارضة تقوم بهذه الاغتيالات ـ متى اقتضتها الضرورة ـ وهي تعرف تماماً ماذا تريد .

فقد اغتال الباطنيون الآمر بأحكام الله أبا عليّ بن المستعلي العلويّ ـ صاحب مصر ـ وكان خرج إلى مُتنزَّهٍ له ، فلما عاد وثب عليه الباطنية وقتلوه ؛ « لأنه كان سيء السيرة في رعيّته »[١] . واغتال صبيٌّ ديلميٌّ من الباطنية ـ ويبدو أن الباطنية كانوا الجناح المُقاتل من الشيعة ـ الوزير نظام الملك بعد أن جاءه « في صورة مستميحٍ أو مستغيثٍ ، فضربه بسكّينٍ كانت معه »[٢] . واستطاع الإسماعيليون أن يغتالوا نظام الملك مسعود بن عليّ وزير خوارزم شاه تكش[٣] . واغتالوا آخرين لا أرى بي حاجةً إلى تعداد أسمائهم .

ولم يكن نشاط المعارضة مقصوراً على العنف وحده ، وإنَّما كان لها نشاطٌ سياسيٌّ رأينا جانباً منه في الرِّقاع التي وجدها جهاز المخابرات في طُرق بغداد وسككها .

ونرى الآن جانباً آخر من جوانب هذا النشاط مما يُمكن أن نسميّه نشاطاً إعلامياً ؛ فقد كانت حركاتُ المعارضة معنيّةً بأن تكسب معركتها الإعلامية مع السلطة من طريق ضمِّ أكبر عددٍ ممكنٍ من الشعراء إلى جانبها ، فكان للخوارج ـ كما هو معروفٌ ـ شعراؤهم من مثل عمران بن حطّان ، وعيسى بن فاتك ، وكان للشيعة شعراؤهم حتى إننا وجدنا طائفة من شعرائهم هم من أصحاب الإمام الصادق المُقرَّبين إليه[٤] ، ووجدنا الإمام الصادق يبلغ من الاهتمام بما يقول الشعراء في

---

(١) الكامل ٦ : ٦٢٢ .

(٢) السابق ٦ : ٣٢٤ ، ولم يذكر صاحب أخبار الدولة السلجوقية قصة مقتله .

(٣) السابق ٧ : ٤٤٤ .

(٤) الشعر في الكوفة : ٣٧ .

نصرة قضيّته أن قال في أحد شعراء الشيعة : «يامعشر الشيعة علّموا أولادكم شعر العبديّ فإنّه على دين الله»[1] ، ووجدنا الإمام علياً الهادي يقول في أحد شعراء الشيعة وهو عليّ بن محمد الحِمّاني : إنه أشعر العرب[2] ، بل كان غاية ما يطمح إليه الحماني وسواه أن يقول فيه الناصر الأطروش الإمام الثالث عشر من أئمة الشيعة الزيدية : «لو جاز قراءة شعرٍ في الصلاة لكان شعرُ الحماني»[3] .

ومن هنا عقد ابنُ شهراشوب ـ وهو يستدرك على الشيخ أبي جعفر الطوسي في الفهرست ـ باباً في كتابه : معالم العلماء عقده على : «بعض شعراء أهل البيت عليهم السلام» فقسّمهم تقسيماً غريباً ، يكاد يكون تقسيماً بحسبِ نشاطهم الحِزبيّ في الكفاح ، على «أربع طبقات : مُجاهرين ، ومُقتصدين ، ومُتّقين ، ومُتكلّفين ، فعدّ السيّد الحميريّ في المجاهرين ، ودعبل بن عليّ في المقتصدين...»[4] وهكذا .

وروي عن الإمام الرضا أنّه بات ليلةً من لياليه ساهداً يُفكّر في قول مروان بن أبي حفصة :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البناتِ وراثةُ الأعمام[5]

ولم يكن اهتمام أئمة الشيعة بشعرائهم هذا الاهتمام بدعاً فقد كان خصومُهم يهتمون بشعرائهم مثل هذا الاهتمام حتى روي عن أبان اللاحقي أنه «عاتب البرامكةَ في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء ، وفقرِهِ مع ذلك ، مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فقال له الفضل : إن سلكتَ مذهبَ مروان أوصلتُ شعرَك ، وبلّغتُك إرادتَك...»[6] ومذهب مروان هو تسفيه رأي العلويين في أنّهم أحقُّ بالخلافة من بني العباس .

---

(١) رجال الكشي : ٢٤٣ .

(٢) تاريخ طبرستان : ٢٥٥ .

(٣) معالم العلماء : ١٥٠ .

(٤) معنى المقتصد لدى ابن شهراشوب (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ع١ ، مج : ٤٨ ، ١٩٧٢) : ٢٤٦-٢٤٧ .

(٥) ينظر عيون أخبار الرضا ٢ : ١٧٥-١٧٦ .

(٦) أخبار الشعراء : ١٤ .

وبلغ الأمويون من الاهتمام بشعر شاعر شيعيٍّ اسمُه عمّار بن عبد الله البرقي بحيث قطعوا لسانه ، وأحرقوا ديوانه[1] .

أما حديث دعبل وحمل خشبته على كتفِه ينتظر من يصلبه عليها فأمرٌ مشهورٌ .

هذا ما كان من شعراء الشيعة ، والخوارج ، أما الزنج فبحسبك من ذلك أن عليَّ بن محمد صاحب ثورة الزنج نفسَه كان شاعراً ، وأن الحسين بن زكرويه القرمطي كان كذلك مما لا أريد أن أطيل فيه .

وقد كان شعراء المعارضة يمارسون دوراً خطيراً في زعزعة هيبة جهاز المخابرات ، وهيبة الخلافة نفسها ؛ فقد مرَّ بنا قول أبي عليٍّ البصير ، وهو من شعراء الشيعة يسخر من سعيد بن حُميد بعد أن تولّى ديوان البريد بالحضرة :

بأبي نفسُ سعيدٍ إنَّها نفسٌ شريفه
لم يزلْ يحتالُ حتى صارَ غمّازَ الخليفه

ولكنَّ ما هو أخطرُ من قول البصير الأبياتُ التي كانت تشيع دون أن يُعرَف قائلها في بعض الأحيان وكأنّها منشور سياسيٌّ بليغٌ في قصرِه ، وفي نقدِه ؛ فمن ذلك ما رُوي عن أحد الشعراء في عصر المستعين يسخر من خلافته :

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا[2]

ومن ذلك أيضاً قول المفجَّع البصري ، وهو من شعراء الشيعة المُتحرِّقين :

لنا سراجٌ نورُه ظلمةٌ ليس له ظلٌّ على الأرضِ
كأنه شخصُ الإمام الذي يبغي الهُدى منه أولو القَرضِ[3]

---

(١) ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي ١٧٠ .

(٢) ينظر مروج الذهب ٤ : ٦١ .

(٣) الوافي بالوفيات ١ : ١٢٩ .

وأولو القَرض هم الذين يأخذون أرزاقَهم من الخليفة .

فإذا كان شعراء المعارضة يبلغون من السخرية بالخلافة هذا المبلغ فما ظنُّك بسخريتهم من الوزارة ؟ فمن جميل السخرية وبليغها ما قاله أحدُ الشعراء في الوزير حامد بن العبّاس وقد استوزره المقتدر ، من أجل مالِه ـ وهو يعلم بجهلِه ـ فأخرج عليَّ بن عيسى الجراح من سجنه ليجعله نائباً له يقوم القيامَ الفعليَّ بأمور الوزارة ، قال هذا الشاعرُ :

قُلْ لابنِ عيسى قولةً	يرضى بها ابنُ مُجاهدِ
أنتَ الوزيرُ ، وإنَّما	سخِروا بلحيةِ حامدِ
جعلوه عندَك سُترةً	لصلاحِ أمرٍ فاسدِ
مهما شككتَ فقل له :	كم واحداً في واحد ؟[1]

ومن هذه السخرية ما قيل في عميد الدولة محمد المثلث بن جُهير زوجِ صفية بنت نظام الملك ، ووزير الخليفة المقتدي ؛ فقد عزلَه الخليفة عن منصبِه فشفع له عمُّه نظام الملك فأُعيد إلى الوزارة فقال ابنُ الهبّاريّة فيه :

لولا صفيَّةُ ما استُوزِرتَ ثانيةً
فاشكرْ حِراً صرتَ مولانا الوزيرَ بهِ[2]

ولست أريد أن أذكر المشهور من شعر هؤلاء الشعراء ، وإنما أريد أن أقول : إنَّ هؤلاء الوزراء وسواهم من أرباب الدولة كانوا موضع نقمة المعارضة ، وكانوا موضع رقابة الجهاز أيضاً ؛ إذلم تكن المعارضةُ وحدها هي المبتلاة بجهاز المخابرات ، وإنما كان رجال الدولة ، والمقرَّبون منها ممن يوضعون في العادة تحت نظر هذا الجهاز ، مما أطمح أن نراه في الفصل القادم .

(١) الفخري : ٢٦٩ .
(٢) السابق : ٢٩٧ . والحِرُ : الفَرْجُ ، ويجمعُ على : أحراح .

الفصل الخامس

الجهاز ومرافق الدولة

لم تكن مهمّات الجهاز قاصرةً على مراقبة المعارضة السياسيَّة ، وإنما كانت تمتدُّ لتشمل الدولة بجميع مرافقها ، وكانت مراقبةُ الجهاز لهذه المرافق تريد أن تضمن شيئين هما : حُسن أداء هذه المرافق ، ونجاعة هذا الأداء ، ثمّ ضمان ولاء من يُديرون هذه المرافق .

والحقُّ أنّه لم يكن ممكناً للخلفاء الأمويين أن يجعلوا من هذا الجهاز عيناً على مرافق دولتهم ؛ وسبب ذلك ـ كما رأينا ـ أن الجهاز كان تابعاً للعامل وليس للخليفة ؛ مما يجعل العامل حُرّاً فيما يشاء إخفاءه من معلومات .

ويمكنني أن أسوق شاهداً على هذا بما وقع لفاطمة بنت الحسين بعد أن رفضت أن تتزوّج من عبد الرحمان بن الضحّاك بن قيس الفهري والي المدينة ومكّة ؛ فهدّدها عبد الرحمان أن يُلفّق لأكبر بنيها عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ تهمة شرب الخمر وأن يجلده بها . فقد اضطرّت أن تكتب رسالة إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك ، وأن تبعثها بيد رسولٍ إليه[١] . مما يدلُّ على ما كنتُ قرّرتُ . بل إنَّ عبد الرحمان هذا قد «آذى الأنصارَ طُرّاً»[٢] ولم يكن يزيد على علمٍ ـ كما يبدو ـ بذلك ، يدلُّنا على ذلك ردُّ فعلِه العنيف على ما صنع

(١) ينظر تاريخ الطبري ٥ : ٣٦٧ ، والكامل في التاريخ ٣ : ٢٠١-٢٠٢ .

(٢) الكامل ٣ : ٢٠٢ ، وينظر تاريخ الطبري ٥ : ٣٦٨ .

واليه بفاطمة ؛ فلو كان يعلم بأذى الأنصار لغضب لغضبهم ؛ مداراةً ـ في أسوأ الأحوال ـ لرأي المسلمين العام ، إن لم يكن غضباً صادقاً .

بل إنَّ ولاة الأمويين قد بلغوا من الاستهانة بأوامر الخلفاء بسبب بُعدهم عن الرقابة أنَّ هشام بن عبد الملك حين بعث بالجعدِ بن درهم إلى واليه على العراق خالد القسريِّ ، وأمرَه بقتلِه ، لم يقتله خالدٌ أوّل الأمر ، وإنّما حبسه ، ثمَّ لم يقتله إلاَّ بعد أن بلغ هشاماً الخبرُ[1] بطريقة لا نعرفها ، ولم تنصَّ عليها المصادر .

أما وقد حقَّق الجهاز استقلاليته في العصر العباسي وصار تابعاً للخليفة بشكلٍ ما ، فقد اختلف الأمر ، وصار بإمكان الخليفة أن يراقب عمّاله وما يفعلونه في ولاياتهم التي يُديرونها .

وأستطيع القول : إنّه لم تكن هنالك تعليماتٌ محدَّدةٌ في الأمور التي يجب أن تُراقَب دون سواها ، وإنّما كان يُراقَبُ كلُّ شيء جليلاً كان أو يسيراً . فقد كتب والي البريد عن عامل حضرموت للمنصور : «أنّه يُكثِرُ الخروج في طلب الصيدِ ببزاةٍ وكلابٍ... فعزَله ، وكتبَ إليه : ثكلتكَ أمُك ، وعدِمتك عشيرتُك ، ماهذه العدّة التي أعددتها للنكاية بالوحش ؛ إنّا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفِك أمور الوحش...»[2] .

وأنت ترى أنَّ والي البريد لم يكتب لأبي جعفرٍ المنصور أن هذا الوالي قد أهمل شؤون ولايته انشغالاً بأمور الصيد ، أو ما أشبه لنستنتج أنَّ من مهمات البريد أن يُتابِع كفاءة الوالي في أداء عملِه ، وإنّما كتب إليه أنه مولَعٌ بالصيد مما يدلُّ أنَّ من شأن البريد أن يتابع حتى هوايات الوالي .

وكان الجهاز يراقب خرقَ هذا الوالي أوذاك بعض الرّسوم (أي قواعد البروتكول) فقد سبق أن رأينا توبيخ الخليفة المهدي روْح بن حاتم واليه على الكوفة حين سمح لأكبر أولاد عيسى بن موسى : العباسَ أن يُصلي على أبيه ، ولم يُصلِّ عليه هو .

---

(١) ينظر الكامل ٣ : ٣٩٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٢١٤ .

وكان من مهّمات الجهاز مراقبة الأسعار مما يدخلُ في الأمن الاقتصادي ؛ فقد رأينا أبا جعفرٍ المنصورَ واهتمامَه بهذا الجانب من حياة الناسِ الذي يُمكن أن يكون سبباً خطيراً من أسباب الاضطرابات السياسيّة .

ولم تكن من مهمّات الجهاز مراقبة العامل فحسب ، وإنّما كان من مهماتِه مراقبة القضاةُ فيما يحكمون به ؛ فقد رُوي أنه « كان حمدان البِرْتي على قضاء الشرقيّة ، فقدّمتِ امرأةٌ طِقطِق الكوفيِّ زوجَها إليه ، وادّعت عليه مَهراً أربعة آلاف درهمٍ ، فسأله القاضي عمّا ذكرَتْ ؛ فقال : أعزَّ اللهُ القاضي ، مَهرُها عشرة دراهم . فقال لها البرتي : أسفِري ، فسفرت حتى انكشف صدرُها ، فلما رأى ذلك قال لطِقطق : ويحك! مثل هذا الوجه يستأهلُ أربعة آلاف دينارٍ ليس أربعة آلافِ درهم ، ثم التفت إلى كاتبه ، فقال له : ما في الدُّنيا أحسنُ من هذا الشّذرِ على هذا النحر .

فقال له طقطق : فديتُكَ إنْ كانت وقعتْ في قلبِك طلّقتُها... فأقبل البرتي على المرأةِ فقال : يا حبيبتي! ما أدري كيف كان صبرُك على مباضعة هذا البغيض... فقامَ طِقطق ، وتعلّق به وصيفٌ غلامُ البرتي ، فصاح به : دعه يذهب عنّا إلى سقر ؛ ثم قال لها : إنْ لم يَصِرْ إلى ما تريدين فصيري إلى امرأةِ وصيفٍ حتّى تُعلِمني ، وأضعه في الحبس .

وكتب صاحِبُ الخبرِ ما كان فعلِق به البِرتيُّ ، وصانَعه على خمسمئةِ دينارٍ على أن لا يرفع الخبرَ بعينِه ، ولكن يكتبُ أن عجوزاً خاصمتْ زوجَها ، فاستغاثت بالقاضي ، فقال لها : ما أصنعُ يا حبيبتي! هو حُكمٌ ولا بدّ أن أقضي بالحقِّ... »[1] .

واللافت للنظر في هذه القضيّة برمّتها أنّ صاحبَ الخبر كان معروفاً للقاضي مما يجعلني أظنُّ أنّه لم يكن من دأب رجل المخابرات الذي يُراقب القضاة أن يكون شخصيةً سرّيةً غامضة غيرَ معروف أمرُها كما هو دأبه مع المعارضة السيّاسيّة .

---

(١) مصارع العشّاق ٢ : ١٥٨-١٥٩ .

ولكن أرجو ألاَّ يُفهَم من هذا أنَّ هذا القاضي أو ذاك من شأنه أن يعرِف أفراد الجهازبرمَّته ، ولكنَّه كان يعرف من المُوكّلُ بمراقبته ، حتى لم يكن صاحبُ البريد يحتشمُ أن يبعث إلى القاضي من يقول له : إنَّه مأمورٌ بالجلوس معه لمراقبته[1] .

ويزيدُ من تشبُّثي بهذا الظنَّ أن رأيتُ أنَّ صاحِبَ بريد مصر المعروف بقوْصرة يُشارك في سنة : ٢٣٥هـ القاضي ابن أبي الليث في مسألة التحقُّق من أموال بني عبد الحكم[2] ، مما يدلُّ على أنَّ صاحب البريد يكون في العادة عضواً في لجان التحقّق من الأموال واستصفائها .

وإذا كان لهذا من معنًى فمعناه تخويف القضاة من الجَوْر في حُكمٍ من الأحكام ؛ لأنَّه لم تكن هنالك جهةٌ تنظرُ في صحّة الأحكام التي يقتنع بها هذا القاضي أو ذاك . وإنَّما كانت أحكامُ القضاةِ نهائيَّة لا تُراجَع ، ولا يُفتى بصحَّتها أو بخطلِها . ولكنَّ هذا التخويف لم يكن مُجدياً في كلِّ الأحوال ؛ لأنه كان ـ كما يُقالُ ـ سلاحٌ ذو حدَّين ، فهو تخويفٌ لا يعدَم أن يُتَّقى بالرشوة ، أو بسواها . ومشهورةٌ الأبيات التي قيلت في عامر الشَّعبي ، وهو في مجلس القضاء يقضي بين رجلٍ وامرأته ، وكانت جميلة :

فُتِنَ الشَّعبيُّ لمّا رَفَع الطَّرفَ إليها
فَتَنَتْه بدلالٍ وبخطَّيْ حاجبيها
قال للجِلْوازِ : قرِّبها ، وأحضِرْ شاهديْها[3]

أما القاضي الخلنجيّ فقد بلغ من حقد الناس عليه أنْ أخرجه المحَاكون[4] في

---

(١) تنظر قصة القاضي هارون بن عبد الله الذي كان يتولّى قضاء مصر على عهد المأمون مع من بعثَه صاحبُ البريد ليجلس معه ، ومنعَ القاضي إياه من مجالستِه في ولاة مصر : ٢٢٥ .

(٢) السابق : ٢٤٩-٢٥٠ .

(٣) ينظر العقد الفريد ١ : ١١٠ .

(٤) المحاكون : هم من نسمّيهم اليوم بالمُمثِّلين ، والحكاية : التمثيلية . ينظر فن التمثيل عند العرب : ٣٠-٤٧ .

الحكاية هُزءاً به وسخرية ، ولحّنَ الأبيات التي هُجِيَ بها لهم علّويه ؛ حتى لقد اضطُرَّ أن يستعفي من منصب القضاء في بغداد ، وأن يُنقل إلى بلاد الشام[1] .

ولا أريد أن أستوفي ما هُجي به القضاةُ ، ولكن أريد أن أشير إلى ما هجا به أبو حكيمة الكاتب يحيى بن أكثم قاضي قضاة المأمون ، وما بلغ الناس من رأيهم فيه حتى اضطُرَّ الذهبيُّ في تاريخه أن يُدافِع عنه دفاعاً مُتهافتاً[2] .

وعلى هذا رأينا أنَّ من أمثالِ المولَّدين من البغادِدَةِ : « عنايةُ القاضي خيرٌ من شاهدي عدل »[3] ، فإذا آمنَّا أنَّ الأمثال هي خلاصة تجارب الشعوب قلنا : إنَّ هذا المثل كان من تراكم تجارب أهل بغداد مع القضاء ؛ ومثلُه كنايتُهم عن الرشوة : « بِصَبِّ الزيتِ في القنديل . وربما قالوا لذلك : القندَلَة »[4] .

وإذا كان المثلُ عامّاً لايكادُ يُخصَّصُ فإنَّ ابن لنكك البصري قد خصَّصه بقوله يهجو القضاة :

أقول لعصبةٍ بالفقهِ صالت	وقالتْ : ما خلا ذا العِلمِ باطلْ :
أجلْ لا علمَ يوصلِكمْ سواهُ	إلى مالِ اليتامى ، والأراملْ
أراكمْ تقلبون الحُكمَ قَلباً	إذا ما صُبَّ زيتٌ في القنادلْ[5]

وليس مُهمّاً بعد هذا أن نعرف متى استُحدِث ـ على وجه الدقَّة ـ هذا المثل ، بمقدار ما نعرِف أن الناسَ لم يُبرِّئوا القضاة من الرشوة ، والهوى ، وما إليهما ؛ مما يدلُّ على ما قرَّرتُه من أن تخويف القضاةِ بمراقبة أفراد الجهاز كان سلاحاً ذا حدَّين .

وكانت سلطة صاحب البريد ، وهي أعلى من سلطة القاضي ـ تُضِيرُ ببعض القضاة المشهود لهم بالنزاهة ؛ فقد كان القاضي « إسماعيل بن اليَسَع رجلاً

---

(١) ينظر الأغاني : ٢٩٧٧ .

(٢) ينظر ديوان أبي حكيمة : ١١٠-١١٥ . وتاريخ الإسلام (حوادث : ٢٤١-٢٥١) : ٥٤٠ .

(٣) الأمثال : ١٨١ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٥٥ ، ورواية التمثيل والمحاضرة : ١٩٣ « حُسن رأي القاضي... » .

(٤) الكناية والتعريض : ٥٣ .

(٥) السابق : ٥٣ .

صالحاً... وكان إبراهيم ابن صالح بمصر أميراً ، وسراج بن خالد على البريد ، فأراداه على الحكومة لهما بشيءٍ ، فامتنع فاحتالا له بعسامة بن عمرو [صاحبِ شرطة مصر] فأدخلَه حمّامَه ، وأطعمه سمكاً فمرِض ؛ فكتَبَ إبراهيم بن صالح ، وسراجُ بن خالد إلى المهديّ يذكران أنّه فُلِجَ ، فكتَب بصرفِهِ»[1] .

وليست قضيّتنا الآن أن يكون السمك وحدَه قد أضرَّ بصحّته أو أن شيئاً آخرَ دُسَّ في السمك يضمن لهما أن يمرض بعد تناولِه ، وإنّما قضيتنا أنه لماذا لم يكتب صاحبُ البريد بشيءٍ يفتئتُ به عليه ويكذبُ من قبيل أن يقول : إنّه حابى في حُكم ، أو جهِل حكماً أو ما أشبه كما صنع صاحبُ البريد بابن أبي الليث القاضي[2] ؟

والجوابُ في رأيي أن مجلس القضاء كان مجلساً عامّاً ينعقد في مسجدٍ من المساجدِ بمرأى من الناس ، ومحضر ، فيصعُب على صاحب البريد أن يكذب على هذا القاضي أو ذاك كذبةً مُعرَّضة للانكشاف بشهادة الشهود ، مما يُعرِّض صاحب البريد أن يخسر منصبَه . هذا إلى أن التشديد على أصحاب البريد أن يكتبوا الأخبار بألفاظها كما وقعت[3] يمكن أن يدلّنا على ما يُمكن أن يتعرَّض له صاحب البريد من عقوبة فيما لو كذِب كذبةً يمكن أن تُكتشف بسهولة .

وإذا كنّا رأينا أن العُمّال والقضاة من موظّفي الدولة ممن يوضعون تحت رقابة جهاز المخابرات فإنّ ذلك لا يعني أنّ مَن هم دونَهم في الأهميّة بمنجىً من هذه الرّقابة ، فقد روي عن إبراهيم المعروف بالأغرّ أنّه أُمِر بالقيام على أحد البثوق ، وتعلية السدود إلى حين انقضاء موسم زيادة الماء ، فقال : «أقمتُ على هذا السَّكْرِ زماناً طويلاً... وكان لي منزلٌ بجسر النهروان ، وبيني وبينه مدًى قريب فكنتُ لا أتجانبه[4] على الإلمامِ به ، ولا على دخول الحمّام إشفاقاً

---

(١) تاريخ ولاة مصر : ٢٨١ .

(٢) تنظر قضيته مع صاحب البريد قوصرة في تاريخ ولاة مصر : ٣٥٠ .

(٣) ينظر الكناية والتعريض : ٢٢ .

(٤) كذا هي في النص ، ولعلها تصحّفت عن : لا أتجرّأ...

من أن يكتب صاحبُ الخبر بجسر النهروان بخبري»[1] .

وواضحٌ جداً أن وضع إبراهيم الأغر ـ شأنُه في ذلك شأن زملائه ـ تحت رقابة الجهاز ، على الرغم من أنه يكاد يكون من الموظّفين الذين لا شأن لهم ، أقول : إنّ وضعَه تحت رقابة الجهاز الغرضُ منه إشعارُه بهيبة الدولة مخافة أن يستخفَّ بها وبأربابها ، ثمَّ ضمان ألاّ يُهمل واجبَه فيتسبَّب في غرق الناس ، ومزارعهم .

وكما وُضِعت الجسور ، والسدود تحت أنظار الجهاز وُضع عمّال الخراج وجُباتُه تحت أنظاره[2] ، بعد أن كان هؤلاء العُمالُ أنفسُهم ، وبعضُ الدهاقين يقومون بالتجسس ، ونقل بعض أخبار الخارجين على الخلافة الأموية أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي[3] .

وكان كتّاب الدواوين يُوضعون تحت رقابة الجهاز أيضاً ، ويبدو أن ذلك كان يهدف ـ من جملة ما يهدف ـ إلى ضمان حُسن سير أداء هذا الديوان أو ذاك .

فمن ذلك ما رواه أبو الحسن ولد عمارة صاحب ديوان جيش عضد الدولة البويهي من أنَّ بعض خواص الأتراك «دخل... إلى ديوان الجيش ، ومعه صكٌّ يريدُ أن يُثبتَه فقال للكاتب : أثبِتْه ؛ فقال : أنا مشغولٌ بعملٍ استدعاه الملكُ ، وما أنا متفرِّغٌ لصكِّك اليومَ ؛ فأخذ الحسابَ من يده ووضَعَه في الأرض ، وقال : قدِّمْ أمري أوّلاً ؛ فكتب صاحبُ الخبر بذلك ، فلم يستتِمَّ الكاتبُ إثباتَ الصكّ حتى استدعاني عضدُ الدولة ، وقال : قد جرى من فلانٍ الديلمي كذا وكذا ، فاخرُج إلى ديوانك واستدعِ الصكَّ من كاتبِك ، وحرِّقْه بين يديك ، وتقدَّمْ بأن تُجرَّ رِجْلُ الديلمي من موضعِه إلى باب العامّة...»[4] .

وليس يهمّني أن غضبة عضد الدولة لم تكن لواحدٍ من عامّة الجُندِ اعتدى

(١) ذيل تجارب الأمم : ٦٩ .

(٢) ينظر الوزراء : ٢٨١ .

(٣) ينظر الكامل في التاريخ ٣ : ١٠٥-١٠٦ .

(٤) ذيل تجارب الأمم : ٤٦-٤٧ .

على حقِّه رجلٌ من خاصة الأتراك ، وإنَّما كانت لنفسِه ، ولدولتِه بمقدار ما يهمّني أن مثل هذه الأعمال مما يرصدُه الجهازُ ، ويكتب به أوّلاً بأوّل .

ويمكنني أن أزيد هنا أن من بين أهداف الرقابة حماية الكاتب من أن يفرض عليه أحدٌ طبيعة عمله ؛ فيؤخِّر بهذا الفرض ما يُطلَبُ إليه تنفيذه من أعمال .

ومن باب حفظ هيبة الدولة أنَّه أُنيط بالجهاز أن يراقِب قصرَ الخليفة نفسِه ، أو قصر الحاكم الفعلي في عصر ضعف الخلافة .

فقد ارتاب الخليفة الهادي بجاريتين من جواريه أنَّهما تتساحقان ، فوكَّل بهما خادماً من خدمِه يرفع إليه أخبارهما ، فتمكّن الهادي من أن يجدهما تحت لحاف واحد ، وفراشٍ واحدٍ تتساحقان فقتلَهما ، وقطع رأسيهما[1] .

وإذا كانت مراقبة الهادي قصرَه مما يُمكنُ أن يُنسب إليه لا إلى الجهاز فإنَّ لدينا أخباراً صريحة تقول إن نشاط الجهاز كان يطول قصورَ الخلفاء أنفسِهم . فمن مُهمات الجهاز في قصر الخليفة السهرُ على حفظ قواعد رسوم الخلافة أي مما نصطلح عليه اليوم بقواعدِ البروتكول لئلاً يخرقه أحدٌ من أرباب الدولة أو من المُقرَّبين إلى دار الخلافة .

فقد حضر محمد بن عمر العلويّ «دار المطيع في أيام شرف الدولة ، ومعه نحرير الخادم ، ومحمد بن الحسن بن صالحان الوزير إذ ذاك ، وابن الخياط صاحب ديوان الرسائل ، والحسن بن محمد بن نصر صاحب ديوان الخبر والبريد ، وكلُّهم بالسواد سوى محمد بن عمر فإنّه كان ببياضٍ ؛ فخرج إليه مؤنس الفضليُّ الحاجب... وقال لمحمد : ليس هذا اللباس أيها الشريفُ لباسَ الدارِ ، ولا حضورُك حضور من يريدُ الوصولَ ؛ فقال له : كأنك أنكرتَ البياضَ ،

(١) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ٤٢٥ ، وتلقيح العقول : ٥٥ . وقد زاد صاحب التلقيح أنه تمثَّل بعد قتلهما بقوله :

يلومني من جَهِل الأمرا ... فكيف لي أن أسمع العُذرا
من كان ذا صبرٍ على مثل ذا ... فلستُ فيه أملك الصبرا

قال : نعم ، قال : هذا زيّي وزيُّ آبائي . قال : ما الأمرُ على هذا ولا رأيتُ أحداً من أسلافك إلاّ بالسواد ... »(١) . فخرج محمد العلوي بإرادته ولم يُقابل الخليفة .

ويمكن أن نلاحظ أنّ في لباس محمدٍ البياضَ تحدّياً لسلطة الخليفة ؛ لأنّ محمّداً يعرف أن لباس العباسيّين السواد ، وأنّ لباس خصومهم ، وأبناء عمومتهم العلويين البياض مما يجعل قارئ الخبر ـ لأوّل وهلة ـ يظنّ أن ردّ فعل مؤنسٍ الفضليّ مردُّه إلى هذا التلميح السياسي القاسي ، ولكن ذلك ليس كلّ شيء .

وأريد ألاّ يظنّ أحدٌ أنّ مراقبة زوّار الخليفة المطيع كانت من مهمّاتِ مؤنس الفضليّ ؛ لأنّ مؤنساً حاجبٌ كلُّ ما عنده أن يُخبر الخليفة بمن حضر إلى داره يريد مقابلتَه ثم يمتثِلُ في إدخال من يشاء له الخليفةُ الدخول عليه ، وفي منع من لا يريدُ أن يقابِله .

هذا إلى أن الحاجب يقف على موضع قريب من الخليفة ، على حين أنّ زوّارالخليفة الذين ينتظرون الإذنَ لهم في الدخول يكونون عادةً في غرفةٍ بعيدة عن غرفة الخليفة يمكن أن نسمّيها غرفة الانتظار ، وهي غرفةٌ بعيدةٌ عن أنظار الحاجب ، مما يدلُ على أن أصحاب الأخبار هم الذي يُنهون للحاجب أو إلى الخليفة ما عليه زوّارُه من خرق رسوم دار الخلافة .

وإذا كان أصحابُ الأخبار لم يُطِلّوا برؤوسهم واضحة المعالم والملامح هنا ؛ فإنّ نشاطاتهم مع زوّار الخليفة وسواه من أهل السلطة الفعلية واضحةٌ تماماً فيما يُروى من مثل هذه الأخبار .

فقد حدّث جعفرُ بن ورقاء الشيباني قال : « كنتُ في أيامِ المعتضِد... مع نظرائي من أولاد الأمراء والقوّاد ، مرسومين بالمقام في الدار [يعني دار الخلافة] على رسم الخدمة بنوائب [جمع : نَوْبة] كانت لنا ، وكنّا نجتمع في حجرةٍ نستريح فيها بعد انقضاء الخدمة ، وانصراف الموكب ؛ فننزع خِفافَنا ، ونضع

---

(١) رسوم دار الخلافة : ٧٣-٧٤ .

عمائمنا عن رؤوسنا ، ونلعب بالشطرنجِ والنرد ، فاطَّلع علينا أحدُ أصحاب الأخبار ، فكتب بخبرنا إلى المعتضد بالله ، ونحن لا نعلم . فلم يبعدْ أن خرج خادمٌ صغيرٌ من خواص الخدم ، وفي يده الفصل المرفوع في أمرنا ، وعلى ظهرِهِ بخطِّ المعتضد... حكايتُه : يستصفعون ، وما لهم من صافح ، فسلَّمه إلى خفيف السمرقندي الحاجب ، فحين وقف على التوقيع انزعج ، ونهض واستدعى مَن كان في النوْبةِ ، فضرَب كلَّ واحدٍ منهم عِدّةَ مقارع ، فما رُئي بعد ذلك إلاّ لازمٌ للتوفُّر على الخِدمة ، متجنِّبٌ للتبذُّل »(١) .

وإذا كان هؤلاء قد ضُربوا ؛ لأنَّهم يعملون في دار الخلافة نفسها مما يجعلنا نظنُّ أن أصحاب الأخبار موكَّلون بموظَّفي الدار أو من هم بمثابتهم فإنَّ ما ذُكِر من أن زائراً لعضد الدولة البويهي يُدعى أبا الهيثم « حضر يوماً في دار عضد الدولة ، وأخذ عمامَتَه من رأسِه ، ووضعها بين يديه ، ورآهُ بعضُ أصحاب الأخبارِ ، فكتب بما كان منه ، وخرج أستاذُ دارٍ ، فحزَق به [بمعنى : ضيَّق عليه] ، وشتَمه ، وأخذ العمامة وضرب بها رأسَه حتى تقطَّعت قِطَعاً ، ووكَّل به واعتقَلَه ، فسُئل فيه عضدُ الدولة ، وقيل : هذا رجلٌ محرور الرأسِ ولا يستطيع ترك العمامة على رأسه ، وإنما فعل هذا لا لجهلٍ بآداب الخدمةِ ، فبعدَ مراجعاتٍ ما ، أمر بإطلاقِه »(٢) . أقول : إنَّ ما ذُكر لايؤيِّد ذلك .

وعلى العموم كان من مُهمّات أصحاب الأخبار في دار الخلافة أن يرصدوا من يجلِسُ وهو واضعٌ رِجلاً على رِجلٍ ، أو من يجلِسُ وهو مكشوف الرأسِ ، ومن يتبذَّل ، ومن يرفث(٣) فيقول شيئاً يخدشُ الحياء ، وهكذا .

وينبغي لي أن أُقرِّر الآن أنه لم تكن مراقبةُ أصحاب المناصب الكبيرة من مثل الوزراء ، والولاة ، والقواد لتخلو من تعرُّفٍ على نيّاتِهم السياسيّة ؛ فقد روي

---

(١) رسوم دار الخلافة : ٧١-٧٢ .

(٢) السابق : ٧٧ .

(٣) نفسه .

عن الخليفة أبي جعفر المنصور أنَّه قال يُشاوِر أحد ثقاتِه : « إنَّ صاحِبَ اليمن قد همَّ بمعصيتي ، وإني أريدُ أن آخذه أسيراً ، ولا يفوتني شيءٌ من مالِه »[1] .

ولا بدَّ أن يكون صاحب البريد هو الذي رفع إلى الخليفة نيَّة عامله على اليمن بحيث جاز له أن يقول : إنَّه همَّ بمعصيته . وإلاَّ فمن أين علم الخليفة وهو في العراق بنيَّةِ عامله على اليمن ، وهي ما تزالُ نيَّةً فقط ؟!

وخبرٌ أوضحُ من هذا عن كلثوم بن ثابت... وكان يُكنى أبا سعدة قال : « كنتُ على بريد خراسان ، ومجلسي يوم الجمعة في أصل المنبر ، فلمّا كان في سنة سبعٍ ومائتين بعد ولاية طاهر [يعني طاهر بن الحسين] بسنتين حضرتُ الجمعة فصعدَ طاهرٌ المنبرَ فخطبَ ؛ فلمّا بلغَ إلى ذكر الخليفة أمسكَ عن الدُّعاءِ له... قال : فقلتُ في نفسي : أنا اوّل مقتولٍ لأني لا أكتم الخبرَ ، فانصرفتُ... وكتبتُ إلى المأمون . قال : فلمّا صليتُ العصرَ دعاني . وحدث به حادثٌ في جفن عينيه ، وفي مآقيه فسقطَ ميّتاً . قال فخرج طلحةُ بن طاهر ، فقال : ردُّوه ، ردُّوه ، وقد خرجتُ فردّوني ، فقال : هل كتبتَ بما كان ؟ قلتُ نعم . قال : فاكتب بوفاتِه ، وأعطاني خمسمائة ألفٍ ، ومائتي ثوبٍ ، فكتبتُ بوفاته ، وقيام طلحة بالجيش »[2] .

وواضحٌ أن أبا سعدة قد وقع في ورطةٍ ، وذلك أنه يخاف من طاهر بن الحسين لأن طاهراً لم يكن والياً للمأمون أيَّ والٍ ، وإنما هو الذي مهّد الأمور للمأمون أن يكون خليفةً ، وهو يخاف من المأمون إذا لم يكتب إليه بما حدث . لأن طاهراً فعل هذا من قبلُ ثلاثَ جُمعٍ مما يدلُّ على نية العصيانِ . حتى لقد بلغ الأمرُ بالمأمون أن عاتبَ وزيره : أحمد بن خالد الذي أشار بتولية طاهر ؛ فقال له أحمد : « يا أمير المؤمنين طِب نفساً ، فبعد أيامٍ يأتيك البريد بهلاكه . ثم إنَّ أحمد أهدى لطاهر هدايا فيها كواميخ مسمومة... فأكل منها فمات من ساعتِه... »[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢١٠-٢١١ .

(٢) بغداد : ٧١-٧٢ .

(٣) الفخري : ٢٢٤ .

ومما يتّصل بمراقبة النيّات السياسيّة لأرباب الدولة هو أنّهم كانوا يوضعون تحت الرّقابة حتى بعد عزلِهم عن منا صبهم . فقد رفَع الجهازُ أخبار أبي محمد بن النّسويّ ، وكان صاحبَ شرطةٍ معزولاً[1] .

وقد عزَل الخليفةُ المقتدي وزيرَه أبا شجاع الرُّوذراوَري عن الوزارة ؛ « فخرج بعد عزلِه ماشياً من داره إلى الجامع ، وانثالت عليه العامّةُ تصافِحه ، وتدعو لهُ »[2] فبلغ الخبرُ الخليفةَ ، « وقيل له : إنما فعل ذلك شناعةً على الدولة ؛ فتقدَّم إليه بلزوم دارِه ، وألاّ يخرج عنها »[3] .

وإذ كان الخليفة يراقِب وزراءه في حاليْ توليتهم وعزلهم ، فإنّه لم تكن هذه المراقبةُ ـ كما يبدو ـ غائبةً عن أذهانِهم حتى إنَّ بعض الخلفاء كانوا يُجلِسُون « مع الوزير صاحبَ خبرٍ من الثقاتِ يُنهي ما يجري في مجلسِه ؛ فلا يُحسِنُ الوزيرُ لأحدٍ ، ولا يجتمعُ به أحدٌ من الناسِ إلاّ بحضور ذلك الشخص... »[4] .

ومن هنا كان يُهمُّ طائفةً من الوزراء أن يكون لهم في دار الخلافة مَن يتجسَّسُ لهم على الخليفة لعلّهم يعرفون نيّاته إزاءهم ، وإزاء وزاراتِهم ؛ فقد كان يحيى بن خالد البرمكيُّ « قد وضع كاتبَه إسماعيل بن صبيح كاتباً لإبراهيم الحرّاني ، وكان إبراهيم في موضع الوزارة ، ليتعرَّف له أخبار الخليفة موسى الهادي »[5] . وكان يحيى نفسه « قد اتَّخذ من خُدّام الرشيدِ خادماً يأتيه بأخبارِه »[6] . فإذا تذكَّرنا ما سبق أن قرَّرتُ أنّه كان هنالك جهازٌ تابع للوزير أدركنا كيف يتهيَّأ لبعض الوزراء معرفة أخبار خلفائهم في بعض الأحيان .

ولم يكن الوزراءُ وحدَهم ممن يتجسَّس على الخلفاء ، وإنّما بعضُ حُجّابِ

---

(١) ينظر تاريخ الإسلام (حوادث ٤٢١–٤٤٠) ، ٣٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٥ : ١٣٥ .

(٣) المحمدون من الشعراء ، ٣٤٢ .

(٤) آثار الأول ، ١٧٩ .

(٥) تاريخ الطبري ٦ ، ٤٢٢ .

(٦) الكامل في التاريخ ٤ ، ٢٩١ .

الخلفاء ؛ فقد كان نصر القشوريّ ، وقد مرَّ بنا ذلك ، حاجب الخليفة المقتدر ـ على سبيل المثال ـ قد اتَّخذ من بعض خوّاص الخليفة من يوافيه بأخبارِه[1] .

وكان لابن أبي الساجِ خدَمٌ في دار الخليفة «لا يُخفون عنه الأنفاس»[2] .

وقد كان المأمون قبل أن يُستخلف قد اتَّخذ من مسرورٍ سيّافِ أبيه هارون الرشيد عيناً عليه ، وكان أخوه الأمين قد اتَّخذ من طبيبه جبرائيل بن بختيشوع عيناً عليه أيضاً[3] ، وذلك من أجل معرفة نيّاتِ أبيهما بشأنهما .

والحقُّ أنَّه لم يكن هذا السلوك خاصّاً بالوزراء ، وأولاد الخلفاء حتّى لكأن الجهاز ، وحُبَّ السلطة قد أفسدا الناسَ ، فصار الابنُ لا يتورَّع أن يتجسَّس على أبيه ، وأن يسعى به إلى صاحب الأمر ؛ فقد كان إبراهيم بن عثمان بن نُهيك ـ وهو صاحب شرطة الرشيد ـ كثير التفجّع ، والبكاء على جعفر بن يحيى البرمكي ، وسائر البرامكة بعد قتلِهم ، وكان إذا سكر في بيتِه مع جواريه أخذ سيفه ، واسمه ذو المنية ، وهزَّه مُتوعِّداً بأنَّه سيأخذ بثأر جعفر بن يحيى ، فجاء ابنُه عثمان إلى وزير الرشيد الفضل بن الربيع فأخبره بما يكون من أبيه في بيتِه ، فأخبر الفضلُ الخليفة ، فاستدعى غلام ابن نُهيك المدعو نوال ؛ فشهد عليه بمثل ما قال ابنُه ، فدعا الرشيد صاحب شرطته إلى مجلس أُنسٍ فلمّا سكر قال له : « ... إنّي قد ندمتُ على قتل جعفر بن يحيى ندامةً ما أُحسِنُ أن أصفها ، فوددتُ أني خرجتُ من ملكي ، وأنه كان بقي لي ، فما وجدتُ طعمَ النوم مذ فارقته ، ولا لذَّة العيش مذ قتلتُه... فلما سمعها إبراهيمُ أسبل دمعَه ، وأذرى عبرتَه ، وقال : رحم الله أبا الفضل ، وتجاوز عنه ، والله يا سيّدي لقد أخطأتَ في قتلِه... فقال الرشيد : قُم عليك لعنة الله يا ابن اللخناء ؛ فقام ما يعقِلُ ما يطأ فانصرف... »[4] ، فما مضت إلاّ ليالٍ حتى أوعز الرشيدُ ـ كما يبدو ـ إلى ابنه أن يقتلَه ، فدخل عليه فقتله بسيفه .

---

(١) ينظر الوزراء : ٢٩٠ .

(٢) أخبار الراضي : ٢٧ .

(٣) تاريخ الطبري ٦ : ٥٢٤ .

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٥٠٤ ، وينظر الكامل في التاريخ ٤ : ٧٣ .

ومثل ما فعل عثمان بن إبراهيم مع أبيه فعل عبد الرحمان بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ـ والي الرشيد على الموصل ، وعلى مصر من بعد ـ فقد نصبه الرشيدُ يتسقَّط له أخبار أبيه فسعى به أنه يريد الخلافة لنفسه ، وأنه يطمعُ فيها ، وكان شهِد بذلك أيضاً كاتب عبد الملك المدعو قمامة ، فسلَّم الرشيد عبدَ الملك إلى الفضل بن الربيع ، وأمره بحبسه[1] .

وغايةُ ما يطمحُ إليه جهازُ المخابراتِ من النجاحِ في إفساد ذمم الناس ، وتخريب أخلاقهم بزعم الحفاظ على الاستقرار السياسيِّ هو أن يتخذَ الابنُ عيناً على أبيه والزوجةُ على زوجها ، والأخُ على أخيه ، وهكذا .

وكان للجيش وقوّاده شأنٌ في استقرار الأمور السياسيّة ؛ مما جعَل الجهاز يوليهم عنايةً خاصّةً ، خوفاً من شغبِهم مرّةً ، وادّراءً لما يثيرونه من متاعب سياسيّة لأولي الأمر مرّة ثانية ؛ فقد أعيا أحدُ أمراء الجند الأتراك أحمدَ بنَ طولون صاحبَ مصر حتّى أمرَ أحدَ أصحابَ الأخبار أن يستأجرَ أو أن يشتري داراً تكون ملاصقةً إلى دار الأمير التركيِّ التي يشرب فيها هو وجاريتُه ؛ ففعلَ حتى إذا اطّلع منه على هفوةٍ ينتقص فيها ابن طولون أثناء سُكرِه ، وأبلغ بها ابنُ طولون ، قال له : « ... ما كان ذنبي إليك حتى تشتمني ، وتستنقصني... فما الذي أوجب منك هذا ؟ فتحيَّر التركيُّ وبُهِتَ... »[2] .

وقد وكَّل الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان ـ على ما يبدو ـ ببدرٍ صاحب جيش الخليفة المعتضد من يأتيه بخبرِه ؛ فكان من جرّاء ذلك أن لم يستطع بدرُ الاجتماع بابنِه إلى أن قُتِل[3] .

وبلغ الخليفة المهتدي اجتماعُ القواد الأتراك في دار موسى بن بغا ، وكانوا قد قرَّروا في هذا الاجتماع خلعه من الخلافة ، « فأمر بإدخالهم عليه ، فدخلوا فقال

---

(١) المصدران السابقان ٦ : ٤٩٧ ؛ و٤ : ٦٩ . وقمامة هو قمامة بن يزيد ، كما في الفهرست : ٥٢٥ .

(٢) آثار الدول : ١٨٣ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٨ : ٢١٠ .

لهم : بلغني ما أنتم عليه ، ولستُ كمن تقدَّمني مثل المستعين والمعتز... »[1] ، وكان الذي أنهى إليه الخبرَ أحمد ابن خاقان الواثقي[2] .

وإذاً أكادُ أكونُ مطمئناً إلى أن قوّاد الجُندِ ، والشرطة كانوا تحت رقابة الجهاز ، ولم تكن هذه وظيفته فحسب ، وإنما كان من وظائفه أيضاً اغتيال الخطرين منهم ، كما كان من مهمّاتِه اغتيال الخطرين من المعارضة السياسيّة ؛ ولكن اغتيال القادة لم يكن يتمُّ بالسهولة التي تتمُّ بها عمليّات اغتيال المعارضة ، والسبب في ذلك « أنَّ لهم من النفوذ ما يجعل لهم جواسيس في دار الخلافة نفسِها ، ينقلون إليهم ما يدور فيها ، ومنها أنهم أهلُ سلاحٍ ، وشجاعةٍ ، وخبرةٍ ، وحذر... »[3] . ويمكنني أن أزيد على هذا أنَّ هؤلاء القادة بحُكم قُربِهم من دار الخلافة ، وتمرُّسِهم بما يُحاك للخصوم فيها من أساليب في التخلّص منهم كان من الممكن جداً أن تتبادر إلى أذهانهم الأساليب التي يمكن بها التخلّص منهم . فإذا زِدنا على ذلك أن ليس هنالك من قائدٍ من هؤلاء القادة لا يعرف أساليب الاستخبارات العسكرية في عملِها أدركنا لماذا كان التخلّص من القادة يختلف في طرائقه عن كيفية التخلّص من المعارضين السياسيين .

من هنا كان على الخليفة المقتدر ـ وهو يفكّر بالتخلّص من مؤنس المظفّر ـ أن يُفكّر بطريقة خفيّة لاغتياله ؛ فكان أن « تقدَّم إلى خواصِّ خدمِه بحفرِ زُبْيَةٍ[4] في الدار المعروفة بدار الشجر... حتى إذا حصل فيها مؤنسٌ عند الوداع إذا أراد الخروج إلى الثغر حُجِب الناسُ ، وأُدخِل مؤنسٌ وحدَه إلى ذلك الصحن ، فإذا اجتاز على تلك الزُبية ، وهي مُغطّاةٌ ـ وقع فيها ، ونزل الخدم وخنقوه ، ويُظهَرُ أنّه وقع في سردابٍ فمات »[5] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٤ : ٤٢٠ . وينظر تاريخ الطبري .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٧ : ٥٧٠ .

(٣) الاغتيالات السياسية في العصر العباسي : ١٢٥ .

(٤) الزُبية : حُفرةٌ تحفَر ثمّ تغطّى تغطية هي من جنس الأرض التي حُفرت فيها بحيث لا تُكتشَف .

(٥) تجارب الأمم ٥ : ١٦٠ .

وهكذا يكون المقتدر ـ إذا نجحت محاولة الاغتيال ـ قد ضربَ عصفورين ، كما يقولون ، بحجرٍ واحدٍ أن يتخلَّص من مؤنس ، ثمَّ ألاَّ يكتشف أتباعُه حقيقةَ موته فيشغبوا على الخلافة . ولكن المحاولة لم تنجح رغم دقَّة تخطيط نجاحها لسببٍ لم يضعه الخليفةُ المقتدر في اعتباره هو أن خاصَّة خدمِهِ كانوا قد اخترَقهم قوادُ جيشه ، فقد أخبر أحدُ هؤلاء الخدم مؤنساً بما يُدبَّر له ؛ فلم يحضر إلى دار الخلافة .

وكانت الدولةُ تستعمل هذا الجهازَ باعتباره مجسَّاتٍ تَستقرئ اتّجاهات الرأي العام في تولية من تريد أن تُولِّيهم على أعمالها ، فقد يحدث أن يُفكِّر الخليفة بتكليف فلانٍ أو فلانٍ ـ وكان هذا في عصور ضعف الخلافة خاصة ـ بهذا المنصب أو ذاك فيكُلِّف أفرادَه ببث الإشاعات أن فلاناً أو فلاناً سيكلَّف ، ثمَّ يجمعون ردودَ أفعال الناس على الأسماء المرشَّحة للتكليف .

روي عن الناصر لدين الله العبّاسي أنّه إذا أشكل عليه حالُ رجلٍ يريد أن يستعمله« أن يُشيع بين الناس أنّه يريد أن يولّيه المنصب الفلانيَّ ، ثمَّ يتمادى في إبرام ذلك أياماً فيمتلئ البلدُ بالأراجيفِ لذلك الرجل ، فقومٌ يصوِّبون ذلك الرأيَ ، ويصفون فضائل الرَّجُل ، وقومٌ يغلِّطون الخليفةَ ويذكرون عيوبَ الرَّجُل ، وللخليفةِ عيونٌ وأصحابُ أخبارٍ لا يُؤبَه لهم يخالطون أصناف الناس ، فيكتب أصحابُ الخبر إليه بما الناسُ فيه من الغليان في ذلك... »(١) .

وأستبعد أن يكون هذا النظام من مستحدَثات الناصر لدين الله رغم أنّه كان مُتميِّزاً من بين الخلفاء العباسيين كافة باهتمامه بهذا الجهاز ؛ حتى قيل عنه : إنه« ... كان كلُّ أحدٍ من أرباب المناصب والرعايا يخافُه ويحذرُه ، بحيث كأنّه يطَّلع عليه في داره ، وكثرت جواسيسه ، وأصحابُ أخباره عند السلاطين ، وفي أطراف البلاد »(٢) .

أقول : على الرغم من هذا الاهتمام الكبير إلاَّ أنني استبعد أن يكون الناصر

---

(١) الفخري : ٣٩٠ .

(٢) السابق : ٣٢٢

هو الذي استحدث هذا النظام لأنني رأيتُ ما يُشبهه قبل خلافته بما يقرب من ثلاثة قرون ، فيما رواه أبو المحسّن الصابي إذ قال : « وأما أبو المنذر النعمان بن عبد الله... فاتّفق أن خرج في بعض الليالي من دار ثمل القهرمانة ، ومعه إبراهيم حاجبُه ، فرآه أحدُ أصحاب الأخبار الذين لابن الفرات ، فكتب إليه بخبرِه ، وبأنه سمعه يقول لبعض العُمال المعطّلين ، وقد لقيه في طريقه : : ما عندك من الأخبار ؟ قال : كثرةُ الأراجيف بابن الفرات ، فقال له النعمان على أن يكون الوزير من ؟ قال : أنت ، أو محمد بن عليٍّ المادرائي ، أو عبيد الله بن محمد الخاقانيّ . والأقوى في الظنون أنت . فقال له : ومَن لهم بأن أساعدهم على ذلك »[1] ؟

ويلفِت النظر في هذا الخبر أشياء منها أن الناس يُرجّحون استيزار النعمان بن عبد الله ، وهو لا يعلم من هذا شيئاً رسمياً إذ لم يُفاتَح بالمنصب ، ومِن هنا قال : « ومن لهم بأن أُساعِدهم على ذلك » ؟ وكأنه يعرف استناداً إلى تجارب سابقة أنّ مثل هذه الإشاعات لا تنطلق من فراغٍ وإنما الذي يبثُّها جهاز المخابرات بأمر من الخليفة . ومنها أنّ الوزير ابن الفرات يترصّد له رجالُه مثل هذه الإشاعات وكأنَّها إنذارٌ بانتهاء دولتِه ، ووزارتِه ؛ لأنه يعرف أيضاً أنّها لا تنطلق من فراغ .

وبلغ ابنُ الفرات من أخذ الأمر مأخذ الجدّ وقد سمع أنّ المرشّح الأقوى للوزارة هو النعمان أن سلّم الفصلَ المرفوع إليه لابنه المحسن ـ وكان جلّاداً قاتلاً للنفس يخافه الناسُ ـ « وأمَرَه بإحضار النعمان ، وأن يعرض عليه ولاية الأعمال بالأهواز وفارس ؛ فإن استجابَ حملَه معه ليكتبَ إليه الكتبَ ويخرجَ إلى عملِه ، وإن امتنع أوقفَه على الفصل وقال له : ليس يصلحُ للوزير ولا لي مُقامك بالحضرة... فأقرأه حينئذٍ الفصلَ من رقعة صاحب الخبر ، وتقدَّم إليه بالخروج إلى حيث يريد ، فاختار واسط ، وانحدر إليها لحينه »[2] .

وكان ابن الفرات يبلغ من اليقين بأنّ الإشاعة صادرةٌ عن هذا الجهاز بحيث

(١) الوزراء : ٤٨ .

(٢) السابق : ٤٨-٤٩ .

أمر ابنَه أن يُخيِّرَ النعمـان بين القتل الذي عبَّر عنه بقوله : « ليس يصلح... مقامك بالحضـرة » والولاية... ولما كـان النعمـانُ يُدرك جدّية التهـديد ويدرك أن دخان استيزاره لم يكن من غير نار ، وهو راغبٌ في هذا الاستيزار ـ ولا عليك بتمنّعه الكاذب ـ توصَّل إلى هذا الحل الوسط أن يَسلَمَ على حياتِه فيقبل بالولاية ولكن على واسط لا على مكان بعيدٍ عن الحضرة التي هي بغداد .

ولم يكن ـ في رأيي ـ أيٌّ من الرجلين مبالِغاً فيما انتابه من هواجسٍ وفيما تصرَّف فيه ؛ لأن كليهما يعرفان مدى تكتُّم الخلافة على أخبارِها[1] من ناحية ، ومدى اهتمام الجهاز بالإشاعات والأراجيف ، حتى ما يتعلَّق منها بمرض هذا الخليفة أو ذاك ، وقد رأينا في الفصل الثالث من أمر الخليفتين : المنصور والقادر ما يقوم شاهداً على ما نقول . ونرى الآن أنَّه حتى في أحطِّ دركٍ بلَغَتْه الخلافةُ العباسيةُ من الضعف بقي هذا المبدأ معمولاً به ؛ فقد أصيبَ الخليفةُ القائم بالجدري فكُتم ذلك إلى أن عُوفِيَ[2] .

ويمكن أن نستدلّ على خوف أصحاب المناصب من الإشاعات التي يمكن أن تؤدّي إلى عزلهم عن مناصبهم بما رواه أبو حيّان التوحيديّ من أن الوزير ابن سعدان سأله عمّا يسمع من العامة عن سيرة الوزير فقال له : « سمعتُ بباب الطاق قوماً يقولون : اجتمع الناسُ اليوم على الشطِّ ؛ فلمّا نزل الوزير ليركبَ صاحوا وضجّوا ، وذكروا غلاء القوت ، وعوز الطعام ، وتعذر الكسب ، وغلبة الفقر وتهتّك صاحب العيال ، وأنه أجابهم بجوابٍ مرٍّ مع قطوب الوجه... : بعدُ لم تأكلوا النُّخالةَ »[3] .

وأقسم الوزيرُ أنه لم يقُل هذا ولا مرَّ له على بالٍ ، وإنما هو « تشنيع هذا

---

(١) يروى عن هارون الرشيد أنه كاشف صباح الطبري ـ وكان من خاصّته ـ بعلة يشكو منها قائلاً له : « أمانة الله ياصباح أن تكتم عليَّ فقلتُ : : يا سيدي عبدُك الذليل تخاطبه مخاطبة الولد .... فكشف عن بطنِه فإذا عصابةُ حريرٍ حول بطنه ؛ فقال : هذه علَّةٌ أكتمها الناسَ كلَّهم... » تاريخ الطبري ٦ : ٥٢٤ . ولستُ أزعُم أنَّ المقتدر كان بقوّة الرشيد . ولكنّي أزعم أن محاربة الإشاعات والأراجيف كانت من دأب الجهاز في مختلف العصور .

(٢) تاريخ الإسلام (٤٢١-٤٣٠) : ٢٥ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٢٨ .

العدوَ الكلب ابن يوسف» ؛ ولم يترك تشنيعه يستوفي مداه فأمر بإرخاص الأسعار .

وحادثةٌ أخرى أدلُّ وأوضحُ على أنَّ الناس أنفسَهم كانوا يعلمون أنَّ مثل هذه الإشاعات هي من صنع دار الخلافة تُلقي بها إلى أفراد المخابرات ليشيعوها بين الناس هي أنه لما عزم المقتدر على خلع حامد بن العبّاس عن الوزارة «كثُر الإرجافُ والطعنُ عليه ، وسُمِّيت الوزارةُ لأقوامٍ فقيل : يخرجُ [أي : من السجن] عليُّ بن الفرات فيولاّها ، وقيل : يُجبَرُ عليُّ بن عيس على ولايتها ، وقيل ابن أبي الحواريّ ، وقيل : ابنُ أبي البغل ؛ فكُتبتْ رقعةٌ وطُرِحت في الدار التي فيها السلطانُ وفيها :

قل للخليفةِ : قلْ لي	إنْ كنتَ في الحُكمِ تُنصِفْ
مَن الوزيرُ علينا	حتى نَقَرَّ ونعرفْ
أحامدٌ فهو شيخٌ	واهي القوى مُتخلِّفْ ؟
أم البخيلُ ابنُ عيسى	فهو المَنوعُ المُطفِّف ؟
أم الذي عند زيدا	نَ للمشورةِ يَعلِف ؟
أم الفتى المُتأنِّي	أم الظريفُ المُغلَّف ؟
أم ابنُ بسطام أعجلْ	أم الشُيَيخُ المُعقَّف ؟
أم طارئٌ ليس ندري	من أيِّ وجهٍ يُلقَّف ؟

الفتى المُتأني : ابن الخصيبي ، والشيخ المُعقَّف : ابن أبي البغل»[1]... والشاعرُ لا يريد أن يسخر بالمقتدر ووزرائه فحسب ، وإنَّما يريد أن يقول له : إنَّ الناس يعرفون هذه الألاعيب من أين تصدُر ومن الذي يُشيعها ، وإنَّك إذا أردت رأيَ الناسِ فيمن تَستوزِر فهذا هو رأيُهم .

والمهم أنه صدقت الأراجيف بأن أقوى المُرشَّحين ابن الفرات ، وبأنه

(١) تاريخ الطبري (الصلة) ٨ : ٧٥ .

سيخرج من سجنه ويستوزَر ، وكان الشاعرُ قد بلغَ من معرفة ألاعيب الجهاز حين قدَّم اسم ابن الفرات على بقيةِ المُرشَّحين بحيث لم يذكره ولم يسخر به تحسُّباً للعواقب . وقد استُوزِر ابنُ الفراتِ وزارته الثالثة فعلاً . فنفى ابنُه المُحسن أقوى الذين رُشِّحوا مع أبيه إلى الوزارة ثمَّ قتل من تمكَّن من قتلِه منهم وهم[1] في منافيهم .

وليس اهتمام ابن الفرات ، أو ابنُ سعدان ، أو سواهما بهذه الأراجيف هو الخوف من فقدان المنصب فحسب ، وإنَّما هو الخوف أيضاً مما يستتبعُ هذا الفقدان من مصادرة الوزير الجديد أموالَ سابقِه . بل إننا نجدُ أن الوزير إنَّما يُستوزر بما يضمنُ على نفسِه من مالٍ للخلافة[2] ، فيلجأ لكي يفي بما ضمنه على نفسِه أن يُصادر لا أموال الوزير السابق عليه فقط ، وإنما الوزراء السابقين .

وبما أنَّ هؤلاء الوزراء لا يريدون أن تُصادرَ أموالُهم فيجتمع عليهم فِقدان المنصب ، وفِقدان المال معاً ، فإنّا نراهم يتشمَّمون ما يدور في البلد من إشاعات ؛ لعلَّهم يستَبِقون الأحداث فَيقُون أموالهم عن طريق إيداع بعضها عند أناسٍ لا تُعرَف عادةً علاقاتُهم بهم . ولا أريد أن أستشهد على ذلك لأنه مستفيضٌ في كتب التاريخ .

ونجد أنَّ بعض الوزراء يشترِط على نفسِه مبلغاً من المال يوفِّره للخلافة إذا سُمِح له أن يُسلَّم إليه بعضُ أرباب الدولة ، ومن طريف ما يُروى في هذا الباب أن المحسن بن الفرات تعهَّد للخليفة المقتدر بأنه إذا استوزَر أباه أبا الحسن بن الفرات ، وسلَّم إليه الوزير السابق عليه حامدَ بن العباس ، ونائبه عليَّ بن الجراح ، وابن أبي الحواري ، وشفيع اللؤلؤي ، ونصر الحاجب ، وأم موسى القهرمانة ، أقول : تعهَّد أن يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار[3] .

---

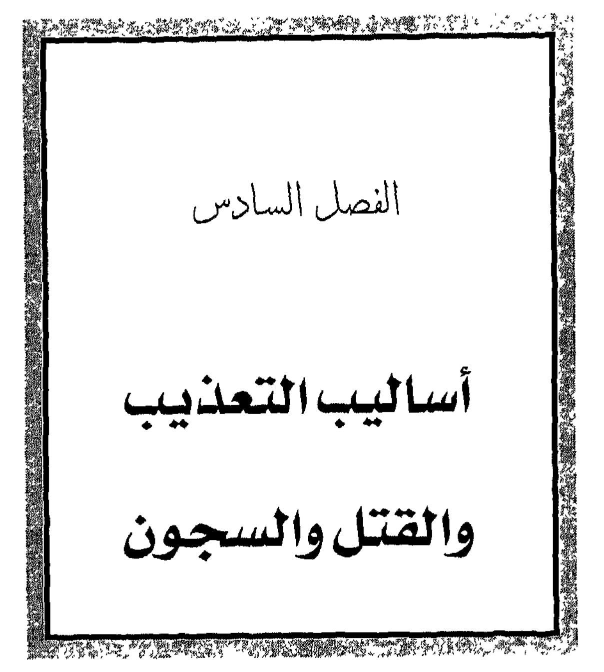
(١) السابق ٨ : ٧٧-٧٨ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٥ : ٥٥ .

(٣) ينظر الكامل في التاريخ ٥ : ٧٨ . والمبلغ بلغتنا المعاصرة سبعة ملايين دينار .

ولكن لم تكن هذه المصادرات تتمُّ ـ كما هي طبيعة الحال ـ عن طيب خاطرٍ ؛ لأنها لم تكن تعني أن يستردَ الوزيرُ الجديدُ ما اختلسَه سلفُه من أموالٍ ، وإنَّما أن يدفع ما يُقدِّرُ هذا الوزير الجديد أنَّ سلَفَه يملكه سواء أكان يملكه حقّاً أم لا .

ومن هنا كان يُسجنُ هؤلاء الوزراء ، ويُحقَّق معهم ، ويُعذَّبوا لدى إنكارهم ما يُراد منهم أن يُقرّوا به ، كما شاع من قبل ، سجن أفراد المعارضة وتعذيب من يُظفَر به منهم ، فكان من كلّ ذلك أن رأينا ، سجوناً ، وألواناً من التعذيب ، بل رأينا منذ أيام الحجاج بن يوسف مَن يكون مُتخصِّصاً بالتعذيب ، فيُولَّى منصب صاحب العذاب . وأريد أن أعرض إلى كلّ ذلك في الفصل القادم .



الفصل السادس

أساليب التعذيب والقتل والسجون

يبدو لي أن وظيفة جهاز المخابرات تنتهي عند رفع الفصل الذي نسمّيه اليوم تقريراً عن هذا الموضوع تحت رقابته أو ذاك من المعارضين السياسيّين ، ومن أرباب الدولة ؛ إلى أولي الأمر ؛ إذ لم يكن هذا الجهاز مُكلَّفاً بالتحقيق معهم ، أو سجنهم أو ما أشبه . وإنَّما يستكملُ جهازُ الشرطة دورة عمل جهاز المخابرات ، وكأنهما جهازان متكاملان إن لم يكونا متكاملين حقّاً .

ومن نافلة القول إنَّه لا يكتفى لإدانة أحدٍ بما ورد عنه من أصحاب الأخبارِ ؛ وإنما يكون هذا الذي وردَ مادَّةً أوّليةً تُحدِّد سيرَ التحقيق ، وكان يجوز للمعارض ـ حتّى من وجهةِ نظرٍ دينية ـ أن يُنكِر ما ينسبُ إليه ؛ فقد خوَّل بعضُ زعماء المعارضة لأتباعهم أن يُنكروا ما يُنسَبُ إليهم ؛ إذ رُوي عن الإمام جعفر الصادق مثلاً أنه قال لأحد أصحابِه وهو داود بن كثير الرَّقي : « يا داود ، إذا حدَّثتَ عنا الحديثَ فاشتهرت به فأنكِرْه »[1] . وإذا كان يجوز لداود إنكار الحديث أمام الناس خيفة أفراد جهاز المخابرات ، فإنَّه من بابٍ أولى أنْ يجوز إنكارُه في جلسة تحقيق .

ولكن هذا الإنكار يجرُّ ـ كما هو مُتوقَّعٌ ـ ألواناً من التعذيب طمعاً في استنفاد كلِّ ما لدى المتَّهم أو السجين ، من معلومات .

(١) موسوعة الاستخبارات ٢ : ٣٦٩-٣٧٠ .

فقد حدث أن ولّى معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على الكوفة ـ وكان ذلك سنة : ٥٠هـ ـ فلمّا قدم إليها خطب في أهل الكوفة فحصبَه الناسُ وهو « على المنبر ؛ فجلسَ حتى أمسكوا ، ثمَّ دعا قوماً من خاصَّتِه ، وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، ثمَّ قال ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم جليسَه ، ولا يقولن : لا أدري مَن جليسي . ثمَّ أمرَ بكرسيٍّ فوُضِع له على باب المسجدِ ، فدعاهم أربعةً أربعةً يحلفون بالله ما منّا من حصَبكَ ، فمن حلَف خلاّه ، ومن لم يحلِفْ حبسَه ، وعزَلَه حتّى صار إلى ثلاثين ، ويقال : بل كانوا ثمانين فقطَع أيديهم على المكان »(١) .

ولم تكن مثلُ هذه الوحشيَّةُ بغريبةٍ على زياد بن أبيه فهو أوّل من رأى أن في قتل الأبرياء صلاح الأمَّة حين فرض منع التجوّل على البصرة « وأخذ على الظنَّةِ ، وعاقب على الشُّبهة... »(٢) .

وإذ أُخفقت محاولة اغتيال عبيد الله بن زياد ـ وهو والي الكوفة ليزيد بن معاوية ـ في دار هانئ بن عروة المرادي ، استدعى عبيدُ الله ، وهو في المسجد ـ هانئاً فسأله عن محاولة الاغتيال فأنكر ؛ فأخذ عبيدُ الله عكّازاً ذا زُجٍّ فضرب به وجه هانئ ، « ثمَّ ضرب وجهَه حتّى كسرَ أنفَه ، وجبينَه... وأمرَ عبيدُ الله بهانئ فأُلقي في بيتٍ... »(٣) . ويمكن أن يكون ما فعله زيادٌ ثمَّ ابنُه عبيد الله نموذجاً بدائيّاً همجيّاً للتعذيب من أجل انتزاع الاعتراف ، وقلت : إنه بدائيٌّ همجيٌّ ؛ لأنه كان تعذيباً استعراضيّاً الغرضُ منه تخويف الناس أكثر من كونه وسيلةً من وسائل انتزاع الاعتراف ؛ وإلاّ فإن الذين حصبوا زياداً قد أقرُّوا بما قاموا ، بعد أن استحلِفوا ، فما معنى قطع أيديهم على باب المسجد ؟ وكان بإمكان عبيد الله أن يُسلِّم هانئاً لشرطته ، لو لم يكن يريد الاستعراض ، فإن لم يفعل فقد كان يمكنه أن يضربَه هذا الضربَ المُبرِّح في مكانٍ غير دار إمارته الملاصقة للمسجد الجامع ، فيتجنَّب بذلك غضبة قبيلة هانئ من بني مذحج .

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ١٧٥ . والخبر في الكامل ٢ : ٤٨١ أيضاً .

(٢) تارخ الطبري ٤ : ١٦٧ . وينظر كتاب : من تاريخ التعذيب في الإسلام : ١٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٩ .

أما الحجّاجُ بن يوسف الثقفي فحسبك من فظاعة تعذيبه ، وحبّه لسفك الدّماء أنّه اتّخذ من عبد الرحمان بن عبيد التميمي صاحب شرطةٍ ، فكان « إذا أُتي برجلٍ قد نَقب على قومٍ وضع مِنقبَتَه في بطنه حتّى تخرج من ظهره ،... وإذا أُتي برجلٍ قاتل بحديدةٍ أو شهر سلاحاً قطع يدَه ، وإذا أتي برجلٍ قد أحرق على قومٍ منزلَهم أحرقَه ، وإذا أُتي برجلٍ يُشك فيه ، وقد قيل : إنّه لصٌّ ولم يكن منه شيءٌ ضربه ثلاثمائة سوطٍ... فضمَّ الحجاج إليه شرطة البصرة مع الكوفة »[1] . وإذا كان صاحب الشرطة على مثل هذا المنوال مع أصحاب الجرائم الذين لا يؤلّفون خطراً على الدولة الأموية ؛ فلنا أن نتصوّر سلوكه ، وسلوك الحجاج كيف يكون مع المعارضة السياسيّة التي تسعى إلى زوال ملك الأمويين .

ويمكن أن نستدّل على قسوة الحجّاج بأنه اتّخذ له رجلاً كان يقوم بتعذيب خصومه ، ولا نعرف إن كان هذا الرُّجل من الشرطة أم من سواهم[2] ، ولكننا نعرف أنهّ هو أو آخَرُ له مثلُ وظيفته الذي عذّب فيروز حُصين بعد أن شارك ابن الأشعث في ثورتِه « فكان فيما عُذِّب به أن كان يشدُّ عليه القصبُ الفارسيُّ المشقوقُ ثمّ يُجرُّ عليه حتى يخرّق جسدَه ، ثم يُنضح عليه الخلُّ والمِلحُ ، فلما أحسَّ بالموت قال لصاحب العذاب... »[3] . وليس مهمّاً ما قاله فيروز له ، ولكنَّ المهم هو منصب صاحب العذاب .

ونستدلُّ على وحشية الحجاج أنه بلغ عدد قتلاه ممن قتلوا صبراً أي في غير حربٍ أو نحوها « مائة ألفٍ وعشرين ألفاً »[4] وأنه وُجد في سجونه بعد موته ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً « لم يجب فيهم قتلٌ ولا صلبٌ ، ووجد فيهم أعرابيٌّ أُخِذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أُطلِق ، فأنشأ الأعرابيُّ يقول :

إذا نحنُ جاوزنا مدينةَ واسطٍ خرينا وبُلنا لا نخاف عقابا »[5]

---

(١) عيون الأخبار ١ : ٥٩ .

(٢) ينظر العقد الفريد ٥ : ٣٠ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٥ : ١٨٢ ، والكامل ٣ : ١٦٢ .

(٤) العقد ٥ : ٤٦ ، وفي تاريخ الطبري ٥ : ١٨٣ أنه « بلغ ما قتل الحجاجُ مائةً وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً » .

(٥) نفسه .

ولعلَّ فتوى عمرو بن عبيد الساخرة وقد سأله رجلٌ كان حلف بالطلاق إنَّ الحجاج من أهل النار ، فراجع الحسن البصريَّ ، وابنَ سيرين يسألهما إن كانت امرأتُه تُعدُّ طالقاً أم لا فتحيَّرا في الفتوى ، حتّى إذا جاء إلى عمرو قال له : «أقِمْ مع زوجتك فإنَّ الله تعالى إنْ غفرَ للحجاج فلن يضرَّك الزِّنا »[1] . أقول : لعلَّ في فتوى عمرو بن عبيد وهو ماهو زهداً وصلاحاً وتقوى ما يُلخِّصُ لنا ما بلغه الحجّاجُ من حبٍّ لإراقة الدماء .

وكان الحجاج هو الذي أضاف «الصلبَ بعد القتل للأشخاص الذين لهم وزنٌ خاصٌّ في حركة المعارضة وكان من ضحايا هذا الإجراء ميثم التمّار...»[2] وبقي الصلبُ بعد القتل مُتَّبعاً إلى نهاية عهد هشام بن عبد الملك إذ زاد عليه الوليد بنُ يزيد الإحراق ؛ فقد بقي بدَنُ زيد بن علي بن الحسين مصلوباً من دون رأسٍ على أيام هشام «إلى أن مات وولي الوليد فأمر بإنزاله وإحراقِه»[3] . ثمَّ ذُرِّي ـ كما هو معروف ـ رمادُه في نهر .

وكما كان الأمويون يُعذِّبون مُعارضيهم أثناء التحقيق كان العباسيون كذلك ؛ وكما كان للحجّاج رجلٌ متخصِّصٌ بالتعذيب لا أستبعد أن يكون هو المُحقِّق نفسُه كان للعباسيين كذلك ؛ فقد « ... حدَّث صاحب عذاب أبي جعفر قال : دعاني أبو جعفر ذات يوم ، وإذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقيني ، فوالله ما أريد إلاّ الألفة ، ولئن صدقتني لأصلنَّ الرَّحم ، ولأتابعن البِرَّ إليه ، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله [وهو المعروف بذي النفس الزكيّة] ، وهي تقول : ما أعرف مكانه ، ودعا الدَّهَق[4] ، وأمر به فوُضِع عليها ، فلمّا كادت نفسُها أن تتلف ، قال : أمسِكوا عنها ، وكره ما رأى ،

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٧٠ .

(٢) من تاريخ التعذيب : ١٣١ .

(٣) الكامل في التاريخ ٢ : ٣٨٣ ، وينظر تاريخ الطبري ٥ : ٥٠٥ .

(٤) الدَّهق ـ كما في القاموس المحيط ـ : خشبتان يُغمزُ بهما الساق . ويبدو أن الآلة فارسية واسمُها : أشكنجة .

وقال لأصحابِ العذابِ : ما دواءُ مثلِها إذا صار إلى مثلِ حالِها ؟ قالوا : الطيب تشَمُّهُ ، والماء البارد يُصَبُّ على وجهها ، وتسقى السويق ، فأمر لها بذلك... حتى أفاقت ، وأعاد عليها المسألة ، فأبت إلاّ الجحود... »[1] .

ويلفت نظري في هذه الحادثة أنَّ هؤلاء المُحقِّقين يكادون يعرفون لكلِّ حالة تعذيب مضاعفاتِها ـ لكثرة ما مرَّت بهم هذه الحالات وهم يمارسون عملَهم في التعذيب ـ ، ويعرفون أيضاً كيف يُعيدون إلى المتَّهم وعيه لكي يستأنفوا التحقيق . ولابدَّ أن يكون لديهم من الوسائل النفسية في التحقيق ، ومن الوسائل الأخرى مارأى معه أبو جعفر أن يستعين بهم . فمن الوسائل النفسيَّة التي لا بد أن يكونوا قد نصحوا بها الخليفة أن يُغريها بالألفة لعلّها تضعف ، فإذا لم ينفع طمأنها بأنه لا يريد بذي النفس الزكيَّة إلاّ خيراً . وإذ يخفِق الترغيب يأتي دور الترهيب ، وهو تعذيبها بالدَّهَق حتى الإغماء ، ويبدو أنهم إذ استدعاهم يستعين بخبراتهم في التحقيق معها جاءوا معهم بأدوات التعذيب التي يستعملونها ، وإلاّ فما معنى : « وكره ما رأى » ؟ .

وإذ لم ينفع لا الترهيب ، ولا الترغيب واجهوها بمن كان يتجسَّس عليهم في دورهم وهما حجّامةٌ وبقّالٌ ، فانهارت واعترفت .

وطبيعيٌّ أنَّهم كانوا يستطيعون مواجهتها منذ البداية بمن رفع التقرير ، ولكنَّهم في هذه الحالة كانوا سيخسرون عنصرين من عناصر الجهاز .

ولعلَّ هذه الحادثة التي رويتها في أساليب انتزاع الاعتراف نادرةٌ ، وسبب ندرتِها أن التعذيب يجري في أقبية السجون سرّاً مما لا يتهيّأ للمؤرِّخين أن يدوِّنوه ؛ لذلك أجدني مُضطرّاً أن أتقصّى كلَّ أساليب التعذيب المعروفة ، سواء أعُذِّب بها المعارضون السياسيون أم رجال الدولة أو سواهما ، وأريد من هذا التقصّي أن أكوِّن صورةً عمّا يلقاه المعارضُ السياسيُّ حين يُسجن ، أو رجلُ الدولة حين يدخل في قائمة المغضوب عليهم لسبب من الأسباب .

---

(١) بين الخلفاء والخلعاء : ٩٠ .

أمّا أنّ هذا التعذيب يجري في أقبية السجون فذلك ما يدلّني عليه أنه لما «مات أبو بكر محمد بن ياقوت [وكان قائد جيوش الراضي] في الحبس بنفث الدّم ،... أُحضر القاضي والشهودُ ، وعُرِض عليهم فلم يروا به أثر ضربٍ ، ولا خنقٍ ، وجذبوا شَعرَه ، فلم يكن مسموماً ، فسُلّم إلى أهلِه...»[1] . فإحضار القاضي والشهود معناه : أنّه كان هناك سجناءُ يموتون أثناء التعذيب ، أو يُخنقون ، أو يسقَون السمَّ . وبما أنّه صادف أن مات هذا الرَّجل حتف أنفه كان من الخير للخلافة أن تُلطِّف سُمعتَها بقاضٍ ، وشهودٍ يشهدون أنّها لم تفعل له شيئاً . أي أن هؤلاء كانوا يقومون مقام الطبِّ الجنائي في عصرنا الحاضر .

فمن هذا التعذيب ما يكون القصد منه الاعتراف بأمرٍ من الأمور عن طريق الإيذاء الجسدي . ولدينا من هذا نماذج وحشية . من ذلك ما عُذِّبت به أمّ الخليفة المقتدرِ بعد قتل ابنها : المقتدر ؛ فقد أحضرَها الخليفة القاهر «عنده وسألها عن مالِها ، فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ، ولم تعترف بشيء من المال والجوهر ، فضرَبها أشدَّ ما يكون من الضربِ ، وعلّقها برِجلها ، وضرب المواضع الغامضة من بدنِها...»[2] وبدهيٌّ أن المواضع الغامضة من بدنِها هي الأعضاء الجنسيَّة ، أما عن كيفية تعليقها فقد عُلِّقت «برِجلٍ واحدةٍ مُنكَّسة الرأس[3]» ، فإذا عرفنا أنها تلقّت كلَّ هذا التعذيب وهي عجوزٌ أدركنا معنى أن تكون قد ماتت بعده بأيام قليلة[4] ؛ فإذا زدنا على ذلك أنَّ القاهر عذّبها وهي أمُّ أخيه المقتدر تكامَلَ إطارُ صورة الوحشية على أبشع ما يكون .

ومن وسائل التعذيب الجسدي ـ عندما تكون التهمة ليست شيئاً كبيراً ـ ما تفتّق عنه ذهنُ المأمون حين هجا محمد بن عبد العزيز الغزّي «ابناً للعباس بن محمد الهاشميّ وكان سميناً ضخماً ، ومعه أخٌ له مثل البندقة ، فشكاهُ العبّاسُ

---

(١) الكامل ٥ : ١٧٨ ، وينظر أخبار الراضي : ٧٠ .

(٢) الكامل ٥ : ١٣٩ .

(٣) الفخري : ٢٧٦ .

(٤) نفسه .

للمأمون ، فأمر بصلبِه على خشبةٍ عند الحبس يوماً إلى الليل فصُلِب... »[١] .

ويمكن أن يسمى هذا التعذيب دغدغةً سخِر منها الشاعرُ نفسُه بمرارة ـ كما في تكملة الرواية ـ لأنه لم يكن القصدُ منه أن يعترِف بشيء هو معترِفٌ به أصلاً ، وإنما كان الغرض منه العقوبة على ما ارتكب من هجاء صبيٍّ من البيت الحاكم . إذ لدى العباسيين من فنون التعذيب ما يبعث على العجب .

فمن هذه الفنون التي تحدَّث عنها رجلٌ لا يمكنُ أن نشكَّ بشهادتِه أعني الشاعر العبّاسي المشهور : ابن المعتزّ : التدخينُ ، الذي وصفه في أرجوزتِه التي يؤرِّخ بها خلافة المعتضد بقوله :

فدَخَّنوه بدُقاقِ التِّبنِ ... وأوقروه بثِقالِ اللَّبْنِ
حتّى إذا مَلَّ الحياةَ وضجرْ ... وقال : ياليتي ومالي في سقرْ
أعطاهم ما طلبوا وأُطلِقا ... يستثقِلُ المشيَ ، ويمشي العَنَقا[٢]

ولا أعرف إن كان التدخيُن ، وحملُ حجارة اللَّبِنِ الثقيلة عمليةً واحدةً أم أنهما عمليّتان مُنفصلتان ، ولكنَّ الذي أعرفه أنَّ التدخين لابد أن يكون يتمُّ في مكانٍ مُغلقٍ عن طريق إشعال النار في أعواد التبن الرقيقة لكي يضيقَ تنفُّسُ المتَّهم فيعترف . أما إذا كان حمل الحجارة يرافق التدخين فلك أن تتصوَّر ما يلحقُ المُدخَّنَ من البَهر وانقطاعِ النَّفَس .

ومما وصف ابن المعتزِّ من أساليب التعذيب : التشميسُ ، ولكنَّه ليسَ التشميس الذي تحدَّث عنه الباحث الأستاذ هادي العلويُّ ، وذلك أن تُكتف الضحيّة وتلقى تحت الشمس الحارقة بعد أن يوضع عليها درعٌ ، أو جندلةٌ ، وتستمرُّ «على هذا الحال ساعات غير محدودة قد تستمرُّ ما دامت شمسُ النهار في عنفوانها »[٣] . أقول ليس التشميس الذي وصفه الأستاذ العلويُّ ، لأنّه كان

(١) معجم الشعراء : ٣٦٠ .

(٢) ديوان ابن المعتز ١ : ٤٠٧ .

(٣) من تاريخ التعذيب : ٢١ .

يتمُّ بتعليق الضحيَّة ، وليس ببطحها على الأرض كما فُعِل بعمار ابن ياسر ، أقول : يتمُّ بتعليق الضحية في الجدار عرياناً ، وتحمير ثقب استِه بما لا أعرف ـ وهذه لعنةُ لغةِ الشعر حين يكون مصدراً من مصادر التاريخ ـ أقول : لا أعرفُ إن كان تحمير ثقب استه يتمُّ بالاعتداء الجنسيِّ أم بالضرب ، ثم يُطلى جسدهُ بالنفط الأسود لكي يمتصَّ جِلدُه أكثر ما يستطيع من حرارة الشمس اللاهبة ، فيكون مفعول أذاها أعظمَ مما لو وقع على البشرَة وحدَها ؛ فيتم بذلك الاعتراف .

يقول ابنُ المعتزِّ :

حتّى أُقيمَ في الجحيمِ الهاجِره
ورأسُه كمِثلِ قِدرٍ فائره
وعلَّقوهُ في عُرى الجِدارِ
كأنَهُ بَرَادةٌ في الدَّارِ
وصفعوا قفاهُ صفعَ الطَّبلِ
وجعلوهُ نُقرَتَه بين النُّقَرْ
كأنَّها قد خجلتْ مِمَنْ نَظرْ
إذا استغاثَ من سعيرِ الشَّمسِ
أجابَهُ مستخرِجٌ برفسِ
وصبَّ سجّانٌ عليه الزَّيتا
فصار بعدَ شُهبةٍ كُمَيتا[1]

على أنَّ هذه الوحشية في التعذيب لم تكن لتقتصر على الخلفاء العباسيين ووزرائهم ، وإنَّما كانت تقوم بها الحركاتُ المعارضةُ أيضاً ؛ فقد وصفَ ابنُ

(١) ديوان ابن المعتز ١ : ٤١٤-٤١٥ . والنُّقرةُ ـ كما في تاج العروس ـ ثقبُ الاست ، والبرّادةُ ، وهي ما تزال مستعملة في اللهجة العراقية بمعناها : خشباتٌ مُتقاطِعاتٌ تُعلّق في السقف يوضَع عليها الطعام ، ولا عبرة بما قال شارحُ الديوان ؛ لأنه فسّرها تفسيراً عجيباً إذ قال : «البرّادة ربما أراد بها البرود : الأثواب المخطّطة» ، والكُمتةُ : لونٌ بين السواد والحُمرة . وتنظر طبعة صادر من ديوانه : ٤٩٤إذ هنالك خلافات غير جوهرية بينهما في رواية الأبيات .

المعتزّ نفسُهُ فظائع صاحب الزّنج في التعذيب فتحدَّث عن غلي الأسرى بالماء ، وعن شيّ الناس بسفُّود[1] .

وينبغي لنا ألاّ نتَّهم ابن المعتزّ فيما يقول باعتبار أنه عبّاسيٌّ يُدافِع عن مُلك أهلِه ، وأن من مصلحتِه أن يكذب عليه ؛ فقد هزَّتْ هذه الفظائعُ التي ارتكبها شاعِراً علوياً مُناهضاً للخلافة العباسيَّة بلغ من مناهضته أن اعتقلَه الموفّق أعني به عليّ بن محمد الحمّاني العلويّ الكوفي ؛ نقيب العلويين في الكوفة ، فقد هالَه أن يرتكب صاحب الزنج كلَّ هذا ، وهو يزعم أنه علويُّ النسب ؛ فقال يسخر من ادّعائه النسبَ العلويَّ :

يقولُ لك ابنُ عمِّكَ من بعيدٍ	لشيثٍ أو لنوحٍ أو لهودِ ؟
لهِجتَ بنا بلا نسبٍ إلينا	ولو نُسِبَ اليهودُ إلى القرودِ
لحقتَ بنا على عَجلٍ كأنا	على سفرٍ وأنت على بريدِ
وهبنا قد رضيناكَ ابنَ عَمٍّ	فمن يرضى بأفعالِ اليهود ؟[2]

ولعلَّ المعتضِد بالله العبّاسيّ كان يريد أن يُذكِّر محمد بن سهل المعروف بِشَيْلَمة[3] ـ وهو من قوّاد صاحب الزنج ـ بما فعلَه صاحبُه حين تَحَدّاه بأنه لن يعترِف ولو عملَه المعتضد كَرْدِنَاك[4] ـ أقول : لعلَّه كان يريد أن يعيد عليه بعد أن ذكَّره بالكردناك ما كانوا يفعلونه بالناس حين « أمرَ بنارٍ فأُوقدتْ ، ثمَّ شُدَّ على خشبةٍ من خشَبِ الخيم ، وأُدير على النار حتّى تقطَّعَ جِلدُه... »[5] .

ومن أساليب التعذيب الضربُ بالسياط ، وهو ما يُعرف بالجَلدِ ـ ولكنَّ الفرق بين الضرب والجلد أن الضرب يكون وسيلةً إلى غاية من نحو الاعتراف أو ما أشبه على حين أنَّ الجلد غايةٌ في ذاتِه باعتباره عقوبةً شرعيَّةً مُقنَّنة .

---

(١) ينظر ديوان ابن المعتز ١ : ٤٠٣ ، وطبعة صادر من ديوانه : ٤٨٥ . وبينهما خلافاتٌ ليست جوهرية .

(٢) ديوانه المنشور في مجلة المورد : ٢٠٦ .

(٣) ورد اسمه في الكامل ٤ : ٥٦٩ على : شُميلة .

(٤) الكَرْدِناك : من المعرَّب ، وهي : قِطع اللحم الصغيرة التي تُشوى على سفّود . ويقال لها الكردناج أيضاً .

(٥) تاريخ الطبري ٨ : ١٦٥ ، وينظر الكامل ٤ : ٥٧٠ .

فمن أخبار الضرب بالسياط ما فعله الخليفةُ المنصور بالديباج محمد بن عبد الله وهو حفيد الخليفة عثمان بن عفّان يسأله عن زوج ابنته : إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فلمّا حلف بأنه لا يعرف قال : « جرِّدوه ، فجُرِّد فضَربَه مائةَ سوطٍ ، وعليه جامعةُ حديدٍ في يده إلى عنقه... »[١] ، ثمَّ ألبسه قميصاً فاخراً لم يستطع نزعَه حتّى حُلِب عليه حليبُ شاةٍ لأنه كان التصق بالدم .

وعُذِّب رجلٌ اتُّهم بمحاولته اغتيال الخليفة المقتدر بما لا نعرف من ألوان العذاب ، لعلّه يعترف بشيء فمات أثناء التعذيب ولم يعترف « فصُلِبَ ، ولُفَّ عليه حبلٌ من قنَّبٍ... ولُطِخ بالنفط وضُرِبَ بالنار »[٢] .

وإذا كانت ألوان التعذيب تُصَبُّ على المتَّهم لانتزاع اعترافٍ منه ، فإنّه كان من وسائل التحقّق من صدق الاعتراف أن يفصل المتهمون في قضيّة واحدة بعضُ عن بعضٍ خيفة التواطؤ على اعتراف كاذب[٣] . وكان من تقاليد التحقيق مع ذوي الفكر أن يُناظرَهم مفكِّرون مثلهم ، يسألونهم ويسمعون منهم ، ويناقشونهم ، ويُقرِّرون ما يرون في أمر صحّة عقيدتهم . وهذا ما حدث للحلاَّج ، ولابن الشلمغاني ، ولعشراتٍ من أمثالِهما . ولكنَّ هذا التقليد الحضاري لا يعني أن المناظرة تكون موضوعيةً دائماً .

ومن التعذيب ما هو نفسيٌّ لا جسديٌّ كأن يُروَّع المعذَّبُ بخبرٍ كاذبٍ ، كما فعل المنصور بوالد ذي النفس الزكية : عبد الله بن حسن ؛ إذ دسَّ إليه - وهو في السجن - من يُخبِره كذباً أن ابنه محمداً قد ثار بأبي جعفرٍ ، وأنه قُتِلَ « فانصدَع قلبُه فمات »[٤] . أو أن يُواجَه بما تشقُّ عليه رؤيتُه ، كما حدث للوزير ابن الفرات ، فقد ذُبِح ابنُه في السجن كما تُذبَح الشاة ، ثمَّ « حُمل

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ١٨٣ .
(٢) تجارب الأمم ٥ : ١١٨ .
(٣) ينظر الكامل ٤ : ٧١ .
(٤) تاريخ الطبري ٦ : ١٨١ .

رأسُه إلى أبيه فارتاع لذلك شديداً »[١] أو أن يُروَّع بانتظار السيفِ لقتله ، وقد استعمل الحجّاج هذه الطريقة ، ولكنَّ المهم أنها بقيت مستعملة بعدَه حتى إنَّ الجاحظ تحدَّث عنها ، فقال : « إنَّ الناسَ يُسمّون الانتظار لوقع السيفِ على صليف العنُق جَهد البلاء »[٢] .

ومن هذا التعذيب النفسي ما يكون الغرض منه الإهانة كما حدث للوزير حامد بن العبّاس ؛ فقد عذّبه ابن الفرات بأنواع العذاب ، ثمَّ سلَّمه إلى ابنه المحسن ، فكان « يُخرِجه إذا شرِبَ فيُلبِسَه جِلدَ قردٍ له ذنبٌ ، ويُقيمُ من يُرقصه ، ويصفعُه ويشربُ على ذلك ، وأجرى على حامد أفاعيل قبيحةً ليست من أفاعيل الناس ، ولا يستجيزها ذو دينٍ ، ولا عقلٍ... »[٣] .

وواضحٌ أنَّ الساديَّة قد بلغت بهذا الجلاّد الذي اسمُه المحسن بن الفرات بحيث لا يحلو له السُّكر إلاّ بإذلال الآخرين يثبِتُ لنفسِه من خلال هذا الإذلال أهمّيتَها .

وعجيبٌ مصير الجلاّدين الطُّغاة ممَّن هم مثلُ المحسن ؛ فقد قُبض على هذا المحسن بعد نكبة أبيه سنة : ٣١٢هـ ، « وقد تشبّه بالنساء ، وحلَق لحيتَه ، وتقنَّع[٤] ، فأُتي به على هيأته وفي زيِّه لم تُغَيَّر له حالٌ ، وضرِب في الليل بالدبادب ليعلم الناسُ أنه قد أُخِذَ ، وغدت العامّةُ إلى دار الخليفة ليروه وتكاثرَ الناسُ وازدحموا للنظر إليه ، وهو في ذلك الزيّ الذي وُجِدَ عليه... »[٥] .

ومن التعذيب النفسي التشهير بالضحيَّة ، فقد حدث هذا للفقيه محمد بن العباس الذُّهليّ ، فقد « ضُرِبَ... بالدِّرَّة في الجامع عرياناً ، وصُفِعَ قفاه حتّى جرى

---

(١) الكامل ٥ : ٨٥ .

(٢) الحيوان ٣ : ٢٠٢ . وصليف العنق ـ كما هو في حاشية المحقق ـ عرض العُنُق .

(٣) تاريخ الطبري (الصلة) ٨ : ٧٧ .

(٤) تقنَّع : بمعنى لبس المِقنعة ، والمقنعةُ ما تُغطّي به المرأة وجهَها .

(٥) تاريخ الطبري (الصلة) ٨ : ٨٣ .

الدّمُ من رأسه ، وبُرِّح[١] عليه في أسواق القيروان ؛ إذ شهد عليه قومٌ من المشارقة بأنّه يطعن على السلطان أو يُفتي بقول مالك»[٢] .

وإذا كان الضربُ بالدِّرَّة عقوبةً ، فإنَّ الصفع لا يُمكنُ أن يكون إلاَّ إهانةً لكرامة الإنسان من حيث هو إنسانٌ ، ولاشكَّ أنه أقسى من الضربِ ، وأوجع نفسيّاً . ومن هنا كان من شتائمهم المُوجعة نفسياً قولُهم : «ياصَفعان» . ولم يكن منها : يا مضروب ، أو يا مجلود . فإذا أضفتَ إلى هذا أن طيف بهذا الفقيه المسكين في أسواق القيروان أدركتَ مدى الأذى النفسيِّ الذي لحِق به .

وعلى أن التشهير كان معروفاً كلونٍ من ألوان العذاب إلاّ أنه كان يقعُ بأهل الجرائم فيُطافُ بهم على حميرٍ ووجوههم إلى أذنابها ، ولكنَّ الخطير في أمر هذا الفقيه القيرواني أن طيفَ به ، وهو رجُل فكرٍ سواء أكان أفتى بمذهب مالك مما لم يكن يُرضي الشيعة أم سبَّ الخليفة الفاطميَّ المُعز لدين الله لأنه يُخالفه فكريّاً .

وهكذا انفتح باب التشهير بغير أهل الجرائم ؛ فرأينا البساسيري وقد قبض على وزير القائم عليِّ بن الحسين... بن المسلمة أنّه أخرجَه بعد أن حبسَه «مُقيَّداً وعليه جُبّةُ صوفٍ ، وطرطور من لِبْدِ أحمرَ ، وفي رقبته مخنقة فيها جلودٌ مُقطَّعةٌ شبيهةٌ بالتعاويذ ، وأُركب حماراً ، وطيف به في المحالّ ووراءه من يضربه وينادي عليه... وشَهرَه في البلد»[٣] .

ولا بدَّ أن يكون الغرضُ من مثل هذا التعذيب إسقاطُ هيبة المُعذَّب في عيون الناس ، لمنع تأثيره فيهم .

وهناك لونٌ آخر من ألوان التعذيب لا يهدف إلاّ إلى الانتقام ؛ فهو تعذيبٌ

---

(١) بُرِّح عليه : بمعنى شُهِّر به ، وهي من لغة أهل المغرب المستعملة إلى اليوم . ينظر شذرات من اللغة المولّدة في مجلة العرب : ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب ١ : ٢٦٥ وقد وقعت الحادثة سنة : ٣١١هـ . والمشارقة : الشيعة بلغة أهل المغرب ، والتشريق : التشيّع . ينظر شذرات من اللغة المولدة : ١٦٦ .

(٣) الفخري : ٢٩٥ .

بهدف القتل ، والقتل وحدَه لا شيء سواه ؛ ولكن كأنَّ القاتل يتلذَّذ بالطريقة التي يقتل بها خصمَه ، حتى لقد شاع في كتب التاريخ ما يُكرِّره القاتلُ عادةً من أنه يريد أن يقتل خصمه قِتلةً لم يقتلها أحدٌ .

فمن ذلك ما مرَّ بنا في الفصل الثالث من قتل أبي جعفر المنصور محمّدَ بن إبراهيم المعروف بالديباج الأصفر قِتلةً لم يُقتل بها أحدٌ من أهل بيته بأن بناه وهو حيٌّ في إسطوانة .

ومن هذا التفنّن في طرائق القتل ما فعله الخليفةُ موسى الهادي ـ في الساعة الأولى من تسلّمه الخلافة ـ بيعقوب بن الفضل العبّاسي ، وقد اتُّهم بالزندقة ، بأن « أرسل إلى يعقوب مَن ألقى عليه فراشاً ، وأُقعِدتْ الرِّجالُ عليه حتى مات ، ثم لهى عنه ببيعتِه ، وتشديد الخلافة ، وكان ذلك في يومٍ شديد الحَرِّ ، فبقي يعقوب حتى مضى من الليل هُدءٌ ، فقيل لموسى : يا أمير المؤمنين ، إنَّ يعقوب قد انتفخ وأروحَ . قال : فابعثوا إلى أخيه إسحاق بن الفضل فخبِّروه أنَّه مات في السجنِ... »(١) .

ومن ذلك أن الشاعر سُدَيف بنَ ميمون قد دُفن وهو حيٌّ ، واختُلِف في ذلك ؛ فمن قائل أنه هجا المنصور ، ومن قائلٍ أنَّه مدح ذا النفس الزكيَّة وأخاه إبراهيم ، ومن قائل إنه حُبِس غلطاً فأراد المنصور أن يُغطّي على غلطِه فأمر بدفنِه حيّاً(٢) . وأيّاً كان السببُ فقد دُفن الشاعرُ سُديف بن ميمون حيّاً .

ومن باب التلذُّذ بموت الضحيَّة البطيء ما وقع للخطّاط العظيم(٣) الوزير ابن مقلة ، فقد قُطعتْ يدُه اليمنى « فعولِج فبرأ... ، وكان يشدُّ القلم على يده المقطوعةِ ويكتبُ »(٤) ، ثم قُطِع لسانُه « ونُقِل إلى محبسٍ ضيِّقٍ ، ثم لحقه ذربٌ [بمعنى :

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٤٠٩ .
(٢) ينظر العقد الفريد ٥ : ٨٥-٨٧ .
(٣) ينظر في قيمة خطّ ابن مقلة رأي النديم في الفهرست : ٧٦ .
(٤) الكامل ٥ : ٢٠١ .

إسهال] في الحبس ، ولم يكن عنده من يخدمه ، فآل به الحالُ إلى أن كان يستقي الماء من البئر بيده اليسرى ، ويُمسكُ الحبلَ بفيه ، ولحقه شقاءٌ شديدٌ إلى أن مات... »[١] . ومن عجيب أمر ابن مُقلة أن ، نُبِشَ قبرُهُ ثلاث مرّات .

ومن هذا القتل قتلُ ابن الشَّلمغانيّ وابنِ أبي عَوْن الكاتب صاحب كتاب « التشبيهات » الذي طُبع في كامبردج ، و « الأجوبة المُسكتة » الذي طُبِع في القاهرة ، فقد « ضُربا بالسوطِ ، ثم ضربِت أعناقُهما ، وصُلِبا ، ثمَّ أُحرِقتْ جثتاهما... »[٢] .

ومن قبيل هذا القتل ما فعله السعيد نصر بن أحمد السامانيّ بأبي بكر الخبّاز ، وكان نصرٌ قد حبسَ إخوتَه فخلَّصهم من الحبس هذا الخبّاز ، فأخذه نصرٌ وبالغ في تعذيبه « ثمَّ ألقاه في التنّور الذي كان يخبز فيه فاحترق »[٣] .

وإذا كان إلقاءُ أبي بكر الخبّاز في التّنور قد جاء من كونِه خبّازاً ، وأنه مات فيه من يومِه ؛ فإنَّ تنور محمد بن عبد الملك الزيّات الشاعر الكاتب لم يكن كذلك ؛ فقد أعدَّ ابنُ الزيّات تنّوره لتعذيب خصومه ، ولم يكن يدري أن من الممكن أن ينقلب السِّحرُ ـ كما يُقال ـ على الساحرِ ؛ فيأتي عليه يومٌ يذوق فيه ما كان أعدَّ لخصومِه ، فجاء هذا اليومُ « فَقُيِدَ ، وامتنع من الطعام ، وكان لا يذوق شيئاً ، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكّر ، فمكث أياماً ثُمَّ سوهِرَ ، ومُنِع من النوم ، يُساهَر ، ويُنخَسُ بمسلَّةٍ ، ثم تُرك يوماً وليلةً فنام ، وانتبه فاشتهى فاكهةً وعِنباً فأُتي به فأكلَ ، ثم أُعيد إلى المساهرة ، ثمَّ أُمِر بتنور من خشبٍ فيه مسامير حديدٍ... فيمدُّ يديه إلى السماء جميعاً حتى يدقَّ موضع كتفيه ، ثم يدخل التنور فيجلسُ ، والتنور فيه مسامير حديدٍ ، وفي وسطه خشبةٌ معترِضةٌ يجلسُ عليها المعذَّبُ إذا أراد أن يستريحَ... ثم يجيء

---

(١) السابق ٥ : ٢٠١ ، ولا بأس أن ينظر أخبار الراضي : ١٠٥ .

(٢) معجم الأدباء ١ : ٢٣٦ ، وينظر الكامل ٥ : ١٦٦ ، والوافي بالوفيات ٤ : ١٠٨ .

(٣) الكامل ٥ : ١١٩ .

الموكَّلُ به فإذا هو سمع صوت البابِ يُفتح قام قائماً كما كان ، ثمَّ شدَّدوا عليه . قال المُعذَّبُ له : خاتلتُه يوماً فأريتُه أني أقفلتُ البابَ ولم أقفله ، إنَّما أغلقتُه بالقفلِ ، ثم مكثتُ قليلاً ، ثم دفعتُ البابَ غفلةً فإذا هو قاعدٌ في التنور على الخشبة ؛ فقلتُ : أراك تعمل هذا العملَ . فكنتُ إذا خرجتُ بعد ذلك شددتُ خناقَه ، فكان لا يقدر على القعودِ ، واستللتُ الخشبةَ حتى تكون بين رِجليه ، فما مكث قليلاً بعد ذلك إلاّ أياماً حتى مات»[1] .

ويُخَيَّل لي أن هذا التنّور ـ وإن سُمِّي تنوراً ـ ليس هو تنّوراً من نارٍ كما يُمكن أن يُفهم ، وإلاّ لوجدنا ذكراً للنار ، ولَعَجِبنا كيف تكون فيه خَشبةٌ يجلسُ عليها المُعذَّبُ ولا تحترق ، ويكون التنور نفسُه من خشبٍ ولا يحترق ؟ وإنما هو مكانٌ في مثل ضيق التنور أرضُه ناتئةٌ بالمسامير ، وجوانبه من مسامير أيضاً فيختار المعذَّبُ فيه أن تدمى قدماه وجنباه واقفاً ، أم يجلسَ على خشبتِه ساهراً حتّى يتعب فينام دون إرادةٍ منه ، فيُسلِم جسدَه إلى مسامير الجوانب فتكون النتيجة في الحالتين واحدةً ، أعني الموت[2] .

وكان من هذا القتل الذي يقوم على التشفّي قتلُ أسرى القرامطة ؛ فقد جيء بهم ، «فقُطِّعت أيديهم وأرجلُهم ، وضرِبت أعناقهم واحداً بعد واحدٍ . كان يؤخَذ الرجلُ فيُبطحُ على وجهه ، فيقطعُ يمنى يديه ، ويحلِّقُ بها إلى أسفل ليراها الناسُ ، ثمَّ يقطعُ رجله اليسرى ، ثم يسرى يديه ، ثم يمنى رجليه ، ويرمى بما قُطِع منه إلى أسفل ، ثمْ يُقعَدُ فيُمَدُّ رأسُه ، فيُضرَبُ عنقُه ، ويُرمى برأسه وجثَّته إلى أسفلَ ، وكان جماعةٌ قليلةٌ من هؤلاء الأسرى يضجّون ويستغيثون ، ويحلفون أنّهم ليسوا من القرامطة . فلمّا فُرِغ من قتل هؤلاء الأربعة والثلاثين النفس ، وكانوا من وجوه أصحاب القرمطيّ فيما ذُكرَ وكبرائهم ، قُدِّم المدَّثِّرُ فقُطعت يداه ، ورجلاه ، وضربت عنقُه ، ثم قُدِّم القرمطيُّ فضُربَ مائتي سوطٍ ، ثم قطعتْ

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) ينظر فهم الأستاذ هادي العلوي لوظيفة هذا التنور في كتابه : من تاريخ التعذيب في الإسلام : ٢٦٠ ، وهو فهمٌ وجدتُني قاصراً عن استيعابه .

يداه ورِجلاه ، وكُويَ ، فغُشيَ عليه ، ثم أُخذ خشبٌ فأُضرِمت فيه النارُ ووُضِعَ في خواصره ، وبطنِه ، فجعل يفتح عينيه ثمّ يُغمضها ، فلمّا خافوا أن يموت ضُربَتْ عنقُه... »[1] .

ومن هذا القتل أيضاً ما رواه ابنُ الأثير من نفخ النملِ في بطن المُتَّهم حتى يموت[2] .

ومنه أيضاً تحريق الوجه قبل الموت ثمّ رمي المُحرَّقين في ماءٍ ؛ فمن ذلك ما كان يفعله محمود بن سنجر شاه ، فقد غرَّق كثيراً من جواري أبيه في دجلة ، حتى أصبح أمر تغريقهن لُغزاً يؤرِّقُ ابن الأثير فقال : « ولقد حدَّثني صديقٌ لنا أنَّه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهمٍ سبعَ جوارٍ مُغرَّقاتٍ ، منهن ثلاثٌ قد أُحرِقت وجوههنَّ بالنار ، فلم أعلم سببَ ذلك الحريق حتى حدَّثتني جاريةٌ اشتريتها بالموصل من جواريه : أنَّ محموداً كان يأخذُ الجارية فيجعلُ وجهَها في النار ، فإذا احترقت ألقاها في دجلة ، وباع من لم يُغرّقهـ[ـا] منهنَّ... »[3] .

وأحسبُ أنَّ هذا الموتَ أيّاً كانت بشاعتُه هو موتٌ من شأنِه أن يستريح المُبتلى به بعد أن تزهق روحُه فلا يدري بالطريقة التي مات بها . ولكنَّ ما ابتكره محمود بنُ سنجر كانَ موتاً أشدَّ وأقسى ؛ فقد كان هذا المحمود يقطع الألسنةَ ، والأنوفَ ، والآذانَ ، « وأما اللحى فإنَّه حَلَقَ منها ما لا يُحصى »[4] .

ولا أريد أن أُطيل فيما لا طائل وراءه ، ولكنَّني أريد أن أقول : إنَّ هذا التعذيب الذي عرَضتُ له لم يكن تعذيباً بدائيّاً ، وإنما كانت له تقنيتُه وآلاتُه ـ على ما يبدو ـ وإن كنّا لا نعرف من هذه الآلات الشيء الكثير ـ مع الأسف ـ إذ نحن نعرفُ المُضرَّسة وقد مات بها ـ على رواية ابن الأثير ـ خالد بن عبد الله

---

(١) تاريخ الطبري ٨ : ٢٣٠ ، وينظر صلته : ٢٢٩ .
(٢) ينظر الكامل ٣ : ٣٠٣ .
(٣) السابق ٧ : ٥٢٢ .
(٤) نفسه .

القسري بعد أن وضعتْ على صدرِه[١] ، ولم تمرّ المعجمات العربية بهذه الآلة فنعرف ما هي ، وإن كنّا نستطيع أن نتخيّلها على سبيل القياس . فقد قال الجوهريُّ : « حَرَّة مضرَّسةٌ... فيها حجارة كأضراس الكلاب »[٢] ؛ فنقول : إنّها يمكن أن تكون خشبة أو نحوها ظاهرةَ المسامير ، بحيث تُدمي الصدر التي يُضغطُ بها عليه ، وربّما أدّت إلى الوفاة .

ونعرف آلة الدّهَقِ التي استعملها المنصور ، وهي ـ كما عرّفها القاموس ـ خشبتان تغمزانِ الساق ، ويجب أن أضيف الآن أن الفيروزابادي قد تلطّف كثيراً في تعريفِها حين قال عن هاتين الخشبتين إنهما تغمزان الساق ؛ لأنَّ الدَّهق ـ في الأصل ـ « بشدّةُ الضغطِ ، أو متابعةُ الشدّ »[٣] ، هذا وقد تحدّث الجاحظُ عن كَربٍ « تكون له حرقةُ النارِ ، وألَمٌ كألمِ الدّهق »[٤] . نعم لو كان قال كما قال ابنُ دريد : « دهَقه ، يدهَقُه : إذا غمَزه غَمزاً شديداً »[٥] لكان أدنى إلى الصواب ، وأقرب إلى تعريف الدّهَق .

ونعرف أيضاً المعصرة ، فقد « قبض الملك الناصرُ صاحب حماة على قاضي بلده المعروف بابن القُطبِ ، وبابن المُقيشعِ ، وأهانه وعصرَه بالمعاصيرِ... »[٦] .

أمّا الرّعبوب الذي ذكَره الطبريُّ ، ولم يُحدّده ، ولم تُحدّده المعجماتُ العربيّة فكلُّ ما لدينا منه أن ماتت به امرأةٌ بعد أن ضُربتْ على رأسها به[٧] .

---

(١) ينظر الكامل ٣ : ٤٠٣ . هذا ولم تكن آلات التعذيب غريبة على البشرية في أقدم عصورها فقد كانت الخوزقة مما « عُرف به الآشوريون الذين تميّزوا بوحشية استثنائية من بين الشعوب الساميّة الأخرى . وكانوا يقتلون أسراهم بإجلاس الأسير على خازوق وقطع يديه ورجليه » من تاريخ التعذيب : ٥٠ ، ومعنى هذا أنهم هم الذين ابتدعوا التعذيب بالخازوق ، فكانوا هم مبتكري هذه الآلة الوحشية .

(٢) الصحاح : ضرس .

(٣) تاج العروس : دهق .

(٤) الحيوان ٣ : ٣٠٢ .

(٥) جمهرة اللغة ٢ : ٢٩٥ .

(٦) التاريخ المنصوري : ١٢٣ .

(٧) تاريخ الطبري ٦ : ٤١٠ .

يبقى بعد هذا القرضُ بالمقاريض من البداهة بحيث لا يكاد يمرُّ حديث فيه تحدٍّ من دون قول المُتحدّي : « ولو قرّضتني بالمقاريض » مما يدلُّ أنَّ القرض بالمقاريض كان أشيع العقوبات وأقساها[1] ، ويدلُّ عليه ما مرَّ بنا من حديث الكاردناك .

وأمّا نفخُ البطن بالنَّملِ[2] فإنّه عقوبةٌ مُعقَّدةُ التنفيذ ؛ إذ لا أستطيعُ أن أتصوَّر أن السجّان ، أو المُعذِّب مُستعِدٌّ أن يضع في فمه شيئاً من النمل ـ حتّى ولو كان يُعدُّ بالعشرات ـ لينفخَ به في الموضع المطلوب من المتَّهم ، مما يدفعني أن أتصوَّر أنه كان لهذا التعذيب أداةٌ خاصَّةٌ به ، ولكن لا أدري ماهي هذه الأداة .

والآن وقد عرضنا إلى بعض وسائل التعذيب يبقى علينا أن نعرض إلى طبيعة السجون التي يُسجَن فيها هؤلاء المُعذَّبون .

ولا أريد أن أتحدَّث عن تاريخ السجون ، ولا عن مساحاتِها ؛ لأنَّ قارَّة بأكملها يُمكن أن تكون سجناً ضيِّقاً إذا منعت من التجوال في سواها . وإنَّما أريد أن أقول بعض السجون كان يرادُ منه أن يكون جُزءاً من عمليَّة التعذيب ، كأن يكون السجن مُطبِقاً ، بمعنى أن يكون سجناً تحت الأرض لا يُتاح للسجين فيه أن يعرف أوقات النهار ، فقد روى أحدُ سجناء الخليفة المنصور من العلويّين أنه لم يكن يعرف أوقات الصلاة في سجنه لولا أحزابٌ من القرآن الكريم كان يقرؤها أحدُ زملائه[3] .

ولم يكن يُكتَفى في بعض الأحيان بظلام المُطبِق الدامس فيزاد ظلمة ، كما حدث ـ على سبيل المثال ـ ليعقوب بن داود ؛ فقد حبسَه الخليفة المهدي في مُطبِقٍ ، وحُفر له بئرٌ فيه ، ودُلِّي فيه فصار لا يعرف عدد الأيام ، وأصيب بسبب الظلام ببصرِه ، واسترسل شَعرُه كهيأة شُعور البهائم[4] .

---

(١) ممن قُرِّض جسمه بالمقاريض نصر بن عباس قاتل الظافر الفاطمي ، ينظر وفيات الأعيان ٣ : ٤٩٣ .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٥ : ٣٦٩ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ١٨١ .

(٤) ينظر تاريخ الطبري ٦ : ٣٨٥ .

ومن هنا شاع مصطلح المطمورة والمطامير في لغة القرن الثالث ؛ فقد أمر المعتضِد في سنة ثمانين ومائتين أن يبنى له القصر المعروف بالحسنيّ «على دجلة... وأنفق عليه مالاً عظيماً ،... وأمرَ ببناء مطامير في القصر رسمها هو للصُنّاع ، فبُنيتْ بناءً لم يُر مثله ، على غاية ما يكون من الإحكام والضيق ، وجعلها محابسَ للأعداء... »[1] . وإذا عرفنا أن المطمورة في الأصل تُتَّخذُ لحفظ الحبوب ؛ إذ هي حفرةٌ تحت الأرض يتوسَّع في أسافلها وليس في أعلاها أدركنا أيَّ عناءٍ كان يعاني السجناءُ فيها .

وحفر الخليفة القاهر سنة : ٣٢٢هـ في دارِه «نحو خمسين مطمورة تحت الأرض »[2] .

ويُمكنني أن أُقرِّر أن هذه السجون التي تُبنى في قصور الخلفاء هي للسجناء السياسيين ، الذين تظنُّ الخلافة أنَّهم خطِرون ، كأنَّها تضعهم تحت رقابة جهاز مخابرات القصر خوفاً من هروبهم . أما المجرمون العاديّون فكانوا يُسلَّمون إلى صاحب المعونة ، وقد سبق أن قلت : إنه يُقابل ما نصطلح عليه اليوم بمدير السجون . ويُطلق على السجون التي يسجنون بها سجن الجرائم[3] .

أما أرباب الدولة المغضوب عليهم فلم يكونوا يُعتقلون في هذه السجون الخاصة بالمعارضة أو بأهل الجرائم إلاّ نادراً فقد جرت العادة أن يُسجنوا في سجونٍ خاصةٍ كأن يُسجنوا في دُورهم ، كما حدث للوزير ابن مُقلة ؛ فقد حبسه الخليفة الراضي «بداره ، وضيَّق عليه »[4] ، وللوزير عبد الله بن محمد الخاقاني إذ اعتُقل في داره أيضاً ، ووُكِّل به[5] .

---

(١) خطط بغداد : ١١٣ .

(٢) الكامل ٥ : ١٥٩ .

(٣) ينظر الفرج بعد الشدّة ١ : ٣٠٠ فقد حبس أبو العتاهية على أيام المهدي في سجن الجرائم .

(٤) الفخري : ٢٧٢ .

(٥) تاريخ الطبري (الصلة) ٨ : ٨٨ .

وحُبس الوزير ابن الفرات عند شفيع اللؤلؤي[١] صاحب بريد المقتدر ، وحبِس بعد إخفاق مؤامرة خلع المقتدر وتولية ابن المعتزّ ، أبو عمر القاضي ، وأبو المثنى القاضي «في دارٍ واحدةٍ ، في ثلاثة أبياتٍ متلاصقة»[٢] .

وكان بعضُ هؤلاء الوزراء يُرفَّه في سجنِه فقد حُبسَ الوزير ابنُ مقلة مرَّة ثانية عند ياقوت ، وكان من كبار قوّاد المقتدر ، فبلغ من الترفيه ـ رغم أنه كان مُقيَّداً في سجنِه ـ أن اشتهى ذات يومٍ أن يسكر في سجنِه ، وأن تغنِّيه مغنيَّة ، فكان له ما أراد[٣] . وكان أحمد بن المدبِّر ، وأحمد بن إسرائيل ، وسليمان بن وهب ، وقد أمر محمد بن عبد الملك الزيّات بحبسِهم ، ربَّما أُدخِل إليهم النبيذُ فشرِبوا[٤] .

ولا أريد أن أُعنى بأماكن حبس الوزراء ، ولكنني أريد أن أُعيد قولي : إنهم لم يكونوا يشاركون المعارضة السياسيّة سجونها .

---

(١) الكامل ٥ : ٨٤ .

(٢) الفرج بعد الشدة ١ : ٣١١-٣١٢ .

(٣) ينظر الخبر في المصدر السابق ١ : ١٥١-١٥٢ .

(٤) ينظر السابق ١ : ٣٦٨ .

الخاتمة

والآن وقد انتهيت من هذه الرِّحلة في كتب التاريخ وما إليه أُريد أن أُقرِّر بادئ ذي بدءٍ أنني لم أكن أتوقَّع أن تكون الحضارة الإسلامية قد استعملت جهاز بريدها بمثل هذه المهارة العالية . حتّى لقد كنتُ وأنا أقرأ من الأحداث ما مرَّ عليه ألفُ سنةٍ وأكثرُ من ألفٍ أظنُّ أنني أقرأ شيئاً من أخبار اليوم ؛ فلم يكن يُنبِّهني إلى أنني في رحلة تاريخٍ إلاّ لغة تلك الكتبُ ، وإلاّ أسماء الأعلام . مما يدعوني إلى التساؤل عمّا اختلف من تاريخنا طيلة هذه القرون المُتعاقبة ؟ ومما يدعوني أن أتساءل عمّا إذا كنّا قد استفدنا من تأريخنا حقّاً فتجنَّبنا مواطن الظلام فيه .

بل إنَّني لأخشى أن يُفيد عناصرُ أجهزة المخابراتِ المعاصرون ، ولكن هيهات ، من بعض تقنيات أجدادنا في التجسس ، وفي التعذيب ، وسواهما فيتبرَّأ الكاتبُ من كتابه ، ويندم على كتابته .

وشيءٌ آخر أخشاهُ كلَّ الخشية هو أن يسأل بعضُ الطيّبين أنفسَهم عن مسوّغات احتجاجِهم على ما يُعانون من هذه الأجهزة إذا كانت الحضارةُ الإسلامية نفسُها قد أسهمت كلَّ هذا الإسهام في تقاليد هذا الجهاز المُعاصِرة ؟

وإجابتي عن مثل هذا السؤال رغبتي أن يتذكَّر سائلُه أنَّه بيننا وبين الجهاز الذي كنّا نتحدَّث عنه من الزمن ما تغيَّرت معه ملامحُ جبلِ أُحُدٍ ، أفلا يليق بنا أن نتغيَّر نحو ما هو لائقٌ بكرامة الإنسان ؟ هذا إلى أنَّ أجهزتنا المعاصِرة لم يُدرِّبها الإسلامُ ، وإنَّما درَّبتها أوربا .

على أنّه يجبُ عليَّ أن أقول : إنَّ هذا الجهاز قد علَّم العالَم الكثيرَ الكثيرَ ، فقد يكون علَّمهم أن تُستعمل المرأةُ كأفضلِ عنصرٍ من عناصر الجهاز أيِّ جهازٍ في التجسُّس على المعارضة ، ومعرفة أخبارها . وقد كنتُ أُصدِّق ـ قبل أن أكتب هذا الكتاب ـ من يقول :

إنّ المخابرات البريطانية هي التي أدخلت المرأةَ منذ عهدٍ قريبٍ في سلك التجسُّس .

وقد يكون علَّم العالَم أيضاً أن يؤمن باطلاً بأنّ طينة أولي الأمر من غير طينة البشرِ فينبغي ألاّ يمرضوا ، ولا يضعفوا ، ولا يشيبوا ، وإنما يموتون دفعةً واحدةً فيُخفى خبرُموتهم حتى تترتّب أمور استخلافهم ، ولعلّك تتذكّر بوريس يلتسن ـ رئيس روسيا الاتّحادية ـ كيف كان يرقص بالمنشّطات التي سبَّبتْ له أزمةً قلبيّة ، وتتذكّر أن الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران قد كتَم لسنواتٍ خبرَ إصابته بسرطان البروستات فلم يُعلن عنه إلاّ قبل وفاته . أمّا مرض الرئيس عبد الناصر ، ومعالجته المستمرَّة فيما كان يُعرَف بالاتّحاد السوفييتي ، ثمّ وفاته فقد أصبح من حديث الكتب . وأمّا مرضُ الرئيس الجزائريّ هواري بومَدين فقد بلَغ من الخطورةِ بحيثُ أُفرِغ فندق الأوراسيّ في العاصمة الجزائرية من نزلائه ، وأُثِّث تأثيثاً جديداً استعداداً لاستقبال وفود المُشيِّعين الرسميَّة ، ولكنّ الإذاعة الجزائرية ظلّتْ مُصِرّة على أنّ حالتَه الصحيَّة مستقِرّة ، ولم يكن ذلك من رأيها طبعاً ، وإنّما كان وحياً يُوحى به ، ويُنفَّذ .

وعلَّم العالَم درساً لم يُرِد أن يتعلّمه مع الأسف إلى اليوم هو أن يُناظر العالِمَ المتّهمَ العالِمُ ، وليس شرطيُّ المخابرات رغم أنّ قضاء الحضارة الإسلامية في القضايا السياسيّة لم يكن مستقِلاً دائماً . وإنّه لمن العجب العجاب أن يناظر القضاةُ والفقهاءُ المسلمون رجلاً تزعمُ كتب التاريخ أنه ادّعى الربوبيّة قبل أكثر من ألف سنةٍ ، مثل ابن الشلمغانيّ ، وأن يُكلَّف رجلٌ مثلُ مكارثي بمحاكمة الشيوعيين الأمريكيين في النصف الثاني من قرننا هذا : القرن العشرين ، وتجريمهم .

وقد يكون علَّم العالم أن يكون ارتباط هذا الجهاز بالمسؤول الأوّل في الدولة ، وليس بوزيرٍ أو نحوه .

ولكنّه علّمنا ـ نحن العرب ـ درساً لم نتعلّمه إلى اليوم هو أنّ هذا الجهاز استطاع أن يحفظ الحُكم لأشخاصٍ رأوا في الحكم غاية ما يتمنّون ، ولكنّه لم يستطِع ـ ولن يستطيع مهما أُوتي من قوّةٍ ـ أن يحفظ دولاً ، أومؤسَّساتٍ ، وحسبك من هذا أن كان أوّل من انقلب على أسلوب الناصر لدين الله العباسي في إدارة الدولةِ ابنُه الظاهر بأمر الله .

ولو كان هذا الجهاز يستطيع أن يحفظ دولةً لحفظ الخلافة العباسيّة بعد عصرها الأول من الفرس البويهيّين ، والتُرك السلاجقة ، ولحفظها من السقوط بيد المغول .

دون أن تتعلَّل بابن العلقميِّ المُتَّهمِ بسقوطها كتهمة الذئب بدم ابن يعقوب . ولكنّه لم يفعل لجملة أسبابٍ منها :

أنَّ همَّه كان منصرفاً إلى الناس ، وليس إلى الأعداء الخارجيّين ، وقد بقيتْ هذه سياستُه عند العرب إلى اليوم ، حتى اضطُرَّت بعضُ أجهزة المخابرات العربيَّة لتغيير نظرة الناس إليها أن تفتح ملفّاتها أمام بعض الكتّاب ، وكتّاب السيناريوهات ، يكتبون عن جهودها الجبّارة التي لا نشكُّ فيها في مكافحة الأعداء الخارجيّين الحقيقيّين ، عسى أن يُلطِّف ذلك من سمعتها في عيون مواطنيها . وتلك حالٌ ذاتُ دلالةٍ .

ولأن هذا الجهاز ـ وهو يلاحقُ الناسَ ـ يجعلُ منهم أحدَ اثنين : إمّا ضحيةً من ضحاياه مقتولاً أو سجيناً أو منفيّاً أو مُشرَّداً ، وإمّا منافقاً يُظهِر غير ما يبطِنُ ؛ فهو يُصوِّرُ لأفراد الجهاز خوفاً من بطشِهم أنَّه مستعِدٌّ أن يفدي الحاكم بروحِه إذا اشتكى من صداعٍ في رأسِه ، وهو نفسُه يكون أوّلَ مَن يُسلِم هذا الحاكمَ إذا نزلت به النازلة ، ثم لا يكتفي بأن يُسلِمه دون أن يمارسَ معه شتى صنوف الإذلال ، والتحقير ، والتمثيل بعد القتل . وتاريخنا العربيُّ منذ عهد الدولة الأمويّة حتّى اليوم حافلٌ بمثل هذه الوقائع .

وتلك معادلةٌ خطيرةٌ حقّاً هي إمّا أن يُقتل الشعبُ أو أن يُقتلَ الحاكمُ . ومن هنا نجد أن الحاكمَ يتشبَّث أشدَّ ما يكون التشبُّث بمنصبه خيفةً مما ينتظره ، فيخلق وهو يتوسَّل بجهاز مخابراته أن يحميه ، شعباً خانعاً ذليلاً ـ وما عليك من الأناشيد الوطنية ، وأحاديث العِزَّة ـ خيرُ من فيه مداهنٌ كذّابٌ مخاتلٌ ، فإن نفَّس عن هذا الشعبِ قليلاً ، وجد أنَّ خيارَه إمَّعاتٌ . وهيهات أن يُدافع إمَّعةٌ عن وطنٍ أو عن حاكمٍ لم ينتخبه ، أو أنَّه انتخبه بنسبة : ٩٩ ، ٩٩ ، أو ٩٦ ، ٩٩ ، أو ٩٠ ، ٩٩ زوراً وبهتاناً .

ولم يحلَّ هذا الجهازُ من مشاكلِ أمّتنا شيئاً ، حتّى لأتساءل : أتُرانا كنّا سنعاني إلى اليوم ـ وبيننا وبين القرن الحادي والعشرين ألفُ يومٍ أو نحوها ـ هذه المشكلة المذهبية الحادّة في بعض أقطار الوطن العربيِّ لو كانت معارضة الأحزاب السياسيّة من خوارج ، وشيعةٍ ، وإسماعيلية ، وسواها قد حُلَّتْ بغير طريق القمع والتكفير ؟ ونشهد جميعاً أن القمع قد حوّلها إلى عقائد راسخةٍ في النفوس تضمنُ الجنَّةَ لمعتنقيها ، والنار لخصومها .

وعجيبٌ ، وفوق العجيب أن قرأنا كلَّ هذا ، ووعيناه ولم نزلْ نُعامل المعارضة بالمفهوم نفسِه إلاّ بمقدار ما قال المرحوم معروف الرّصافيّ :

أحبولةُ الدِّينِ رثَّتْ من تقادُمِها فاعتاضَ عنها الورى أحبولةَ الوطنِ

فقد كان المعارضُ ـ في العصور الماضية ـ كافراً ، أو زنديقاً ، أو مُدَّعياً للربوبيّة ، وصار اليوم « عميلاً للاستعمار » ولا أقول : « الصهيونيّة » خوفاً من أن أُتَّهم بالعمالة لأعداء السلام ـ ولكلِّ مرحلةٍ عندنا شعاراتُها ـ أو « خائناً للوطنِ » أو « من العائشين على فتات الأجنبيِّ » أو « داعيةً إلى قيَمٍ غربيَّةٍ غريبة على مجتمعاتنا » ، وما إلى ذلك من الكلامِ المبتذل الفجِّ .

على أنّي لم أسمع ـ وهذا من العجبِ أيضاً ـ أن قال أحدٌ : إنَّ ترك ركوب الحمير إلى ركوب الطائرات هو من القيم الغريبة الطارئة على مجتمعاتنا .

وإذاً فالديمقراطيَّةُ ، والتداول السلمي على السلطة وحدَه طارئٌ . أمّا ما سوى ذلك بما فيه الجوع ، وانتشارُ البغاء ، والتسوّلُ ، وبيعُ الذِّمم فكلُّه مما يمكنُ أن يُغضَّ النظرُ عنه ، بل ممّا يمكِن أن يُنظَّر له على أنّه من الآفات الاجتماعية التي لا علاقة لها بالسياسة .

وإذا كان الأمرُ كذلك ـ وهو كذلك ـ فكيف يمكنُ أن تقي هذه الأجهزةُ بغداد من أن تقع فريسةً لا أسهلَ منها بيد المغول ، وكيف تقي الأمّةَ العربيةَ أن تكون برمَّتها فريسة ميّتة ـ وليست سهلةً فحسب ـ بيد الصهاينة : مغولِ العصر الجُدُد ؟!!

إنَّ وجود جهاز المخابرات واجبٌ ، وأكثرُ من واجبٍ ، ولكنَّ الخلاف في وظائفه ، وفي طبيعة الحُكم التي توجِّهه ، وفي انتماء الحاكم إن كان منتمياً إلى نفسِهِ أم إلى مصالح وطنه . تلك هي المسألة .

ومع هذا ، وذاك ، فالإسلام بريءٌ مما اقترفه الخلفاء المسلمون ، وسواهم من أمراءٍ وملوكٍ ، وما شئت من تسمياتٍ منذ عهد معاوية بن أبي سفيان باسمِهِ إلى اليوم ؛ فهو أسمى من أن ينتهك حقوقَ الإنسان بمثل هذه الفظاظة ، بل لعلَّ الإسلام حفظ من حقوق الإنسان أكثر مما حفظت الدياناتُ الأُخرى ، ولكنَّهم حكموا باسمِهِ ، ويحكمون .

وإذا كان لي من كلمةٍ أخيرةٍ أُثبِتُ فيها لنفسي ـ قبل أن أُثبت للقارئ ـ أنّني لم أكن من نابشي قبورِ الموتى من أسلافنا ، فهو قولُ نبيِّنا العظيم محمد (ص) :

« ألا هل بلَّغتُ ؟ اللهمَّ فاشهدْ » .

المصادر والمراجع

آثار الأول في ترتيب الدول ، الحسن بن عبد الله العباسي ، تحـ : الدكتور عبد الرحمان عميرة ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٩ .

أخبار الراضي والمتَّقي ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تحـ : هيورث دن ، مط الصاوي ، مصر ، ١٩٣٥ .

أخبار الشعراء ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، تحـ : هيورث دن ، مط الصاوي ، مصر ، ١٩٣٤ .

الأخبار الموفَّقيات ، الزبير بن بكار ، تحـ : الدكتور سامي مكي العاني ، مطبوعات وزارة الأوقاف العراقية ، ١٩٧٢ .

أدب الإملاء والاستملاء ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ط١ ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨٤ .

الاشتقاق ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، تحـ : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ .

أشياء من اللغة المولَّدة ، محمد حسين الأعرجي ، (بحث قُدِّم إلى مؤتمر المستعربين البولنديين الذي انعقد في حزيران : ١٩٩٧) . لم يُنشر بعد .

الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، عليّ بن الحسين ، تقديم : محمد حسين الأعرجي ، مؤسسة الفنون المطبعية ، الجزائر ، ١٩٩٢ .

الاغتيالات السياسية في العصر العباسي ، محمد حسين الأعرجي ، مجلَّة المدى ، ع١٠ ، ١٩٩٥ .

الإمامة والسياسة ، منسوب لابن قتيبة الدينوري ، تحـ : علي شيري ، منشورات الشريف الرضي ، قُم ، ١٤١٣هـ .

الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدي ، تقديم الدكتور مختار نويوات ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ١٩٨٩ .

الأمثال ، أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، تحـ : محمد حسين الأعرجي ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ١٩٩٣ .

بغداد ، لابن طيفور ، مكتبة المثنى ، بغداد ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٦ .

البيان المغرب ، ابن عذارى المراكشي ، مط المناهل ، بيروت ، ١٩٥٠ .

بين الخلفاء والخلعاء ، الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزَّبيدي ، مصر ، ١٣٠٧هـ (أوفسيت) .

تاريخ الأدب العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط١٢ ، ١٩٩٤ .

تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، محمد بن جرير الطبري ، ط٥ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٨٩ .
تاريخ البيهقي ، أبو الفضل البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ .
تاريخ طبرستان ، بالفارسية ، محمد بن حسن بن إسفنديار ، تحـ : عباس إقبال ، مط مجلسي ، طهران ، ١٣٣٢هـ .
التاريخ المنصوري ، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي ، تحـ : الدكتور أبو العيد دودو ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٨٢ .
تجارب الأمم ، أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ، صححه : آمدروز ، مط شركة التمدن الصناعية ، مصر ، ١٩١٤ .
التمثيل والمحاضرة ، أبو منصورعبد الملك بن محمد الثعالبي ، تحـ : عبد الفتاح محمد الحلو ، مط البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١ .
الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ط٢ ، دار الشام للتراث ، بيروت (طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتب المصرية) .
جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر (مصور عن طبعة الهند) .
الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحـ : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦ .
خطط البصرة ومنطقتها ، الدكتور صالح أحمد العلي ، مط المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٦ .
خطط بغداد في العهود العباسية الأولى ، الدكتور يعقوب ليسنر ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، مط المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٤ .
دائرة المعارف الإسلامية ، مجموعة من الباحثين ، نقلها إلى العربية جماعة من المترجمين ، إيران ، نسخة مصوّرة عن الطبعة المصرية ١٣٤٠هـ .
ديوان ابن المعتز ، عبد الله بن المعتز ، شرحه مجيد طراد ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٥ (بدون نص) .
ديوان ابن المعتز ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٨٠ .
ديوان أبي حُكيمة الكاتب راشد بن إسحاق ، تحـ : محمد حسين الأعرجي ، دار وهران للدراسات والنشر ، ١٩٩٣ .
ديوان الحلاّج الحسين بن منصور ، صنعة : الدكتور كامل مصطفى الشيبي ، منشورات الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، ١٩٩٧ .
ديوان الحماني ، علي بن محمد العلوي ، صنعة : محمد حسين الأعرجي ، مجلة المورد العراقية ، ع٢ ، مج٣ ، ١٩٧٤ .

ذيل تجارب الأمم ، محمد بن الحسين الملقَّب ظهير الدين الروذراوري ، تصحيح : آمدوزر ، مصر ، ١٩١٦ .

الرجال ، (رجال الكشي) ، أبو عمرو محمد بن عمر . . . الكشّي ، علّق عليه السيد أحمد الحسيني ، مط الآداب ، النجف ، د . ت .

رسائل أبي بكر الخوارزمي ، محمد بن العباس الخوارزمي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٠ .

رسوم دار الخلافة ، أبو الحسين هلال بن المحسِّن الصابي ، تحـ : ميخائيل عواد ، مط العاني ، بغداد ، ١٩٦٤ .

الروضة من الكافي ، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكُليني ، صححه علي أكبر الغفاري ، مط الحيدري ، طهران ، د . ت .

السيرة النبوية ، أبو محمد عبد الملك بن هشام ، علّق عليها عمر عبدالسلام تدمري ، ط٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٣ .

شذرات من اللغة المولَّدة ، محمد حسين الأعرجي ، مجلة العرب ، ج٣ ، ٤ ، س : ٣٠ ، آذار ، نيسان : ١٩٩٥ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

شرى الرقيق وتقليب العبيد ، أبو الحسن المختار بن الحسن . . . المعروف بابن بطلان ، تحـ : عبد السلام محمد هارون ، (ضمن نوادر المخطوطات : ٤) مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

الشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة ، محمد حسين الأعرجي ، (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة) نيسان : ١٩٧٣ .

شعراء عباسيّون ، الدكتور يونس أحمد السامرّائي ، ط٢ ، علم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٠ .

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي ، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية .

الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحـ : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧ .

صلة تاريخ الطبري ، عريب بن سعيد القرطبي ، (ضمن الجزء الثامن من تاريخ الطبري) .

العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي ، تحـ : أحمد أمين ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د . ت .

عيون الأخبار ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحـ : الدكتور محمد الإسكندراني ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٤ .

الفخري في الآداب السلطانية ، والدول الإسلامية ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطِّقطِقى ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .

الفرج بعد الشدّة (ينظر المختار من . . .) .

فن التمثيل عند العرب ، محمد حسين الأعرجي ، ط١ ، دار الحرية للطباعة ، الموسوعة الصغيرة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ .
الفهرست ، محمد بن إسحاق النديم ، تحـ : مصطفى الشويمي ، الدار التونسية للنشر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٥ .
الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم الشيباني ، المعروف بابن الأثير ، ط٤ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ١٩٩٤ .
الكامل في اللغة والأدب ، محمد بن يزيد المبرِّد ، تحـ : سيد شحاتة ، مصر .
الكناية والتعريض ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، (ضمن رسائل الثعالبي) ، دار صعب ، بيروت ، مكتبة دار البيان بغداد ، د . ت .
مثالب الوزيرين ، أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس ، تحـ : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦١ .
مجمع الأمثال ، أحمد بن محمد الميداني ، نشر : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مط السعادة ، مصر ، ١٩٥٩ .
المحاسن والمساوئ ، إبراهيم بن محمد البيهقي ، تحـ : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مط نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦١ (من المقدّمة) .
المحمّدون من الشعراء وأشعارهم ، علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي ، تحـ : رياض عبد الحميد ، ط٢ ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٩٨٨ .
المختار من الفرج بعد الشدّة ، القاضي أبو علي المحسَّن بن علي التنوخي ، اختيار الدكتور عبد الإله نبهان ، وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٩٥ .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، علي بن الحسين المسعودي ، نشر : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٣ ، مط السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
مسند الإمام أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل ، تحـ : أحمد محمد شاكر ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٩ .
مصارع العشاق ، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
معالم العلماء ، ابن شهراشوب ، راجعه محمد صادق بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦١ .
معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، مؤسسة التاريخ العربي ، ودار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (طبعة مصوَّرة عن طبعة دار المأمون المصرية : ١٩٣٦) .
معجم الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحـ : عبد الستّار أحمد فرّاج (مصور عن طبعة مطبعة الحلبي : ١٩٦٠) . د . مط . د . ت .
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عبد الله بن عبد العزيز البكري ، تحـ : مصطفى السقّا ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت١٩٨٣ .

معنى المقتصد لدى ابن شهراشوب ، محمد حسين الأعرجي ، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق ، ١٩٧٢ .

المكتبات في الإسلام نشأتها ، وتطورها ، ومصائرها ، الدكتور محمد ماهر حمادة ، ط٣مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .

من تاريخ التعذيب في الإسلام ، هادي العلوي ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، د . ت ، د . مط .

موسوعة الاستخبارات والأمن في الآثار والنصوص الإسلامية ، علي دعموش العاملي ، ط١ ، دار الأمير للثقافة والعلوم ، بيروت ، ١٩٩٣ .

نثر الدر ، أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، تحـ : الدكتور عثمان بوغانمي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٣ .

نظم الاستخبارات عند العرب والمسلمين ، عارف عبد الغني ، ط١ ، دار الهدى ، عين مليلة ـ الجزائر ، ١٩٩١ .

النهاية في غريب الحديث والأثر ، مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير ، تحـ : محمود محمد الطناحي ، مط البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ .

نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب ، تقديم الدكتور مختار نويوات ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ١٩٨٩ .

الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، تحـ : جملة من الباحثين ، ط٢ ، فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ألمانيا ، ١٩٨١ .

الوزراء ، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، أبو الحسن الهلال بن المحسن الصابي ، تحـ : عبد الستار أحمد فرّاج ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن . . . خلكان ، تحـ : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ (من المقدمة) .

ولاة مصر وتسمية قضاتها ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، مؤسَّسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٩ .

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، نشر : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

فهرس الموضوعات



.. لماذا أهتمُّ بهذا الجانب المُظلم من تاريخنا دون
؟ وأقول إجابةً عن السؤال : إنَّ من شأن الظلمة أن
النظر في مهرجانَ الضوء أكثر مما يلفتُ الضوءُ
. هذه واحدةٌ . فأمّا الثانية فهي أنني لم أكن أحسبُ
فكّرت أن أبحث في هذا الموضوع أن أُفاجأ بكل هذا
م الحالك . وأما الثالثة فهي أننا ونحن نتقبّأ ظلال غابة
المعاصر حُكّاماً ومحكومين لابدَّ لنا أن نعرف كيف
جذور هذه الغابة . وإلاَّ فعجيبٌ ألاَّ يكون لحُكّامنا
نافذةٌ مسموعةٌ في العالم - رغم أنهم لو شاءوا أن
موا ببعض اقتصادهذا العالَم لفعلوا - وأن لا تكون لنا
المحكومين حقوق البهائم في أن تُضرب عن الطعام ،
ي إذ يؤرّقني الموضوعُ أسيء إلى حضارتنا العريقة ؟